منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

مجاز
للنشر والتوزيع

ثقافة
THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

مكتبة

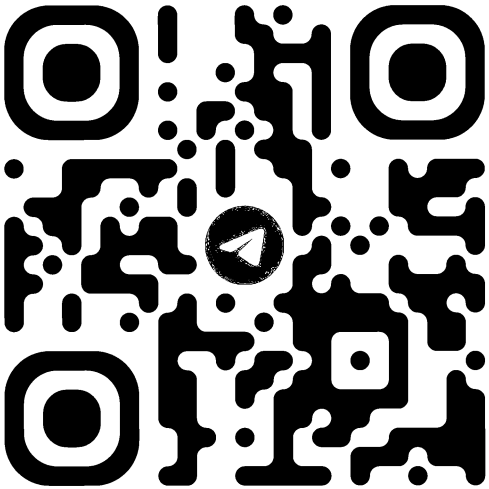
شَهلا العُجَيلي



غُرفَة حنّا دِيَاب

رواية

غُرفَة
حنّا ديَاب



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الطبعة الأولى

1446 هـ - 2025 م

ردمك 978-614-02-4647-8

جميع الحقوق محفوظة

ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م.
THAQAFA Publishing & Distribution L.L.C.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

مجاز للنشر

عمّان- خلدا- امتداد شارع الجاردنز
هاتف: 00962-79-5584993
البريد الإلكتروني: majaz.publishing@yahoo.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

شَهلا العُجَيلي

غُرفَة حنّا دِيَاب

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

مجاز
منشورات

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الإهداء

إلى يوحنّا إبراهيم، وفاء لوعد قديم،
وإلى الدكتور حسين،
وإلى منار.

شهلا

الفصل الأوّل

صُور على رفّ الموقد

حادثة لا تقبل الصفح

لم أصل في اللحظة المناسبة، تأخّرت أقل من ثلاث دقائق، وحين فتحتُ الباب أخبرتني الممرّضة أنّ المرأة الراقدة منذ أيّام في السرير، والتي لم أفارقها إلاّ للضرورة القصوى، قد أسلمت الروح توًّا إلى بارئها. كتمت صرختي، واضعة كفّي على فمي. كان وجه حماتي ما يزال مكشوفًا، والممرّضات يقمن بنزع الأجهزة ولفّ الجسد الذي غادره السرّ الإلهي سريعًا، وذلك استعداداً لدخول المودّعين، ومن بعدها لإيداعه في ثلاجة الموتى إلى اليوم التالي حيث مراسم الدفن.

حدّقت في وجه حماتي الذي صار أصفر شاحبًا، وقد فقدت في أقّل من شهر جلّ شحمها الذي خزّنته لسنوات طوال. أسنانها ظهرت من بين تقويرة الشفتين الذابلتين، يحاول ولدها الكبير حازم أن يغلق فكّيها مساعداً الممرّضة التي تلفّ الشاش حول الرأس، لكنّ أيّاً من العضلات لا تستجيب بالطبع. كانت زوجته تقف عند رأس حماتها هي الأخرى، تقرأ في المصحف وتجهش بخفوت. اقتربت منها وعانقتها، وعانقت حازم، وبكى ثلاثتنا معًا. كنّا جميعًا نتوقّع الوصول إلى هذه اللحظة، ومع ذلك بدونا كأنّنا فوجئنا بها، هكذا هو ملاك الموت مباغت وسريع، ينجز مهمّته من غير أن يلتفت لجدول أعمال أحد. كنت أحبّ خالتي حياة جدًّا، وقد قضيت جلّ ذلك الشهر إلى جانبها في المستشفى، أنام

على الأريكة بجوارها، أتابع غذاءها ودواءها، وقد بقي لديّ أمل حتى اللحظة الأخيرة أن تدركها معجزة فتستعيد عافيتها، لكنّ ذلك النزيف الدماغيّ الذي أدخلها في غيبوبة لأيّام، أبى إلاّ أن يكون سبب موتها.

لم يكن المشهد جليلاً كما يفترض به أن يكون، فالغرفة في حالة فوضى، مشمّعات البلاستيك التي توضع تحت المرضى ملقاة على الأرض، ووجبات طعام المرافقين مغلّفة ومتروكة على الطاولة النقّالة، وكذلك علب العصير، وقناني ماء صغيرة مستعملة، وخراطيم الأجهزة وأسلاكها متشابكة ومرميّة على الأرض. كنت أتوقّع أن تكون لحظة موت حماتي أكثر سكينة، بل أكثر جمالاً بما يليق بتلك السيّدة النبيلة التي كانت مسكونة بفكرة النظافة، والترتيب، والأناقة. ندمت كثيراً على مغادرتي المستشفى لساعة، أردت أن أستحمّ وأغيّر ملابسي، وأعود من فوري تأهّبًا لتلك اللحظة، فأنا لم أغادر المستشفى منذ يومين. أردتُ أن أكون مع هذه المرأة التي احتضنتني كأنّني ابنتها، وفي لحظاتها الأخيرة، وأن أمسح آخر دمعتين ستسقطان من عينيها في إغماضتهما الناقصة، فأقول لها: لا تبكي على الدنيا يا حبيبتي، فهي بائسة ولا تستحق البكاء، وأن أمسك بإصبعها فألقّنها الشهادتين، وأذكّرها بردودها على سؤال الملكين: من ربّك؟ الله ربّي. ما دينك؟ الإسلام ديني. من نبيّك؟ محمّد نبيّي...

أردت أن أجسّ روحها وهي تخرج من قدميها، أو أن أتابع مجراها من الحلق إلى الشفتين فأشهد نفختها، لكن لم يحدث شيء من ذلك، على خلاف توقّعاتي أو أمانيّ.

دخل زوجي، ارتمى على جسد أمّه باكيًا، أرى ظهره يعلو ويهبط. أعرف أنّه حزين جدّاً، وأنّ فقده أمّه سيدخّله في حالة كآبة، الله وحده يعلم

نهايتها. لقد ركب الطائرة فوراً حين أخبرته أنّ أمّه قد تكون في آخر وقتها. هو الآخر سافر منذ يومين لينهي عملاً ضروريّاً، وليعود من فوره، ولم يغادر إلاّ حين أبلغه الأطبّاء أنّ الغيبوبة قد تستمرّ أشهراً. حين سافر كانت أمّه ما تزال حيّة، تتنفّس، ومؤشّراتها الحيويّة في حالتها الطبيعيّة، وها هو يصل وقد اجتازت العتبة إلى عالم الأموات. بحث تحت الأغطية عن يدي أمّه وعن رجليها، وقبّل كلّ ما استطاع أن يلمسه من جسدها، قبلٌ على الأردية البيضاء، وقبلٌ على اللحم الذي ما زال دافئاً. حين حاولت أن أرفعه عنها انتبه إلى وجودي، وتعانقنا باكيين.

مرّت دقائق وبدأ الناس يتوافدون، بنتها التي أخّرتها أزمة السير الخانقة، ثمّ زوجها وولداها، والأقرباء، كلّهم خانهم التوقيت، وكما هي العادة فالبكاء يعلو قليلاً مع كلّ وافد جديد، مع بعض كلمات الوداع والعتاب والاستبقاء، يختلط بصوت الدعاء وطلب الرحمة. أمسكت مصحفي، كان في حقيبتي دائماً في الأيّام الأخيرة، ووضعت الشال الذي يرافقه أيضاً على رأسي، وبدأت بقراءة سورة (يس) على روح حماتي الطاهرة. غبت في ملكوت الكلمات والعبر، فقراءة الآيات في حضرة الموتى تتخذ غايات غيرها عن قراءتها في باقيات الأيّام، فالنية هنا رجاء حارّ مشفوع بالبكاء بتسهيل عبور هذه الروح مطمئنّة إلى الجنّة بلا حساب أو عقاب. كنت واعية إلى أنّ من حولي يدخلون ويخرجون، وكل يعيش هذه اللحظة الفارقة بطريقته، قلت:... صدق الله العظيم، وقبّلت مصحفي ورفعته إلى جبيني ثلاثاً، وناديت بصوت خفيض: الفاتحة، فاستجاب لي من سمع، وحين رفعت رأسي باغتتني عينان تلمعان بضوء أخضر تحدّقان بي، مثل عيني فهدة، لامرأة تستند إلى الحائط المقابل من الجهة

الأخرى لسرير الميّتة، امرأة لا أعرفها، لم أرها من قبل، ليست من الأقرباء، ولا من طاقم المستشفى، حيث يفترض فقط أن يكون هؤلاء المذكورون هنا في هذه اللحظات الحميمة جدّاً! أعطاني عقلي فوراً إشارة إلى أنّ هذه المرأة جميلة جدّاً، وأنّها مصدر خطر. عدت بعد هنيهة إلى سياق الحدث، تعانقت مع البعض، تبادلت معهم عبارات العزاء، لم أر زوجي في الغرفة، نظرت مجدّداً إلى الجدار، كانت المرأة قد اختفت أيضاً. أبعدت من في طريقي، فتحت باب غرفة المستشفى الثقيل بحرفيّة، كان جمهور صغير يتوزّع في الفسحة أمام الباب، نظرت في عمق الممرّ فرأيت ظهر زوجي يمشي محنيّاً قليلاً ويدفع أمامه جسداً يخرج من آخر متر باتجاه الردهة. عاد بعد دقائق، التقت نظراتنا، بالنسبة لي لم يكن هو، وقد أدرك غالباً بدوره أنّ حدسي لن يخونني، وأنّ أشياء كثيرة بعد هذه اللحظة ستتغيّر إلى الأبد.

لم أنتظر حتّى ننتهي من إجراءات تنزيل حماتي إلى برّاد المستشفى، سألته فوراً من هي هذه السيّدة التي كان يكلّمها، فأنكر أنّه كان يكلّم أحداً، واستنكر سؤالي في هذا الظرف قائلاً: هل هذا وقته! ممّا أكّد شكوكي. وحين عدنا إلى البيت كنت طوال الطريق واجمة، وكنّا قد خرجنا سريعاً من قصّة الموت إلى قصّة أخرى، كان ينظر إليّ وهو يقود من جانب نظّارته، وكنت أحدّق في الطرقات التي بدت خالية من الناس منذ المغرب مع تحرّكات قطع الجيش في الضواحي القريبة، والتي جعلت حلب تغلي من غير أن تنفجر، وهي تُعدّ حتّى ذلك الحين تحت قبضة النظام، لكنّ شكل الحياة فيها تغيّر، وحركة الناس تشير إلى أنهم يستعدّون لحرب وشيكة. لم يتوقّع محمود أنّني في هذا الظرف سأتّخذ

إجراءً يكشف كلّ شيء، فما أن دخلنا البيت وعانقنا الولدين اللذين دخلا في بكاء حار لفقد جدّتهما حتى دخل الحمام، وأمسكت هاتفه على عجل، وهذا ما لم أفعله في حياتي، وفتحت الواتساب وانجلت أمامي الحقيقة: سلسلة من رسائل الاطمئنان، والغرام والدلع، وسريعاً سريعاً سحبت الصفحات لأرى صور ندى، هي ذاتها التي كانت في غرفة المستشفى، صورها في المقاهي وأمام المرآة، وعلى شاطئ البحر بلباس السباحة، وأيضاً إشعارات مصورة بتحويل مبالغ ماليّة، وانهارت أعصابي، وشعرت أنّ الدنيا تلفّ بي، والاطمئنان الذي عمره سنوات طويلة اقتلع من قلبي في لحظة، وأنّ طرفاً غريباً مجهولاً يسرق حياتي، ومستقبلي ومستقبل أولادي، وليس زوجي فحسب.

خرج محمود وشدّ الموبايل من يدي هائجاً وهو يعيب علي ذلك، وبدأت أكيل له الشتائم، وأصرخ وأعوي: يا خاين، خربت بيتنا، أنت وضيع، ووضع يده على فمي، وبدأ يدافع عن نفسه حين أسقط في يده قبيل نهاية الجولة الأولى من الحرب، التي أعلنتها مفتوحة بيننا. قال إنني فهمت الأمر خطأ، وأنّه لن يشرح لي شيئاً حتّى أهدأ، وكانت مجرد كلمات يقولها فلا شيء يقال مع هذه الأدلّة، ودخلت في حالة من العويل دخل على إثرها الولدان، وقد اكتشفا أنّ أمراً يحدث غير موت حماتي يسبب ذلك الضجيج، وخرج محمود لأول مرة منذ ثماني عشرة سنة من حجرة نومنا، بكثير من رجاءات الهدوء حتى ننهي مسألة العزاء ثم نتفاهم، وبكثير من الأسئلة والتهديدات، وأنا أشدّه من يده، وأخنقه من رقبته وأسأله من هي ابنة الحرام، هذه العاهرة التي أنت معها، ومنذ متى، وما هو مستوى العلاقة بينكما، وإلى أين وصل! وظلّ ينكر ويقول إنّ

الأمر ليس كما في بالي، وقلت له إن لم تخبرني، سأتصل بها، وسأدمّر عيشتها هذه الساقطة، فقد حفظت رقمها، وسألاحقها وأفضحها، وصار محمود يعاملني مثل مجنونة فقدت أعصابها، وقد شعر حقّاً بأنّني جادّة، وأنّ البيت الذي عمّره طيلة هذه السنين سأهدّه على رؤوسنا جميعاً. منذ تلك الليلة فقدت قدرتي على النوم لأسبوع حتّى انهرت، وهو لا يعطيني فرصة لأنفرد به، فيخبرني من هي ساقطته هذه، وكان يتعمد الغياب في العزاء لأطول وقت ممكن، وكنت أناديه من بين الرجال، فيأتي إليّ لأسأله من هي هذه المرأة، وكيف بدأت علاقتهما وهل سينهي هذه العلاقة، ولم يكن يجيب سوى بكلمات مضللة ومقتضبة، ويقول بأنها لا أحد، بنت عرفها منذ فترة قليلة، والتقيا لفترة وجيزة، ولم يحدث بينهما أية علاقة جسديّة.

- وإلى متى كنتما ستستمران:
- لا أعرف!

قالها بوقاحة أخافتني.

- من هي؟
- كلما دخلنا في التفاصيل كبّرنا المشكلة، ولن أقول شيئاً آخر، وسننهي هذا الموضوع الآن.

انتقل محمود، بعد أسئلتي التي لم تكن تتوقّف، من الدفاع إلى الهجوم، وفاجأني بأنّني لم أكن أعرفه، وأنّني عشت معه وجانب غامض من حياته لم أكن قد دخلت إليه، وأنّه مثل كل الرجال الذين نسمع عنهم يسوّغون الخديعة ببساطة، ويمكن أن يختلقوا أيّة قصّة يقنعون أنفسهم والآخرين بها. عرفت أنّه كان مذعوراً بما لا تفصح عنه انفعالاته الثابتة،

فقد اتصل بأمّي مراراً ليستشعر منها إذا ما كنت بلّغتها بالأمر، واتصل بفرح صديقتي التي لم تسمع صوته منذ سنوات، وكانت إجاباته الأخيرة التي أراد بها إغلاق الملف صعبة للغاية ومتناقضة، قال: أحببت أن أتزعرن مثل كلّ الرجال، مرّة في العمر أستحقّ عليها التغاضي! وحين قلت له مثل كلّ النساء المهزومات: لو فعلتها أنا فهل ستتغاضى؟ قال بصفاقة إنّني لم أقصّر في هذا الاتّجاه، ولديّ علاقاتي أيضاً، وأنّه ما كان ليفعل ذلك لولا أن وجد منذ فترة على موبايلي رسائل من أحد زملائي في العمل، فيها عبارات تبسّط وإعجاب، وأنّني قلت في إحداها: لابدّ من أنّ حبيبتك محظوظة بك! عندها عرفت أنّ محمود سينتقل إلى مستوى آخر من الحرب، وأنّه في سبيل أن يبرّئ نفسه سيفعل كلّ شيء، حتّى لو اتهم زوجته وأمّ ولديه بالخيانة، التي لو كان يعرف أنّها حقيقة بنسبة واحد بالمئة لما أبقاني في بيته ساعة. في آخر يوم لي في بيتنا، وقفت أمامه في المطبخ، وكان يعدّ قهوته وصفعته صفعة تبرّد نار القلب، فصفعني مباشرة لكنّني انحرفت وجاء جزء من أصابعه على خدّي، ومع ذلك آلمني، وخرجت عائدة إلى بيت أهلي.

عدت إلى حيّ السبيل بعد أن رتّبت أموري بصعوبة في ظلّ الاضطرابات في البلد، وكان عليّ أن أنظّف البيت، وأرتّبه، وأخزّن المؤن، ومستلزمات الحياة اليوميّة التي باتت شحيحة علينا في حلب، فالكهرباء تنقطع لساعات طويلة، وكذلك المياه، بسبب تخريب خطوط الإمداد في المعارك بين ألوية المعارضة وقطع الجيش النظامي في المناطق حول المدينة، وقد كان في عودتي مغامرة كبيرة، لكن لو بقيت في البيت كنت فقدت نفسي فعلاً. أخذتُ الخادمة معي، نظّفت البيت والقبو، ورتبت كل

شيء، وأخذت من خزنة محمود مبلغاً كبيراً من المال، وذلك بشكل انتقاميّ أكثر من أن يكون احتياجاً، وأنا أقول في نفسي: أنا أولى من الساقطات. لم يتخيّل محمود أنّني سأفعل ذلك في هذا الظرف، ورجاني أن أبقى في البيت حيث كلّ شيء مؤمّن وصالح للحياة، على عكس ما يجري في الخارج من تضييق في العيش وقلّة أمان، يعتقد أنّ امرأة يمكن أن تقايض كرامتها التي طعنت على حين غرّة باحتياجات الحياة! حاول ثنيي بحجّة الخطر، إذ يمكن للقوات اقتحام هذا الجزء من المدينة في أيّة لحظة، لكّنني لم أطاوعه. هدّدني بالطلاق، ورحّبت بذلك، وقد زهدت به حقّاً، وكرهته، وكان عندي رغبة واحدة فقط هي أن أعرف هويّة هذه المرأة التي خانني معها، وهو ما لم يترك لي فرصة بأن أحقّقها. وقف الولدان في صفّي، لكنّهما حاولا ثنيي عن مغادرة البيت، ولأوّل مرّة أرى هذين الشابين الرائعين يبكيان منذ سنوات طويلة، كانا في سنواتهما الجامعيّة الأولى والثانية، لكنهما بعد حوار طويل تفهّما رغبتي في البقاء وحدي لفترة، وحين احتضناني شعرت بالأمان، كانا أعظم مكسب في حياتي، وبهما فقط يمكنني أن أسامح الزمن على الخذلان الذي أقول بثقة إنّني لا أستحقّه. بكيت على صدريهما طويلاً، وكانا مثل أخوين أو أبوين يهدهداني، وشعرت بنضجهما وقوتهما، وبأنّ وجودهما سالمين هو عندي غاية الدنيا. كان الانفصال عن العائلة في هذه الظروف غير الآمنة هو النقطة الأساسيّة التي تخيفني، ومع ذلك مضيت لأحفظ ما تبقّى من كرامتي ووجودي بانتظار أن أهدأ، وآخذ قراراً بالعودة أو الرحيل.

حين استقرّ بي المقام في بيت أهلي انزاح جزء من الثقل عن قلبي، وقرّرت أن أستعيد صحّتي المنهارة وأعصابي المتداعية، وأقنعت نفسي أنّ

العيش هنا أرحم، والوصول إلى عملي سيكون أيسر بعد انتشار الحواجز الأمنيّة التي قطّعت أوصال المدينة. عدت خفيفة، أمارس طقوسي القديمة، وأحاول أن أتذكّر ذاتي وأعيد تركيبها بعد أن توزّعتها العائلة مجّانًا، وخرجت منها الخاسرة الوحيدة. كنت أنام وأصحو لأيّام، لم أفعل فيها غير ذلك، وكانت سماء الخريف الشقراء التي أحدّق فيها وأنا ممدّدة على أريكتي مثل جثّة بحاجة إلى روح، تثير فيّ المزيد من الشفقة على نفسي. أنظر في الصور القديمة على رفّ الموقد أمامي وأكتشف أنّ عليّ أن أفقد عائلتي في حياة واحدة مرّتين. بدأت شيئًا فشيئًا أستجمع إرادتي لأقوم وأتناول طعامًا يقوتني، شربت حليبًا مع كعكة، وصرت أفضل، ثمّ تناولت فنجان قهوة، وبدأت الألفة تدبّ في ضلوعي، وأنا أستعمل الأغراض القديمة في بيت أهلي، وقلت سأضع برنامجًا لحياتي قبل العودة من الإجازة التي أخذتها لأتماسك قليلاً، لا يمكن أن أترك نفسي لانهيار تامّ في وقت تنهار فيه البلد، ويحتاج منّي الكثير من التماسك لأبقى وحدي.

فتحت دُرج المكتب لأبحث عن قلم ودفتر لأدوّن بقية احتياجاتي، فظهرت وثيقة التخرّج المصدّقة، ومعها نسخة مصدّقة أيضًا من معادلة الشهادة، وكان غسّان قد تركهما في حوزتي كنسخ احتياطيّة في حال احتاج أيّة معاملة رسميّة إن عرض له سفر. فَرَدْتُ الوثيقة على سطح المكتب، ورحت أتأمّل الحروف الذهبيّة المكتوبة باللغة الفرنسيّة والتي تشير إلى مدرسة الفنون الوطنيّة في باريس – قسم التصميم الداخليّ، وسأسترجع، بعد هذه السنوات كلّها، تلك اللحظة التي تقاطع فيها طريقي بطريق غسّان، بذاكرة مرهقة، ترفض المهادنة حتّى في أكثر التفاصيل خصوصيّة.

حلب، زمان الوصل

كانت بعثة إحياء المدينة القديمة، والمموّلة من مؤسّسة الآغاخان قد تعاقدت معي على أعمال استشاريّة تتعلّق بتاريخ المدينة، وتحديداً كتابة ملخّصات حول الموسوعات العربيّة والأجنبيّة التي عنيت بمدينة حلب، وكان عليّ أن أمرّ بمكتبهم في حيّ العقبة، بجانب حمّام السادات لأتعرّف إلى الفريق العامل، ونتحاور حول متطلّبات العمل.

وصلت قبل العاشرة صباحًا، كان الطريق من حيّ السبيل إلى باب الفرج سالكًا، فموظّفو البنوك من شارع المتنبّي، حتّى دخلة خان الوزير، فالسبع بحرات، كانوا قد وصلوا أماكن عملهم عند الثامنة صباحًا، وتجّار الخضار الذين نقلوا بضائعهم إلى باب جنين حيث سوق الهال، قد غادروا منذ الفجر، ومايزال تجّار "سوق المْدِينة" وما حوله في بيوتهم، فأعمالهم لا تبدأ قبل الحادية عشرة من ضحى كلّ يوم. كان يومًا خريفيًّا من أيّام تشرين الأوّل، سأقابل فيه السيّد شفالييه رئيس البعثة، وهو فرنسيّ ويتقن العربيّة، وباحث متعمّق في الأدب العربيّ القديم والتراث. نبّهت سائق التاكسي إلى أنّنا تجاوزنا مدخل العقبة، فاعتذر عن شروده، وقال إنّه سيزلني عند مدخل الجامع وسأضطرّ للمشي قليلاً في الأسواق، وذلك أفضل من دخولي "سوق العتمة" الذي تركناه خلفنا بكلّ حال.

دخلت من "سوق إسطنبول"، وكانت الدكاكين في معظمها مغلقة، والناس قلّة، ومشيت في الزواريب الرطبة مستوحشة قليلاً، وعند دخلة "سوق السقَطيّة" بدأت الحركة تدبّ في الأروقة، وخيوط الشمس تتسلّل من المنافذ المتروكة على جوانب أقواس الحجر للسقوف المغطّاة، ومن نوافذ صغيرة تحت المقرنصات التي تجمع قبابه. تفوح في فضائه رائحة قلي العجّة، والكعك المخبوز بالسمسم، والزعتر، واللحم المتبّل: الكباب والشقف التي تُضمّ في أسياخ مع البصل والبندورة، وتترك لتشوى عند طلب الزبون. تتدلّى الذبائح الطازجة المعلّقة بحلقات الحديد من السقوف أمام مصاطب دكاكين القصّابين، ويتأكّد المشتري من طزاجتها وهو يتلمّس بيضات الخروف، وفي الفيترينات الأماميّة يحضّر الأجير اللسانات والنخاعات، يصفّها في صحاف الستانلس ستيل، ينثر حولها عروق البقدونس، وشرائح الليمون، وحبّات البندورة الكاملة والبصل. قد تتأخّر محلاّت التوابل قليلاً في الفتح، وما أن يرفع صاحب المحلّ درّابيّته حتى تظهر الصناديق الخشبيّة المفصولة بقواطع فيها الألوان الزاهية للكمّون، والفليفلة الحمراء المطحونة، والزعتر، والكزبرة، وورق الغار، وحبّ القرنفل، والعصفر، والمستكة، ويمكن له أن يفتح في الداخل عشرات الأدراج حيث التوابل الثمينة، كالزعفران، وعيدان القرفة، والمكسّرات كالصنوبر والجوز واللوز، ولا نعرف أين يخفي بالضبط متطلّبات قوائم السحرة: عين الديك، وفَرج الضبعة، وبيض التمساح، لكنّها موجودة عند طلبها بالتأكيد، وخلفه على الرفوف الضيّقة مطربانات لبان الدكر، وعلك البطم، وحبّ الفلفل الأسود والأبيض، وجريش الحنطة، وقرون فليفلة مجفّفة غير مطحونة، وملح الليمون، وقد

يعلّق الرمّان المجفّف، والبامية الناشفة في خيوط، إلى جانب ليف الحمّام الخشنة، وإسفنج البحر.

دخلت في أزقّة حيّ العقبة الحجريّة الضيّقة، ومشيت براحة على الأرضيّات المحجّرة، فقد تذكّرت أن أرتدي حذاء مسطّحاً سميك النعل، وبلا كعب، وأتذكّر أنّه كان من الجلد البيج اللمّاع. وصلت إلى المقّر، وهو بيت عتيق وفاخر من بيوت حلب التي تعود إلى القرن الثامن عشر. كان باب الحديد الأسود، والمفصّل حديثاً على قدّ قنطرة المدخل، وله مقبضان كرويّان نحاسيّان، مغلقاً. بدا لي كأنّه باب قلعة ولن يفتح أبداً. حاولت دفع الدرفة اليمنى، فلم تتحرّك. على طرف الجدار جرس وتحته قفل إلكترونيّ بأزرار مرقّمة، ويبدو أنّ دخول الموظّفين يكون برقم سرّي. للباب درجتان من الرخام الحلبيّ الأصفر.

جلست على بسطة الدرجة العليا، بعد أن تأكّدت من نظافتها وجفافها، فلا أريد أن تفسد بدلتي الكتّان الزيتيّة التي جئت أقابل بها السيّد شفالييه، اشتريتها من محلاّت بينيتون في العزيزيّة لمثل هذه اللقاءات: بنطلون واسع الساقين وبليزر كلاسيكيّ، وتحته تيشرت أبيض بياقة v. تجمّعت حمامات حول صحن البرغل الذي كان قد وضعه الجيران أمام البيت الذي علي يمين الدرب بعيداً عنّي بقدر خمسة أمتار، وكان صوت إغلاق نافذة في الأعلى قد جرح تناغم أصوات الطبيعة من حولي. رفعت رأسي، وإذ بامرأة شابّة نظرت من وراء الحديد المشغول لنافذتها، وتراجعت. لمحت شعرها الداكن، بدا مثل طلل منهار في جزء منه بعد تسريحة عالية لسهرة الأمس، ربّما كانت في عرس، وتريد النوم فأغلقت الأبجور كي تعتّم الغرفة وتكمل نومتها، تعلّق نظري بالسيباط الحجريّ

الصغير الذي تتكاتف من خلاله الدار مع الأخرى التي تقابلها، وتنشقّ نافذة على ذلك الكتف محميّة بإفريز مطليّ بالأسود، يمنحها ضفّة عليها أصص فخاريّة لنباتات خضراء تتدلّى بضعة سنتميترات نحو الأسفل. كنت غارقة في تأمّل هذه الموتيفات الجماليّة حين فوجئت برجلٍ واقفٍ أمامي، لم أكن قد انتبهت لصوت خطواته، ففزعت، ونبرت في وجهه: *بي.. رعّبتني!* فقال: آسف، آسف.. أنت سارحة يا أستاذة!

ظننته السيّد شفالييه، لكنه حكى بلا لكنة. أردت أن أقف لكنّ جذعي لم يسعفني، فأعطاني يده ليساعدني، فعلقت إسوارتي الذهبيّة الرفيعة بإصبعه وانقطعت، وطارت لتستقرّ بين منعرجات الحجارة على الدرب. انهمك الرجل في تتبّعها، انحنى والتقطها، وضعها في كفّي، تفقّدتها، وقلت: أين القفل! عاد ليبحث عنه وأنا واقفة مثل الصنم أتابعه، وهو محنيّ يبحث عن قفل إسوارتي بجدّيّة. وجد القفل، وكان صغيراً مثل دبّوس، فالتقطه بسبّابته وإبهامه، وقال: افتحي كفّك، ففتحتها، ورماه في بطنها بتؤدة، ثمّ أغلقها...

- *كمان، بماذا تأمرين يا خانم!*

ضحكت وقتها من قلبي، فحاول هو أيضاً مناورة ضحكته، لكنها أفلتت رغماً عنه، وانحلّت تلك اللحظة الدراميّة:

- أنا غسّان قزّاز مهندس ديكور، ومرمّم آثار.
- أهلا وسهلا، كندة... كندة الأشقر، معيدة في الجامعة في كليّة الآداب، وأحضّر الدكتوراه في نظريّة الأدب!
- والله ظننتك إحدى شخصيّات موديلياني!

اعترضت: لا أعرفه، لكن أودّ التعرّف إليه.

- رسّام إيطاليّ من بدايات القرن، اختصّ برسم النساء، وله قدرة على استنباط جمال المرأة الخالد.

نظرت إلى نفسي بإعجاب، واعتبرتها مجاملة لطيفة، وشكرته.

- *ما في حدا؟!*
- *لا، كأنّني وصلت مبكّرة! رنّيت الإنترفون، لم يردّ أحد.*

دفع غسّان الباب، فلم يتحرّك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- هم يداومون في التاسعة عادة.
- موعدي مع مسيو شافالييه في العاشرة.
- أنا أيضاً عندي موعد معه، لكن سأمرّ بقسم الدراسات الفنيّة قبل ذلك!

ضغط بدوره جرس الإنترفون، فلم يرد أحد، وقفنا لبرهة حائرين، بعدها دفع درفة الباب الثانية، فانفتحت بيسر. كيف لم يخطر في بالي أن أجرّب دفع الجانب الآخر من الباب! قال مبتسماً كأنّه قرأ وجهي: الحقيقة دائماً أقرب ممّا نتصوّر!

بعد ثلاثة أيّام وجدته أمامي وأنا خارجة من محاضرة تاريخ الفن، اقترب منّي بابتسامة متشكّكة، أثارت فضول الطلبة من حولي، وقد قطع حضوره عليهم هوايتهم المفضّلة في إيقافي لدقائق بعد المحاضرة للأسئلة والاستفسارات، التي قد تتحوّل لنقاشات نكملها في المكتب، وهكذا راحوا يحدّقون به بوصفه دخيلاً على مجتمعهم الجامعيّ، فنحن نعرف بعضنا البعض مهما كثر عددنا، وتعدّدت تخصّصاتنا، فطلبة كليّة العمارة قلّة، وفي منتهى الأناقة وغالباً من طبقة اجتماعيّة رفيعة، وطلبة الطبّ عددهم أكثر، وهم إمّا أن يكونوا من المتفوّقين من أبناء البسطاء، وإمّا من أبناء أساتذة

الجامعات الذين دخلوا الكليّة بالنسبة المخصّصة لهم من مقاعد آبائهم أو أمّهاتهم، ومنهم من ينحدر من سلالة أطبّاء، وهم يحملون مراييلهم البيضاء أينما حلّوا. أمّا طلبة الحقوق فتبدو سمات الريف عليهم في الغالب، وطلبة كليّة الآداب الأجنبيّة متفرنجون ومتحرّرون، وطلبة الأدب العربيّ تقليديّون وفقراء غالبًا، ويتدرّبون في حواراتهم على لغة المعلّقات، ويتهامسون بخبث وهم يقرأون (الإمتاع والمؤانسة)، غير مصدّقين أنّ الأجداد الفضلاء يمكن أن تسوّل لهم أنفسهم استعمال تلك اللغة البذيئة. أمّا طلبة الاقتصاد فهم الأكثر عدداً، وغالبًا قد بدأ معظمهم بتأسيس البزنس الخاصّ به، مثل بيع الكتب الجامعيّة المستعملة، أو إعداد حلقات بحث لطلبة السنة الأدنى لقاء أجر، أو إقامة كشك متنقّل للقهوة والمشروبات في عربة أمام باب الجامعة، لذا تجدهم خارج المدرّجات أكثر منهم داخلها، أمّا طلبة كليّة العلوم، فهم غائبون في مختبراتهم، وأروقة كليّتهم البعيدة نسبيًّا، ولا يعرف أحد عنهم شيئًا، لكنّ ما يجمع أولئك كافّة هو أنّهم عند الساعة الثانية ظهراً سيجتمعون في بهو كليّة الآداب وحديقتها، إن سمح الجوّ بذلك، وسيكون تجمّعًا بشريًّا مزدحمًا لا تجده في أيّة بقعة في العالم! ازدحام محبّب لا يمكن معه لأيّ فيزيائيّ أو مسّاح أن يدرك الطريقة العجيبة التي يتوزّع فيها كلّ هؤلاء البشر، مرتاحين، وسعداء، في مساحة لا تعدو على أن تكون خمسمئة متر مربّع: عشّاق، وفضوليّون، وحالمون، وتائهون تصدر عنهم ضحكات، ودموع، وآهات، واحتجاجات ستصبح بعد حين ذكريات عزيزة، يروونها لأبنائهم وأحفادهم.

لم أسأل غسّان ما الذي أتى به إليّ، إذ يمكنني أن أخمّن بنفسي. إنّه رجل يريد أن يتزوّج وتلك هي أقصر الطرق، وأكثرها اعتياداً لدى شباب

حلب من الجيل الجديد، بخلاف الطريقة التقليديّة حيث يذهب الأهل ليطرقوا أبواب البيوت. يحاول الشاب اليوم لقاء البنت المرجوّة في فضاء عام، مكان العمل أو الجامعة غالباً، والتقرّب إليها، والتفاهم معها، قبل الخطوة الرسميّة التي تقتضي زيارة الأهل. قابلته بترحاب ولم أكن متحفّظة، إذ كنّا أكثر ثقة بالعالم منّا اليوم، وقد أسعدني أنّه اهتمّ بي وترك عمله وقدم إلى باب محاضرتي. شعرت بأنّني مهمة وأستحقّ تلك الجهود التي بذلها رجل ثلاثينيّ، مهندس ديكور قادم من باريس، لديه مكتب في حيّ الجميليّة، وورشة مرايا وخشبيّات كمستلزمات لعمله في (بوّابة القصب). كان يكبرني بأزيد من عشر سنوات، وهذا جعل المغامرة أكثر حلاوة.

لم يكن شكل غسّان بالنسبة لي جذّاباً، إذ لم أتفهّم بداية هذا النوع من الوسامة، كان قصيراً، ومتوسط البنية، وله كرش خفيف، ليس أكثر من ثنية واحدة. أبيض البشرة بشعر أسود كثيف بشكل مميّز، ومسترسل، مصفّف إلى اليسار، ويمكن ملاحظة شيء من خيوط الشيب فيه. عيناه واسعتان داكنتان، وربّما سوداوان، ريّانتان بالماء وتلمعان طوال الوقت. وجهه حليق وجبهته عريضة، بفم وأنف بارزين، وأسنان بيضاء كبيرة مرتّبة، وفيه شيء جاذب ومنفّر في الوقت ذاته. كان يرتدي قميصاً أبيض من الكتّان، وبنطلوناً كحليًّا بقصّة ضيّقة وبلا (بانسات)، وكان معظم الذين درسوا في فرنسا يعتمدون هذا الأسلوب في لباسهم، إذ يبديهم أنيقين، وأصغر سنّاً، وتحديد الخصر يظهرهم بمسحة أنثويّة. عندنا أستاذان خريجا السوربون يعتمدان المظهر ذاته، مع حذاء الموكاسّان الكحلي الذي لا يحتاج المرء معه إلى جوارب.

قال غسّان إنّه بعد لقائنا في العقبة تذكّر بأنّه لمحني مرّة في مديريّة الثقافة في العزيزيّة، حين حضرنا سلسلة ندوات عن (حلب- طريق الحرير) التي أقيمت بالتعاون مع المركز الثقافيّ الفرنسيّ هناك، وقد أعجبته رؤيتي في الندوة التي شاركت بها حول نسويّة العمارة في حلب في القرن الثامن عشر. كنت قد أعددت حلقة بحث مع أستاذي الدكتور حسين حول هذا الموضوع، وقال إنّه اتصل به، بسبب معرفة قديمة تجمعهما، ولاسيّما أنّهما خريجا جامعتين فرنسيّتين، وسأله عنّي، وعرف أشياء أثارت فضوله!

كنت إلى تلك اللحظة معطّلة عن الرد من المفاجأة، مع أنّ أية بنت في الجامعة تتعرّض لهذا الموقف مرات عدّة خلال سنوات دراستها، فالجامعة تجمع الناس، وتعرّفهم بعضهم ببعضهم الآخر، وهي فضاء آمن للقاءات أمام أعين الجميع، ويمكن لمجتمعها أن يتفهّم ذلك أكثر من المجتمع خارجها. وقفت أستمع إلى غسّان مبتسمة، ومحرجة قليلاً، لكن ما أعرفه أنّني أردت أن أسمع أكثر، وألاّ ينتهي اللقاء بأيّة ردود قطعيّة تمنعه من التكرار. شكرته على اهتمامه، وأبديت سروري للأرضيّة البحثيّة المشتركة التي يعمل عليها كلّ منّا. طلب غسّان أن نذهب لتناول القهوة في مقهى خارج الحرم الجامعي، فاعتذرت، ثمّ بدّل العرض إلى مقصف الجامعة، فاعتذرت، فقلّص طلبه إلى الجلوس على مقعد في حديقة الكليّة، فتذكّرت فرح التي تنتظرني لتناول السجق في مطعم كليّة الزراعة، والتي ستقول لي حينما أخبرها بالتفاصيل: ليس من المرّة الأولى يا كندة، ليس من المرّة الأولى.

سيأتي غسّان بعد هذا اللقاء مراراً، ويقف في انتظاري على مدخل قاعة المحاضرات، ينظر إلى جدولي المعلّق في البهو، ويعرف إذا ما كنت

في مدرّج (ابن خلدون) أو (المعرّي) أو (المتنبّي)، وقد طلبت إليه ألاّ يفعل، فلا أريد أن يُحسب عليّ أبداً، حيث لا شيء يستحقّ ليقترن ذكري بين الناس بذكر شخص ليس بيني وبينه أكثر من محاولات التودّد. فرح بروحها الساخرة ستتناولني، وستقول عنه (عمّو)، ستقول فنّان، ستقول الفرنساوي... ستقول آخرتك (القصيلة)، وهي المنطقة التي تعود إليها جذور عائلة غسّان، منطقة تقليديّة في حلب القديمة، وتنحدر منها عائلات محافظة وأصيلة، وثريّة أيضاً بحكم توارثها العمل في التجارة، ولهجة ناسها ما تزال عتيقة لم يعترها التخفّف أو التحديث، لذا تبدو غريبة ومنفّرة بالنسبة للأجيال الجديدة من المتفرنجين، أو تلك التي تسكن حلب الغربيّة.

هناك أشياء أبعد لا تدركها فرح لأنّها لا تعيشها. تظنّ أنّ مسألة اللقاء والعلاقات تأتي ببساطة، وأنّه يمكنها الزواج بأحسن رجل في حلب، فالمهم (دخلة) البيت، أي مدى ملامح الثراء التي تبدو عليه، والمنطقة العمرانيّة اللائقة التي يقع فيها، والأهل الذين ينفقون بسخاء على ابنتهم ريثما تجد رجلها. وعلى الرغم من أنّ بيتي يقع في منطقة لائقة في حي السبيل، وهو شقّة واسعة في عمارة من أربعة طوابق، مطلّة على الحديقة الشهيرة، حصلنا عليه بمقايضة بيتنا في مشروع جمعيّة إسكان الأساتذة الجامعيين في حيّ الشهباء، فهو بيت بلا والدين.

صرنا فرح وأنا معيدتين في الكليّة التي درسنا فيها. أيّام الليسانس كانت فرح تلتحق بي في مدرّج (المتنبّي)، حيث أجهد للدخول باكراً، لحجز مكاني قبل عشرات الطلبة، أجلس في الصفّ الأوّل في الوسط، وأضع كتبي على المنضدة أمامي، ممّا يعني أنّني حجزت المكان، أوزّعها

على مكانين لي ولفرح، وأحياناً لسلوى، لا أتأخر بعد دخول الدكتور، لم يحصل أن حدث ذلك منذ كنت في السنة الأولى حتّى التخرّج. يدخل أستاذ الأدب العالميّ، هو الآخر خريج فرنسا، وكنّا نحبّ محاضراته لكنّنا حياديّون تجاه شخصه، ولا أعرف إن كان يكفي ذلك لأستاذ جامعيّ، ليس محبوباً، وليس مكروهاً، ولا يتنافس مع أحد، فيه عرج واضح بسبب طلقة تلقّاها في حرب تشرين، نسيناه بحكم العادة بالتأكيد، حتّى إنّنا حين نصفه، لا نتذكّر أبداً أن نشير إلى ذلك العيب في بدنه. يتكلّم عن غارغانتوا وبانتاغروئيل، أو عن بجماليون برنارد شو، يقف وراء المنبر، يستعمل مايكرفون المدرّج الممتلئ، إذ يزداد حضور الطلبة سنة التخرّج، ومعظم الذين يضطرّون للعمل خارج نطاق الدراسة يحاولون الالتزام بمحاضرات التخصّص، ويحاول الطلبة الذين يقيمون في مدن أخرى أو في الأرياف الالتزام بالحضور في هذه الفترة، لاسيّما في الشهر الذي يسبق الامتحان النهائيّ. أفكّر في هذه الطمأنينة والحماس اللذين يبعثهما العلم، وفي تاريخ العالم الذي يتلى على مسامعي حيث صراع البشر مع السلطة وعليها، وتحوّل الأبطال إلى ديكتاتورات، والضحايا إلى جلاّدين. أتخيّل المفكّرين الذين كانوا يجلسون في السكون ليحلّلوا هذه العلاقات الشائكة على ضوء الشموع، وكيف يمكن أن يدخل في هذه اللحظة مجموعة من المسلّحين، ويقلبوا ذلك كلّه، ويهدّدوا الدكتور الذي لن يستطيع الهرب بسبب عرجه، ويوجّهوا أسلحتهم نحونا! سنصرخ جميعاً في المدرّج، سيحاصروننا، سنحاول الهرب فيرتطم بعضنا ببعضنا الآخر في الممرّات بين المقاعد، سيسمع صوت عويلنا إلى ساحة الجامعة، ستحاصر القاعة من قبل الأمن، سيقتحمونها لنجدتنا،

سيطلق الرصاص وسيقتل الدكتور. من الذي قتل الدكتور! برصاص من قتل، برصاص المسلّحين أم برصاص قوّات الأمن، لن يعرف أحد ذلك. سأصاب أنا وفرح وسلوى، لاسيّما أنّنا نجلس في الصفّ الأوّل، سنموت وينتهي كلّ شيء. كنت أفكّر في هذا المشهد طيلة سنوات دراستي، وفي كلّ مرّة تكون فيها محاضرتي في مدرّج (المتنبّي)، حيث كان أبي الدكتور عابد يقف قبل خمسة عشر عامًا هنا على هذا المنبر ذاته. كنت وقتها في المدرسة الابتدائيّة، وكان شابًّا حاصلاً حديثًا على الدكتوراه في علوم اللغة من جامعة موسكو، ولديه الكثير من الطموحات والأحلام، على صعيد البحث، والعائلة بكلّ تأكيد، وقد أنجز كتابين حول مورفولوجيا الحكاية العربيّة، أحدهما في مقامات الهمذاني، والآخر في ألف ليلة وليلة، وأنجبني، وفي محاضرة الساعة العاشرة في أحد صباحات آذار من العام 1980 دخل مسلّحو الطليعة المقاتلة إلى المدرّج، حيث كانت قوّات سرايا الدفاع تلاحقهم، وحصل تبادل إطلاق للنار، فأردوه قتيلاً، وتفرّق دمه بين الإخوان المسلمين والبعثيّين.

حاولت ألاّ أكون ابنة مخلصة لهذه التراجيديا، وأن أجهد لئلّا أستعيدها كلّما دخلت القاعة، وكلّما دخل الأستاذ وأغلق الأبواب، وكلّما انتظم الطلبة في مقاعدهم، وكلّما فتح باب المدرّج في أثناء المحاضرة. كنت أحبّ أن أنسى، فقد دخلت رغمًا عنّي في معركة، وأجبرت على أن أكون طرفًا فيها، وأنا لا أريد معارك مع أحد، ولا أريد أن أثأر من أحد. تقبّلت يتمي وجروحي وانكساري، لكن كلّ شيء يجبرني على أن أصنع أحقاداً أو أوقظها، وأنا أعرف أنّني سأصنع من نفسي نسخة جديدة لضحيّة، وسأخسر في كلّ مرة. يدفعونني إلى ساحة المعركة، وأنا أتوسّل

إليهم ألّا يفعلوا، لا أريد أن أحارب، فأنا متأكّدة من الخسارة، وحين أخسر يعاملونني مثل أسير حرب، مثلّ مسجون فقد حقوقه المدنيّة والإنسانيّة كلّها، مثل معارض سياسيّ مزيّف، اخترعته السلطة، ثمّ عاقبته على تأدية الدور الذي أسندته إليه. أمّي أيضاً حاولت أن تنسى كلّ شيء، إذ يجب أن نعتّم على الموضوع، أبي شهيد فحسب أيّاً كان القتلة، وبقيت ابنة شهيد لم يعترف بشهادته أحد، فهو لم يستشهد على الجبهة ولا في مدرسة عسكرية أو مهمة، وليس ابناً لطائفة مخصوصة أو لسلطة، كان ضحيّة لحادث. لم تصرف لي المعونات، ولم أدخل مدارس أبناء الشهداء رفيعة الشأن، كان عليّ أن أتجاهل استشهاد أبي، وأكتمه عن الناس، حتّى لا أكون مادّة لسين وجيم من أيّ طرف، ولا أكون الشخص الذي يُخشى منه أن يثير حقداً ما، أو أن يوقظ وجوده فتنة ما، أو يثير سؤالاً ما. علينا أن ننسى أبي، وحقوق أبي، ودم أبي.

تريد أمي أن نعيش بهدوء، أي أن تبقى في عملها في البنك المركزي، فرع سينما أوغاريت، وأن تستطيع تنشئتي بهدوء، وأن تنفق عليّ لأكبر بسلام، وأدخل الجامعة، وأن أتزوّج رجلاً صالحاً، مثلي مثل بقيّة خلق الله. لن أكون أبداً مثل بقيّة خلق الله، هذا اليتم المرّ سيمنعني من ذلك. لا يمكن تجاهل اليتم مهما مرّ الوقت، لا شكّ في أنّ الزمن كفيل بشفاء الحرق، لكنّ الندبة المشوّهة، والمتقرّنة لا سبيل إلى إزالتها، ستفصح عن وجهها القبيح في كلّ عيد، وفي كلّ اجتماع لأولياء الأمور، وعند كلّ مشكلة في المدرسة، أو احتفال، وعند كلّ معاملة رسميّة، وعند كلّ حديث صباحي في الإذاعة عن دعم الأب لابنته، ودوره في تنشئة بنت قويّة، لا تحتاج أحداً، ولا يذلّها أحد. لم تفكّر أمّي الصبيّة ذات الخمسة

والعشرين ربيعاً في ذلك الوقت في أنّها هي الأخرى لن تعيش، مع مسؤوليّاتي، مثل بقيّة خلق الله أيضاً، الخوف أنساها أن تفكّر بذاتها كامرأة ستربّي بنتها وحيدة بلا رجل أو سند. كانت الأيّام الأولى مقلقلة جدّاً بالنسبة لها، خافت على نفسها وعليّ، فماذا سيحصل لي لو أنّها غابت في مكاتب التحقيقات وأقبية الحجز، سأبقى بلا أمّ ولا أب. خافت على وظيفتها وراتبها، ماذا لو أنّهم طردوها! كانت تغيب ساعات في التحقيق وتعود ليلاً، وكأنّ لنا ضلعاً في مقتل أبي، أو في دخول المسلّحين إلى محاضرته، وكانت تتركني في بيت خالتي في حيّ المحافظة، أتسلّى مع أبناء خالتي في النهار، وفي الليل أبدأ بالبكاء، أشتاق لأبي، وأخاف أن تذهب أمي كما ذهب هو في لحظة، ما الذي يمنع من غيابها هي الأخرى! أفكّر قبل النوم بذلك، فيهاجمني مغص في معدتي، فأرغب بالدخول إلى الحمّام، أوقظ ابنة خالتي، فتنهرني: أرجوك أشعلي لي ضوء الحمّام، أخاف من العتمة، وكبسة الزر عالية، فتنهرني، وتتابع نومها. خالتي نائمة في غرفتها مع زوجها، ولا أستطيع إيقاظها.

أذهب إلى غرفة ابن خالتي كان في الصفّ التاسع: محمود أرجوك أشعل لي الضوء! يستجيب بلا تذمّر، يقوم من نومه يشعل الضوء، فأشعر بالامتنان. في الصباح أعود إلى البيت، تكون أمّي قد عادت، وهكذا بقينا ما يزيد على شهرين بين قلق وتهديد، لاسيّما أنّ شابين من أولاد خال أمي اعتقلا على خلفيّة اشتباه انضمامهما إلى التنظيم المحظور. بعد ذلك نسونا ونسيناهم، ووطّنّا أنفسنا على أن نبدأ وحدنا من جديد.

***

عرض غسّان عليّ أن أساعده في الأبحاث التاريخيّة لمشاريعه. كان يعمل على تفاصيل العمارة الإسلاميّة، ويزوّد البيوت التي يصمّم ديكورها بالمشربيّات، والباثيو، ويبني الاستراحات في مزارع الأثرياء على أنظمة الملاقف، فضلاً عن عمله في ترميم المدينة القديمة والمموّل من جهات دوليّة عدّة، بما فيها مؤسّسة الآغاخان، والسفارة الفرنسيّة. أخبرته بأنّني لن أبخل عليه بأيّة معلومات تاريخيّة يحتاجها، من غير عمل مأجور لا يتّسع له وقتي، ويمكننا تبادل الخبرات، ولاسيّما أنّنا نعمل مع الجهة ذاتها تقريبًا، وأنا أعرف أنّ غسّان عزم على أن يكون لي شريكًا في أكثر من ذلك.

صارت تجمعنا المراجع والمخطّطات في مكتب العقبة، وحين أكون مستغرقة في الحديث معه عن تفاصيل معيّنة، أو عن الكتب، أو عمّا تعلّمه من معارف وفنون، يقفز إلى ذهني سؤال: لو كان أبي هنا، لو أنّه ربّاني ووصل بي إلى هذه اللحظة، فماذا سيكون رأيه بغسّان؟ يباغتني هذا السؤال مثلما يباغتني السؤال الآخر في قاعة المحاضرة: هل ابن قاتل أبي يدرس معي في القسم ذاته، ويجلس في المدرّج ذاته؟ أو لعلّها إحدى زميلاتي هي ابنة قاتل أبي، أو لعلّه البائع الذي أشتري منه ملابسي، أو موظّف البريد، أو صاحب المكتبة، أو إمام المسجد، أو... أسئلة لا تفضي سوى إلى الدوار.

اقترح غسّان أن يأخذني بسيّارته من أمام البيت، لكنّني فضّلت أن نلتقي عند أحد المقاهي جوار "حمّام يلبغا الناصريّ" نشرب قهوتنا معًا، ثمّ نمشي إلى مكتبه. التقينا فعلاً في ذلك الصباح، وكان الصيف قد دخل بحماس، منذ بداية أيّار، والسماء فوق القلعة تكشف عن زرقة لا تعيقها

أيّة غيمة. كنت أرتدي بنطلونًا من الكتّان بلون البيج وقميصًا قطنيًّا أبيض بكمين قصيرين نوعًا ما. غسّان أيضًا ارتدى قميصًا أزرق من الكتّان بكمين قصيرين، أمسك بيدي لنقطع الشارع باتّجاه سوق الزرب، شبك أصابعها بقوّة، فتلامس ذراعانا العاريان، شعر يده أسرى في بدني قشعريرة، وصلت حلاوتها إلى قلبي، فخفق، أخذت نفسًا عميقًا، وأبقيت كفي مرتاحة في كفّه، وكلّما سرى الدبق في جلدينا، كنت أفلت كفّي أمسحها ببنطالي، وأناوله إيّاها من جديد، وهو كان يقودني بعفويّة، كأنّه أبي أو أخي أو صديقي القديم. تجاوزنا البوّابة، ودخلنا في الأسواق المغطّاة، إلى أن عدنا إلى محلّة العقبة. قطعنا الأزقّة الحجريّة المتداخلة يساراً، فيميناً، حرّرت يدي من يده، فارتاح لذلك أيضًا، تجنّبًا لأيّ انتقاد يبديه الأهالي، رغم معرفتي أنّهم معتادون على السيّاح، لكن قد يصادفنا أحد المعارف. دخلنا في ممرّات مسقوفة بعقود، وأخرى مفتوحة على السماء، ومشينا في الشوارع المتوالدة، التي تضيق مع الالتفاف حتى تكاد الجدران يلتصق بعضهما ببعضها الآخر، وتتدلّى فوق حجارتها عرائش الياسمين وقد انسكبت من داخل البيوت، وزهور المرجانة التي تشبه أجراسًا حمراء، وورد المجنونة بلونيها العنّابيّ والبرتقاليّ، تلك الزهرة التي ما أن تتفتّح حتى تجزل في عطائها، وتندفع بسرعة وتملأ الجدران، فيسمّونها بالمجنونة، وكأنّ العطاء الجزيل شكل من أشكال الجنون. توقّفنا أمام بيت من البيوت العتيقة يشبة البيوت التي حوله، باب واطئ من درفتين، بصفائح من الحديد ومدقوق بمسامير نحاسيّة، وله طاقة صغيرة في كلّ درفة، رنّ غسّان الجرس، في حين أمسكت دقّاقة الباب القديمة، وصرت أطرق، كانت واحدة من رغباتي أن أمسك سقّاطة باب من تلك

التي نراها في المسلسلات، كانت ثقيلة تحتاج إلى جهد في حال تكرار الطرق، حينها اندفع الباب وحده بعزم طرقتي، وصاح رجل من الداخل: تفضّل!

قال غسّان ستتعرّفين الآن بجيراني، مكتبي يشكّل جزءاً من هذه الدار، قلت له إنّها قريبة من المعهد الفرنسيّ، قال طبعاً، نحن في الأعلى وإذا دخلنا ذلك الزقاق، وأشار بيده، ثمّ نزلنا الدرجات نحو المستقرّ سنكون عند المعهد. كان هناك ورشة عمل، فنبّهني غسّان إلى أنّه يفتح باباً لمكتبه على الزقاق الشماليّ، وما تزال أعمال الديكور والطلاء قائمة، وإنّنا سنطلّ على العمّال بعد قليل. قال إنّ الجزء الثاني من الدار هو جاليري للفنون يمتلكها صديقه المهندس نهاد. دفعني أمامه، وتجاوزنا الدهليز نحو الحوش الذي يشرح القلب حقّاً. الفرق ما بين الداخل والخارج خمس درجات مئويّة على الأقل، سلّمنا، وصاح غسّان:

- مرحبا أبو محمّد...
- أهلين بالأساتذة...

واقترب منّا رجل رَبْعة ممتلئ، نصف أصلع بشعر أشقر، وعينين زرقاوين، ولحية تنزل قليلاً عن ذقنه، وهو يغضّ البصر، ويدعونا للجلوس في صدر الحوش، الذي لم يكن واسعاً كما كنت أتوّقع: باحة مربعة حيث نصعد ثلاث درجات عريضة من الحجر الأبيض نحو الليوان المفروش بديوانات من الخشب، تعلوها فرش منجدة بقماش من المخمل الأحمر، ومساند كبيرة مقلمة بالأحمر والبيج. يوحي البيت بفخامة الطراز العمرانيّ، الأبواب والنوافذ العلويّة والسفلية مزنّرة بالحجر الأبلق الثمين، وفي المنتصف بحرة، وفي قلبها نافورة لها ضجيج مؤنس،

وحول البركة، زُرعت في أحواض حجريّة شجيراتٌ الليمون والكَبّاد، وإلى جانبها دالية كرمة، تتسلّق عوارض من الخشب المطليّ بالبنيّ، وقد انعقدت عناقيدها مؤخّراً كما يبدو. كان رجلان يجلسان على طرف البحرة على مصطبة حجريّة تبدو مثل المسرح، فوق كرسيّين من الخيزران، أحدهما يرتديّ بدلة من الكتّان البيج، تبدو مرهفة وثمينة، وتنمّ على ذوق رفيع، أحبّ هذا النوع من البدلات الرجاليّة، يبقى مجعلكاً مهما كويته! وقميص سماوي وفي جيب الجاكيت وضع بوشيت أسود منقّطاً بالأبيض. يرتدي نظّارة طبيّة، وملامحه حادّة ووسامته من النوع المرهب الذي يجعل حاجزاً بينك وبينه، تجاهلته بعد السلام، وكان الآخر الذي يجلس خلف طاولة عليها آلة قانون، مشغولاً بشأن موسيقيّ، وكان يرتدي جلاّبيّة حلبيّة بيضاء من القطن، لكنّها قصيرة تعلو كعبيه، وخفّاً منزليّاً من قماش الصاية المقصّب المعروف في الأسواق الشعبيّة في حلب، وشكله أجنبيّ تماماً. رحّبا بنا، وقد حيّا غسّان الرجل الوسيم معرّفاً به بقوله: نهاد بك الأميري، مهندس واسع الشهرة في حلب، ومتعهّد لتجديد بيوت قديمة، أمّا الآخر فهو موسيقيّ فرنسيّ اسمه جوليان، درس الموسيقى الشرقيّة في باريس، واختصّ بآلة القانون، وأحبّ حلب أكثر من أيّ شيء في العالم، فهاجر إليها. انضمّ إلينا الرجلان في الإيوان، وعرّفهما غسّان إليّ على نحو مقتضب، وحدّثتهما عن مشروعي، وكان الرجل (أبو محمّد) قد طلب لنا القهوة، وبعد دقائق دخلت امرأة في العشرينيّات، طويلة وسمراء، على رأسها حجاب أبيض معقود تحت ذقنها، وترتدي تنورة سوداء كريب طويلة، وقميص ساتان أبيضَ بعروق سوداء، تحمل صينيّة القهوة، التي سبقتها رائحتها الغنيّة،

بدأت بي، وأخذت الفنجان الذي رغوته كثيفة، وبعد أن أكملت دورتها جاءت إليّ بطربيزة، وعلى وجهها شبة ابتسامة، نبّهتني إلى شامة صغيرة بارزة فوق شفتها إلى اليسار، حدّقت في عينيّ فابتسمت لها، ولم تبتسم، بدأت ملامحها تتغيّر وبدأت أتوجّس منها، شّدت فمها إلى اليمين، وجحظت عيناها، وصوتها تهدّج وبدا خشنًا، وهي تقول لي: ضعي الفنجان هنا! نظرت إلى أصابعها الممسكة بحافتي الطاولة، كانت متشنّجة ومثنيّة نحو داخل الكفّ، قالت لي بصوت ذكوريّ: أنت ابنة المقتول.

لم أفهم كلماتها للوهلة الأولى، تنكّرت لها، فقد كنت مشتّتة بين الخوف من تغيّر ملامحها، ونطقها الملتبس، هل قالت: أنت ابنة المقتول! بعد أن مضت، قمت باتجاه غسّان الذي كان يتحدّث مع شريكه جانب البحرة، واقتربت منه حتّى كدت ألتصق به، ولعلّه استغرب ذلك، فأحاط كتفي بذراعه، وطلبت إليه أن نمضي، فصعد بي إلى مكتبه عبر درج تحت الصيانة على ما يبدو، ما يزال بلا إكساء، والرخام المصفرّ مصفوف على الأرض بعضه فوق بعض، لم أرغب في الصعود أو الفرجة، وطلبت أن نغادر، فقد ظلّت صورة المرأة التي عرفت أنّ اسمها فاطمة في بالي، أطردها من الفزع كلّ حين، وقد سألت غسّان عنها، فقال هي قريبة له، ويتيمة، وأتى بها لتعمل عنده، وتسكن في بيت أهلها في محلّة العقبة، وهو منزل متوارث لعائلتها منذ حوالي ثلاثمئة سنة، ولهذه العائلة تاريخ في الخوارق. لم أستوعب فكرة الخوارق هذه، لكنّه كان يحكي عنها ببساطة واقتناع، وأنا استهجنت تلك البساطة، وسألته عمّا يعنيه، فقال إنّها تكشف الأشياء الغائبة، التي يمليها عليها قرينها من الجنّ!

- قرين من الجنّ؟ أنت تصدّق ذلك!

قلب شفتيه بلا مبالاة، وقال: هذا شيء شائع، أصدّقه أحياناً، وأعرف منذ طفولتي أكثر من شخص، رجلاً أو امرأة كانوا يقولون عنه إنّه (مخاوي)، ولم أترك للأمر أن يأخذ حيّزاً من تفكيري، فهو يتقاطع مع المعتقد الدينيّ، لكن أحبّ الجانب الفانتازيّ منه، ألهمني رسومات كثيرة، واسكتشات لأماكن قديمة مهجورة، وعلى فكرة حتّى في باريس هناك عرّافون وعرّافات، وأعرف أحدهم بشكل جيّد وأتعامل معه باحترام شديد.

أدهشتني حياديّة غسّان تجاه هذه الموضوعات وأخافتني أيضاً، فهل يمكن أن يكون من أولئك الذين يتعاطون السحر والأحجبة والرجم بالغيب، أو أنّ أحداً من أفراد عائلته يفعل ذلك، ويمكن أن يتلاعب بعقول الآخرين ومصائرهم، ستكون مصيبة حقّاً! شرعت أحدّثه عن خبرتي هنا، وعن جلسات تحضير الأرواح التي شهدتها في غرفة إحدى زميلاتي في المدينة الجامعيّة، لكن لم أذكر له التفاصيل عن تلك الشلّة من البنات اللواتي كنّ يدرسن في كليّة العلوم، وذهبت أنا وفرح مرّات عدّة لزيارتهنّ، وقد سألت تلك الصبيّة الخطيرة واسمها مها، أن تستحضر روح أبي لأكلّمها، كانت لطيفة وعبقريّة في تخصّصها، ولا يبدو عليها أيّ ملمح من ملامح الشعوذة، ولا تستخدم لا كرة بلّوريّة، ولا لوح أرقام.

حين ضاقت ذرعاً بتوسّلاتي طلبت إليّ أن أجلس وحدي في غرفتها الضيّقة، فخرجت فرح مع زميلتَي مها اللواتي تشاطرانها الغرفة، وفتحت مها النافذة الصغيرة لتدخل رياح الشتاء مع أصوات حركة أشجار الصفصاف العتيقة المزروعة في حرم جامعة حلب منذ خمسينيّات القرن

العشرين. ارتعدت أطرافي وأنا أشعر أنّ لقائي بأبي وشيك، لن أراه كما ظهر لي في مناماتي القليلة، وادعاً على كرسيّ وراء المكتب، أو مستلقياً على الأريكة في غرفة الجلوس، بل سأسمع صوته يتكلّم معي غالباً كما قالت لي مها، وسأسأله بثبات ومن غير جزع عن أحواله في الجنّة، وعن هويّة قاتله.

أطفأت مها النور، فخفت أكثر، وتوقّعت أنّها ستشعل شموعاً وبخوراً لكنّها لم تفعل. بقينا صامتتين عشر دقائق تقريباً، وشعرت أنّه وقت طويل، طلبت إليّ خلاله أن أغمض عينيّ وأفرغ ذهني من أيّة فكرة، وأن أفكّر بأبي فحسب، وأطلب إليه في سرّي المجيء، وفعلت ذلك، لكنّ الذكريات القليلة والبعيدة انسربت إلى عقلي، وأنا أدعوه للاقتراب بإخلاص، رأيت أمام عينيّ أشياء تذكّرتها للمرّة الأولى عن أبي، وكان وجهه كأوضح مرّة أراه فيها في حياتي، وكان قد اقترب منّي وسلّمت عليه وسألته عن حاله، وسمعت صوته، وأجابني بأنه مشتاق إليّ، وأنّه يحبّني كثيراً، ومددت يدي لأمسك بيده، لكنّه لم يمدّ يده، بل اختفى. فصرخت: بابا، بابا... وفتحت عينيّ فوجدت مها تجلس أمامي مثل كاهنة متحكّمة، وتطلب إليّ أن أهدأ لكنّ صراخي ارتفع أكثر وكأنّني فقدت السيطرة على حلقي، ودخلت فرح والبنتان، وصرخت بي مها لأتوقّف، ثمّ أشعلت النور، ودخلتُ في نوبة بكاء. نهرتني غاضبة، وقالت لي: قلت لك لا أريد مشاكل يا كندة، يكفي، لكنني رحت أتوسّل إليها كما لم أتوسّل لأيّ إنسان من قبل: أرجوك يا مها، أنا آسفة، والله لقد رأيته، لقد حضر، وسمعت صوته، لكنّه اختفى، دعينا نستعِدْه، دعينا نُعِد الكرّة، سأتصرّف بشكل أحسن، ولن أسبّب لك المشاكل، واستمررتُ في البكاء والرجاء،

وحين انتهيت من توسّلاتي وهدأت، قالت لي إنّ الروح تمتنع عن التجلّي، ولا تريد أن تظهر في ذلك المكان، وفكّرت ربّما لأنّنا في المدينة الجامعيّة أي في الحرم الذي قتل فيه أبي، وقد رفضت مها أن تذهب إلى مكان آخر، عرضت عليها أن تأتي إلى البيت، لكنّها رجتني موضّحة أنّ هذا الأمر تقوم به بخصوصيّة لبحث ما يتعلّق بالانفعالات البشريّة للأشخاص الخاضعين للتجربة، وهي ليست محضّرة أرواح. أسقط في يدي، وظلّت روح أبي، مع وجود إمكانيّة لحلّ لغز مقتله، سرّاً موجعاً يجعلني عالقة في عذاب أبديّ.

في المرّة التالية التي زرت فيها المكتب مع غسّان كان الدرج قد اكتمل، وقد دبّت الحياة في المكتب نفسه، كان بديعاً حقّاً، يفضي الدرج إلى ليوان علويّ، ذي قوس فارسيّ، جدرانه مطليّة بالجبس الأبيض وسقفه معقود وملبّس بالخشب البنيّ المحروق، وقد أغلقت جوانبه بزجاج، وفيها نوافذ مفتوحة على أرض الحوش، ذات حدود من المعدن الأسود، وقد وُزّعتْ فيها أصص نحاسيّة للزرع الأخضر: السجادة، وقلب عبد الوهاب، والجاردينيا. يفضي الليوان إلى غرفتين داخليّتين، في إحداهما مكتبة تضمّ مراجع غسّان وغالبيّتها بالفرنسيّة، أرضها مكسوّة بالباركيه بلون الخشب الفاتح، وعليها سجّادة صغيرة عجميّة بنقشات باللونين الأحمر والأسود، وطاولة رسم هندسيّ مازال مطويّاً، وفي الغرفة الأخرى الواسعة مكتب صغير مستطيل من الخشب البنيّ الغامق، وخلفه كرسيّ لونه بيج جلدي دوّار، وطاولة رسم كبيرة مائلة، ومغطّاة بالأوراق والرسومات والسكيتشات الملوّنة، إلى جانبها طاولة ملحقة بها عليها علب من ألوان الزيت والماء والباستيل، وأدوات هندسيّة، ومسطرة الـ T،

وعلى الأرض سلال من القش فيها مخطّطات ملفوفة، وكرسي ال Stole بلون الخشب، وكانت لوحات غير معلّقة ما تزال مقلوبة على وجهها وموضوعة على الأرض، أردت أن أراها لأحدّد قوّة الحاسّة الجماليّة التي يمتلكها غسّان، فوجدتها تضمّ وجوه نساء ثلاث بالشعر الأسود، والعيون الداكنة، والملامح الحادة، وقال لي: إنهنّ نساء موديلياني اللواتي جئت من سلالتهنّ. بدا لي ذوقه رفيعاً، ولا أدري لم اطمأننت إليه أكثر بعدما تعرّفت نوعاً ما إلى عمله كمهندس ديكور، وكأنّ تحقّق الشرط الأخلاقيّ يرتبط عندي بالشرط الجماليّ!

أصعدني غسّان عبر بضع درجات تحت قوس معقود آخر، نحو حجرة ملحقة بالسطح، كان الفضاء أمامها ممتدّاً، بحيث لا شيء يعوق العين عن رؤية السماء مكشوفة من نوافذها الزجاجيّة الواسعة، وتبيّن لي علوّ المكان بالنسبة للدُّور من حوله. كانت الغرفة مرتّبة جدّاً، يلفّها الهدوء، فيها دكك خشبيّة ملتصقة بالجدار، وعليها (دواشك) من الكتّان الملوّن بالأحمر والأسود بنقشات عربيّة تقليديّة، وثمّة كرسي (ريكلاينر) من الجلد الأسود، مستقرّ أمام الواجهة الزجاجيّة العريضة، وأصص نباتات الصالون الخضراء تتوزّع في الزوايا، وقفت أمام الواجهة، فسحب غسّان الزجاج نحو اليمين، وهبّت نسائم تحرّكت لها غرّة شعري فدغدغت جبهتي، وقفنا لبرهة متباعدين نتأمّل المشهد: كانت حلب تنبسط أمامنا مثل لوحة من زمن الاستشراق، بأبنيتها البيضاء التي تبدو لا نهاية لها، وقد بدأت تنتشر على أسطح بعض بيوتها الصحون الفضائيّة، وتلمع في اتجاه الغرب قباب ذهبيّة لكنائس بعيدة، وفي المحيط الأقرب تبدو القباب الرماديّة للحمّامات والخانات العتيقة، وترتفع مآذن مضلّعة

ومستديرة لا حصر لها بعلوّ شاهق يحيل إلى عالم الملوك والسلاطين الذي تحكّمت به رغبات التنافس والسيطرة على الدين والدنيا. حين نظرت نحو الجنوب لاحت لي من بعيد مقبرة الصالحين، حيث يرقد أبي، عادت إليّ صورة قديمة له، هي الصورة التي تفرض نفسها على ذاكرتي كلّما فكّرت فيه، يجرّني بعربة أطفال في أحد مسارات الحديقة العامّة، خلفنا البركة الرخاميّة تصطفّ على درجاتها منحوتات الأجساد البديعة، وإلى يسارنا نوافير تحلّق المياه فيها نحو الأعلى، ثمّ تنزل، ومن حولنا أشجار السرو مشذّبة بطريقة هندسيّة، وأمامها تمثال من الرخام الأبيض لشاعر حلب أبي فراس الحمدانيّ. كان أبي في الصورة كامل الشباب والقوّة، شعره الخرنوبيّ كثيف وقصير وممشّط نحو الخلف، حليق الوجه، يرتدي قميصاً أبيض أو رماديّاً، وبنطلوناً قاتماً، ويربط حول رقبته بلوزة صوفية زرقاء خفيفة. أمّا أنا فكنت في عامي الأوّل ربّما، أرتدي *أفرهولاً* ربيعيّاً وأحاول أن أضع قدمي في فمي بحركة بهلوانيّة. أردت أن أقول لغسّان إنّ أبي هناك، ثمّ سكتُّ، ورجعت خطوة ليلامس ظهري صدره، فالتقطني، وضمّني إليه بمنتهى الهدوء، وأخفى وجهه في بين كتفي الأيمن وترقوتي، وأخذ نفساً عميقاً ثمّ أخرجه ليلفح جلد رقبتي بحرارة، كانت رائحة الصنوبر المنبعثة من مسامه رجوليّة ورزينة، وراح يطبع قبلاً صغيرة وسريعة على جلدي نزولاً نحو كتفي الأيسر، ويحشر وجهه في قبّة بلوزتي القطنيّة حتّى يصل بشفاهه نحو أبعد مدى من ظهري، فأخذتني هزّات لذيذة متوالية، وأرخيت جسدي بين يديه باطمئنان، كأنّني أستشفي من علل اليتم والهجر كلّها التي أصابت حياتي. رفرف سرب من الحمام وسمعت صوت خفقان أجنحته بوضوح، وكان

شاب يلوّح له بخرقة بيضاء على أحد الأسطح القريبة، يطيّره، ويستعيده، ويدور بحركة منتظمة، ويمكن سماع صفيره يقطع السكون، وكان الحمام يأتمر بأمره، يحلّق نحو القلعة، ثمّ يعود. كان غسّان قد شغّل سي دي فرنسيّاً وضعه في جهاز الكومبيوتر أمامه، وفي تلك اللحظة دارت أغنية جو داسان: (Et sit u n'existais pas/ لو لم تكوني موجودة)، الأغنية التي كانت دارجة في طفولتي. كنت ألتفّ بحضن أمّي مساء الأحد، ونتابع البرنامج التلفزيونيّ الموسيقيّ المختصّ بالأغاني الأجنبيّة (نجوم وأضواء) الذي تقدّمه المذيعة منى كردي، ثمّ سنسمع هذه الأغنية في كلّ نوادي المدينة ومقاهيها:

لو لم تكوني موجودة،
قولي لي: لمَ يكون وجودي!
كنت سأحاول اختلاق الحبّ،
مثلما يرى الرسّام ولادة ألوان النهار من تحت أصابعه،
لكن من غير أن يعود ثانية.
لو لم تكوني موجودة، قولي لمَ وجودي!
مع عابرات بين ذراعيّ، يستحيل أن أحبّهنّ.
لو لم تكوني موجودة،
ربّما كنت سأحاول أن أكون أنا،
ولكن لن أكون حقيقيّاً!

أدارني غسّان، فقابل وجهي وجهه الذي كان متورّداً، وعيناه السوداوان ذابلتان تماماً، وقد عرفت فيهما لأوّل مرّة شكل الشغف. شدّني إلى صدره، وصار يترنّح بي مع إيقاع الموسيقى نحو اليمين

واليسار، وهو ينثر قبلات سريعة على شعري وجبيني ووجنتيّ، ثمّ أخذ كلانا نفساً عميقاً، وتراخى التحامنا وسكنّا:

- هل عرفت هذه الأغنية في باريس؟

قال هامساً وبصوت أبحّ، وهو يمسّد شعري ليخلّصه من بعثرته:

- لاء، في حلب.

حين نطق (حلب)، سمعتها مفردة جديدة عليّ، لقد غيّر شكل المدينة في تصوّري، رأيتها حقّاً مدينة أخرى غير التي عرفتها، أوسع، وأعمق، وأبعد، مدينة من تلك المدن التي يتمنّى المرء لو سكنها يوماً!

* * *

ظهرت فاطمة، وطلب إليها أن تفتح الصناديق المغلقة، وتستخرج ما فيها، وحين دخل المهندس نهاد وطلب الاجتماع معه، سألني غسّان أن أذهب مع فاطمة في جولة، لتعرّفني إلى منطقة خان العلبيّة، حيث قد أجد ما يساعدني في بحثي، وكنت أعرف من بعض القصاصات التي تركها أبي أنّ حنّا دياب سكن هناك في بيت عائلته. تردّدت وكانت إجابتي أقرب إلى الرفض، إذ خفت من فاطمة، من مظهرها الذي تجلّى لي، ومن علاقتها بالجنّ، حسب رواية غسّان، وحين نظرت إليها وجدت كلّ شيء فيها طبيعيّاً، بل جاذباً. شجعني غسّان، قال لي قد تجدين إجابات لكل أسئلتك، واستحثّت كلماته فيّ روح الباحثة، وقلت في نفسي: نعم فالناس يذهبون من أجل أبحاثهم إلى أقاصي الأرض، ويعرّضون أنفسهم للخطر إرضاء لشغف نبيل، وأنا أتردّد في السير مع فاطمة خطوتين، ولمت نفسي على جبني وتخاذلي. حين مشيت معها وجدت أنّها تعرف الكثير حقّاً،

حكايات لا يعرفها أيّ باحث مهما درس في المراجع والكتب، أو قرأ ألف ليلة ألف مرّة، أو اطّلع على مذكرات غالان وبول لوكاس، بل هي لا تعرفهم أصلاً، ولكن تعرف حكايات دارجة في محيطها عن (الأميرة التركيّة، والغريبة، وبنت القنصل)، وعن حنّا الحكواتي وحكاياته عن علاء الدين. سألتها خلال مشوارنا: هل ترين هذه الأشياء، هل يخبرك بها القرين، أم أنّك سمعت بها حقـًا، أم أنّك تخترعينها؟ ضحكت ببراءة: لماذا تسألين، المهم أن تحصلي على المعلومات! لمّا شعرت بامتعاضي قالت: الشيخ يدلّني على أشياء أهمّ، أقولها للذين هم بحاجة للمساعدة من غير أجر، أشياء أهم تتعلّق بولد ضائع أو مال.

- يعني تكشفين السرقات؟
- لا، أحيانـًا لا وأحيانـًا نعم، أشياء تتعلّق بالشرطة لا أقولها.
- والقتل إذن، من قتل والدي؟
- لا أعرف، لكن عندما رأيتك رأيت معك هوجة كبيرة وأناس تتعارك ودماء! اسألي الشيخ. أنا لا أعرف، أيّ شيء يخصّ الدولة لا علاقة لي به.
- يعني تخافين؟ الشيخ يخاف من الدولة؟

أوقفتني ونظرت بغضب: لا تتكلّمي عليهم فقد يؤذونك. امتثلت لأوامرها بلا نقاش، وتابعت: الشيخ لا يخاف من أحد، والدولة تأتي إليه، كلهم يأتون إليه رجالاً ونساء ليسألوا عن أشياء ضائعة، عن نقود ومجوهرات وأشخاص اختفوا، ونساء هاربات. فاجأتني صراحتها، وصرت أشكّ بين أن تكون شيطانة أو درويشة. سألتها كيف تحكين ذلك ببساطة لشخص لا تعرفينه؟ أجابت إنّها تعرفني، وإنّ غسّان قال إنّني بنت

طيّبة، وهو لا يقول إلاّ الحقيقة. حين انعطفنا من خان الوزير واتجهنا إلى (السويقة) ندفع الازدحام الكثيف الذي واجهناه كونه يوم الخميس، أوقفتنا في زقاق صغير إلى اليسار واجهة عظيمة لواحد من أجمل الخانات التي رأيتها في حلب، والذي سيكون المكان الذي سيسكنني لسنوات، وقالت فاطمة: هنا خان العلبيّة.

جاءني شعور أنّ مغاليق الأمور قد تتفتّح على يد فاطمة أمام بصيرتي، كما أنّ غسّان ساعدني كثيراً، حيث كان لديه معارف كثر، وعلاقات طيّبة حسب ملاحظتي، مع الناس، فهو ابن حلب القديمة، يمشي في الأحياء ويتنقّل بين الأزقّة بثقة، ولديه حلّ لكلّ معضلة. كنت أتكتّم على تفاصيل مشروعي، إنّه تتمّة لمشروع أبي، به أتواصل معه، وأشعر بذاتي، وبامتدادي المبتور من غيره، وأجعل لي قضيّة مستحقّة وآمنة، فقد هربت من القضايا الشائكة طوال حياتي، القضايا التي تهدّد الوجود أو تفرّغه من معناه، الصراعات السياسيّة، والانتماءات الحزبيّة التي كانت محور منافع المجتمع من حولي في الثمانينيّات والتسعينيّات، في المدرسة، وفي الجامعة، وفي دوائر الدولة، وفي البنك، والمحكمة، والبريد، وشركة الكهرباء، وشركة المياه... ممّا سيجعلني أحمل رهاب دوائر الدولة معي أنّى حللت.

كنت مغتبطة بأنّ لديّ مشروعي الذي لن يعرف أحد إدارته أفضل منّي، مشروع جذوري ومستقبلي في آن معاً. أبحث في تفصيل صغير ذكره أبي في أحد كتبه، وأتوسّع فيه، وهذا أساس البحث العلميّ في الدراسات العليا: أن تضيّق دائرة البحث قدر الإمكان، وتبئّر نقطة واحدة، وتعمل عليها بكلّك إلى أن تصدر عن بحثك إضافة جديدة. ذكر أبي، في كتابه

حول مورفولوجيا الحكاية في ألف ليلة وليلة، أنّ معظم الحكايات كانت مجمّعة من الثقافات الأخرى، التي سمّاها حضارات: الهنديّة، والفارسيّة، والعربيّة، وهي مؤسلبة لتبدو صادرة عن راوٍ واحد، لكن هناك حكايات مبتكرة، وأصيلة، ولها مؤلّف واحد، وهي الحكايات التي حكاها رجل سوريّ من حلب، استمدّها من تجربته الشخصيّة في رحلاته ومغامراته، ومن الأهوال التي تعرّض لها، وقد أعطاها الشكل الفانتازيّ والبنية المحاكية لبقيّة حكايات ألف ليلة وليلة من جهة، ولحكايات الرحّالة والتجّار العرب كالغرناطيّ أو المسعوديّ، أو وغيرهم من رحالة الشعوب الأخرى من جهة ثانية. وقد تقصّى أبي هذه الحكايات، فوجد أنّ بعض الأهالي كانوا يعرفونها منذ مئات السنين، ويعرفون حكايات أخرى استطاع جمعها وهو يشكّ في أنّها موجودة في إحدى نسخ ألف ليلة التي ضاعت بسبب واحد من زلازل حلب، وتحديدًا في 1822م، وقد حملها أحد الحجّاج الروس العائدين من الشرق، وفيها حكايات عن ثلاث نساء من حلب، ويشير إلى كونها تعكس خصوصيّة المكان والعلاقات فيه، وعلى الرغم من أنّ الحكايات الأخرى هي لمغامرات في البرّ والبحر، ولم يرد فيها اسم حلب إلاّ أنّها تنتمي إلى الشكل الحكائيّ ذاته، ويمكن تصنيفها ضمن حقول (فلاديمير بروب) المورفولوجيّة.

لقد كان الإمبراطور قبلاي خان أفضل مستمع للحكايات، وحين مثل أمامه ماركو بولو وحكى له عن رحلاته إلى شرق آسيا وعمقها، سأله الخان: "إنّك حكيت لي عن البلاد كلّها، ولم تحدّثني عن موطنك، البندقيّة! فأجابه ماركو بولو: يا مولاي، أنا في كلّ ما حدّثتك به لم أتكلّم سوى عن وطني البندقيّة". منذ قرأت هذه الحادثة، قرّرت أن تكون هذه

الرؤيـة لفكـرة الخصوصـيّة مقدّمـة لرسـالتي، إذ سـأكتب عـن الوقـائعيّ والخيـاليّ في هـذه الـرحلات، وعـن استحضـار حنّـا ديـاب حلـبَ حينمـا يتحـدّث عـن البصـرة، وبغـداد، وبـلاد واق الـواق، وسـيكون الفـتح الـذي سـأقوم بـه هـو تحديـد الفضـاء الثقـافيّ الجغـرافيّ الـذي عـاش فيـه الكاتـب الوحيد المعروف من كتّاب الليالي العربيّة، الـذي وضـع سبع حكايـات كاملة في هذا السِفر الذي فتن العالم، وهكـذا عزمـت علـى مراجعـة بعـض الحكايات التي حكاها حنا دياب لأنطوان غالان، وبدأت بحكاية (لطائف مرجانة)، والمعروفة بـ (علي بابا والأربعون حرامي): "ذات يوم كان علي خوجا على جري عادته في الغابة يسوق ثلاثة حمير، فإذا بـه يـرى جماعـة من الفرسان تثير النقع من خلفها، مقبلة نحـوه. تسلّق شـجرة كثيفـة. حـين اقتربوا من مكانه انجلى الغبار، فرأى أربعين فارسـًا ذوي بـأس، يحملـون سـيوفـًا ورماحـًا. ترجّلـوا تـاركين خيـولهم في المرعـى المجـاور، ذي الأشـجار الكثيفـة. كـان ثمّـة صـخرة عظيمـة، سـار اللصـوص نحـو بـاب مستتر، على مقربة من الشجرة، إذ سمع خوجـا بابـا قائـدهم يصـيح قـائلاً: افتح يا سمسم، وفي الحين فُتح الباب...".

بعـد الشـعور بهـذا الامـتلاء كلّـه سأصـطدم بالوقـائع، إذ لـيس لـديّ وثائق كافية تدلّني على هـذه الحكايـات، فالشـذرات التي أشـار إليهـا أبـي في أوراقه لا تكفي، إنّه يقول إنّـه سيدوّن الحكايـات الكاملـة التي اسـتطاع الوصـول إليهـا مـع أسـتاذته آنـا بافلوفـا... التـي قضـت قبـل عودتـه مـن موسكو إلـى حلـب، وسـأظلّ أنـا أبحـث في المصـادر المكتوبـة والشـفهيّة حتّـى أصـل إلـى خـيط، وقـد لا أصـل، ومجـرّد الشـعور بـذلك يجعلنـي محبطة ومتوتّرة.

استيقظت بعد منتصف الليل، أمسكت بدفتري الأزرق، ودوّنت أفكاري كلّها، وأنا أتذكّر غسّان الذي يضحكني حينما نحكيعن عن فكرة ما، فيسألني: كتبتِها؟ أقول له أعتمد عليك، فيحتجّ: كندة! دوّني أرجوك، نحن دخلنا عصر التدوين منذ ثلاثة عشر قرنًا!

جلَّ من قد صوّرك

اخترنا للقاءاتنا مطعمـًا افتتح حديثًا في أوّل زقاق الجْدَيْدَة من جهة الصْلَيْبَة، إذ ندخل في الزقاق الذي على كتف جدار كنيسة فرحات، ونجد المطعم المقتطع من حوش عربيّ، واسمه (المشربيّة)، وكان غسّان هو الذي صمّم ديكوره، وصنّع المشربيّة التي تعلو بابه، من الخشب الصقيل الذي يميل لونه إلى الذهبيّ. يقف ويتأمّلها قبل أن ندخل معـًا، ونجلس إلى طاولتنا في الصالة الداخليّة، ذات الأنوار الصفراء الخافتة، والتي تتأتّى تحديداً من قنديل بلمبتين، مثبّت على الجدار الذي تستند إليه الطاولة، يبعث على الدفء واللمعان بسقوط أشعته الذهبيّة على عينيّ غسّان فتتألّقان مثل زينة شجرة الميلاد، وكان بدوره يقول لي إنّ عيني تتلألآن مثل أضواء بيت قديم، وذلك التعبير يجعلي أترنّح من الوجد، ولم يكن السبب وراء هذا الكلام الغنيّ بالتشبيهات والصور، الحبّ وحده أو أضواء القناديل المنعكسة في المآقي، بل نبيذ ميرلوت الذي يحتفظ غسّان بزجاجات منه عند متر كيفورك، والذي يجعلني أفتح قلبي وخزائن أسراري وأبوح له بوحدتي ومشاريعي وطموحاتي، وهو يؤكّد لي مشيراً إلى الزجاجة ذات التصميم البديع: حبيبتي كنّود، كلّه عضويّ، ولا نقطة كحول واحدة!

حدّثته عن أبحاث أبي، وعن مشروعه المسجّل بصوته في أشرطة كاسيت، وعن خطّتي مع الدكتور حسين لإتمام رسالتي للدكتوراه حول

ذلك، وقلت له إنّني أريد أن أستقصي الأماكن التي دارت فيها أحداث الحكايات، وإنّ أستاذة أبي الروسيّة التي عاشت سنوات في حلب حكت له قصص البنات الثلاث، التي لمّحت إليها فاطمة، وعليّ أن أتأكّد من أصلها وعلاقتها بحنّا دياب، وهل فتوح العارفين الجوهريّ، وميسّر، وهيلين موجودات في أيّة مدوّنة، أو أنّهنّ البنات الثلاث بذواتهنّ: الأميرة التركيّة، والغريبة، وبنت القنصل، وهل حنّا هو الحكواتي الذي ذكرته فاطمة؟

نبّهني غسّان إلى أنّ فاطمة التي تتواصل مع قرينها يمكن أن تعيد ما يجري في خلدي، وليس بالضرورة أنّها تعرف هذه الشخصيّات حقيقة، وهو رغم نشأته منذ طفولته على الحكايات لم يسمع بمثل هذا الذي ذكرت:

- ربما تجدينها في كتاب الطبّاخ، أو الغزّي، أو الأسديّ، أو تجدين إشارات لها.
- لعلّ الشخصيّة الوحيدة الثابتة التي توصّلت إليها، هي شخصيّة بول لوكاس الذي ذكره الطبيب راسل في مذكّراته، لم يذكر حنّا ولا أيّاً من النساء الأخريات.

قال لي إنّه يمكننا سماع تسجيلات أبي معاً، وشرحت له أنّها مفقودة، وقد ذكرها في ملاحظاته المدوّنة في واحدة من مفكّراته، مثلما ذكر تلك المعلومات القليلة التي خبّرته عنها، حول حنّا وغرفته التي كان يروي فيها الحكايات، وحتّى أمّي لم تعرف مصيرها، لكن تعرف أنّه كان يسجّلها بالروسيّة، وأنّ الدكتور حسين سمع بها من بابا، لأنّه كان زميلاً له في الجامعة، وقد عادا إلى حلب في الفترة نفسها تقريباً، وربطت بينهما صداقة قصيرة، وليس لدينا جميعاً معلومات أخرى.

لا أعرف لم تضايقت لأنّني بحت بهذا الجزء من مخططي وبمتعلّقات أبي. شعرت بأنّني مكشوفة جدّاً، وأنا أريد أن أحتفظ بأسراري، حتّى لو كانت لا تهمّ أحداً، فهي كينونتي، وعلينا ألا نريق أسرارنا حتى لأحبّ الناس إلينا. ينتهي الحديث دائماً بالتقاط الأصابع، ثم بتركها، ثمّ بتفقّدها واحداً واحداً، وكان غسّان يمرّر دائماً أصابعه حول حوافّ أظافري كأنّه يقيس أبعادها أو يرسم حدودها من جديد، وكان ذلك يبعث فيّ شعوراً من الخدر اللذيذ! بعدها نطلب وجبتنا التي قد تكون كوردون بلو بالدجاج، أو ستيك أوف بوافر، ونقوم لنخرج من معتزلنا، وحين أبلغُ الزقاق أكون قد خرجت من عالم الدفء والأنس، فيكون المغرب قد حلّ، ومحلاّت الصاغة في ساحة فرحات قد أضاءت واجهاتها، وأقفل باتجاه حي التلل، أو أمضي إلى ساحة الحطب، لأخرج منها إلى العزيزيّة مباشرة، وأنا أتكئ على جسد غسّان الذي يكون مستعداً ليحتضنني في كلّ لحظة، ثم عند نهاية شارع قسطاكي الحمصي نوقف سيّارة تاكسي لأعود به إلى البيت، بعد أن أرجو غسّان طويلاً أن يتراجع عن قراره في إيصالي.

كان غسّان في هاتفه اليوميّ الذي يأتي قبيل منتصف الليل يسألني عمّا أنجزته من العمل، ويتابع معي خطواته وكأنّه أستاذي المشرف، ويستعجلني في الكتابة، ويعرض عليّ مساعدته، وأحياناً أضيق ذرعاً بملاحقته، وأصرّح له بأنّني أحب أن أشتغل بطريقتي، وعلى راحتي، فيصرّ على أنّ البحث ليس هواية، هو دأب ومتابعة: اعتبريه كابوساً، وعليك الخروج منه بأسرع وقت. أقول له البحث متعة، وهو أنا، هو دراستي أي أدقّ خصوصيّاتي، وهناك تفاصيل تتعلّق بالتخصّص، أنت لا

تعرفها، فيصرّ بعنجهيّة لطيفة: كندة أنت واهمة، أنا أعرف كلّ شيء! يرافقني إلى المكتبة الوطنيّة في باب الفرج، وقد صار يحلو لي تسخيره أحياناً ليبحث معي في الأدراج الخشبيّة الصغيرة عن تصنيف المراجع التي أحتاجها، فنقف ساعات أمام الخزائن، لنمرّر أصابعنا على البطاقات الكثيرة المضمومة في قضبان من المعدن، وكلّها مرتّبة حسب الحروف الهجائيّة للاسم الأخير للمؤلّف، ومهترئة من مرور ملايين الأصابع عليها قبلنا، وتلك البطاقات تكون حنونة على الجلد ودافئة وكأنّ الباحثين صقلوها بالألفة والمشاركة، في حين تكون البطاقات الجديدة، حادّة وجارحة، وكثيراً ما تسبب ذلك القطع المؤلم في الجلد والذي يحتاج وقتاً ليتعافى، وحين سبّبت إحداها واحداً لإبهامي، صرختُ، ثمّ كتمت صرختي، فهرع غسّان إليّ وأمسك بكفّي وراح ينظر مكان القطع، وقد أخرج من جيبه منديلاً ومن حقيبة يدي علبة البارفان رشّ منها على الجرح، وضغط المنديل فزاد الكحول الحارق من الألم للحظة، بعدها راح يقبّل إصبعي بلهفة، وهو يسألني: طابت، طابت؟ الآن ستطيب يا روحي!

كان غسّان يطير من الفرح حين يحصل أحدنا على رقم تصنيف الكتاب المطلوب، وكأنّه حقّق انتصاراً شخصيّاً، فنذهب إلى أحد الموظّفين ونطلب منه الكتاب الذي نرجو ألاّ يكون معاراً، وكان يجد في كلّ سطر أكتبه، أو مرجع أحصل عليه، خطوة تقرّبه من الزواج بي، ولا أعرف كيف تحصّل على ذلك اليقين الذي يستقرّ في كلماته، وفي نظرات عينيه، في حين أنّني لم أكن متأكّدة من أنّه سيحصل، أو أنّني حقّاً أرغب في ذلك، كنت سعيدة ومطمئنة بوجوده خلال هذه الفترة في حياتي، لكنّ

الزواج لم يكن في حساباتي الآن، سأفكّر في كلّ شيء لاحقاً بعد مناقشة أطروحتي. لقد أجّلت حتّى لقاءه بأمّي، وكانت قد جاءت إلى حلب خلال هذه الفترة عدّة مرّات، وأقامت في إحداها معي شهراً، لكنّني أقنعت غسّان، الذي كان يلح عليّ للقائها، ودعوتها إلى العشاء أو زيارتنا في البيت، بأنّ التوقيت غير مناسب، وأنني غير مستعدّة للدخول في أيّ حوار في هذه المرحلة، لا مع أمّي، ولا مع غيرها، وكان قد غضب منّي حقاً، وخاصمني لعدّة أيّام.

في أحد المساءات، دعاني إلى العشاء في (سيسي هاوس)، أحد البيوت القديمة في حيّ الجديدة، وتعود ملكيّته إلى عائلة السيسي من القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد نشطت مع صدور قانون الاستثمار رقم 10 في سورية حركة تحويل بعض البيوت القديمة، وربّما الأثريّة إلى مطاعم وفنادق صغيرة، على أيدي أصحابها أو ورثتها، أو على أيدي مستثمرين محلّيّين. أسعدتني دعوته، كنت بحاجة إلى أن أغيّر مزاجي، وأن أشعر بالمرأة في داخلي، تلك المرأة يجب أن تطلّ على العالم بين حين وآخر، فتعبث به قليلاً. كان الوقت الذي أقضيه في البحث هو أحلى أوقاتي، لكنّ فرح توسوس لي مثل شيطان صغير متذرّع بالإيمان: "إنّ القلوب إذا كلّت عَمِيَت"، فنذهب معاً إلى سيسي هاوس، أو بيت السيسي كما كان يُعرف أحياناً، وبعدها بسنوات سنرتاد، أنا وإيّاها، دار زمريّا، أو القنطرة، أو دار وكيل، وذلك كلّما شعرنا بأنّنا بحاجة لتطبيق عمليّ على فكرة جماليّات التراث، وأذكر أنّنا ذهبنا مرّة في دعوة لمؤسّسة الآغاخان، لكن أن يصطحبني رجل بتّ أحبّ رفقته إلى هناك فتلك بالتأكيد المرّة الأولى.

قررت أن أبذل جهداً في مظهري، استحممت، ونزلت إلى الكوافير تحت البيت، صففت شعري على طريقة الريترو، فبدا سواده أكثر لمعاناً، وضعت ماكياجاً حاداً نوعاً ما، الكحل والماسكارا ونثرت ظلال الجفون الذهبيّة، وملمّع شفاه أحمرَ رائقاً، وطلاء أظافر باللون ذاته، وكانت كلّها من هدايا أمّي من دبيّ، وكان هناك محل أزياء في حيّ السليمانيّة يستورد بضاعة فاخرة من أوربة، وكنت قد اشتريت منه ثوباً من الحرير النيليّ يُلفّ على الجسد مثل مئزر، ويشدّ على الخصر بحزام من القماش ذاته، وينسدل إلى الكعبين باتّساع، ويترك مكان اللفّ فتحة طويلة تظهر الساق تارّة وتخفيها أخرى مع الحركة، وعند فتحة الصدر ذات الزاوية الحادّة V نثرتُ بودرة ذهبيّة، ووضعت قدميّ في حذاء بيج عالي الكعب، وفكّرت في حقيبة مناسبة، فلم أجد سوى حقيبة قديمة كانت لأمّي من أيّام جهازها في السبعينيّات، أخرجتها من حافظتها القماشيّة، فأبهرتني أناقتها، كانت بحقّ قطعة من (الفنتاج)، مشغولة بالبروكار الذهبيّ الرصين مع لوني البيج والأزرق السماويّ، وتفتح بالطريقة التي تسمّيها مجلات الأزياء (كليك كلاك)، كان أبي قد أحضرها معه هديّة لها، ولعلّ سيّدة روسيّة كانت قد حاكتها في ليالي موسكو الباردة.

كان غسّان بانتظاري، طلبت إليه أن أذهب وحدي، فنلتقي هناك، أحسست بشهقته حين رآني، نظر إليّ نظرة متوعّد، وعضّ على شفته السفلى، ثمّ ابتسم، كنت أحبّ هذه الحركة في تراسيم وجهه حين يعجز عن الكلام. تقدّم نحوي وقادني إلى مكاننا، وأجلسني على الكرسيّ مقابلة له. اختار أن نجلس في الحوش إلى طاولة في منتهى الأبّهة. المكان

نظيف، ومؤثّث برؤية لا تجعله يتنافر مع موتيفات عمارة القرن الثامن عشر، الأدراج الحجريّة الضيّقة ذات اللون الأصفر مع أفاريز الحديد المزخرف المطليّ بالأسود، والليوان بأرائكه المحدّثة ذات المخمل الورديّ، والغرف الصغيرة تحتوي على بعض الأنتيكات، تماثيل صغيرة في خزائنها، وقطع نقديّة قديمة، وقطع من المجوهرات، والقاعة الواسعة في إحدى زواياها تمثال من الرخام الأبيض لفينوس بعينين زمرّديتين يحاكي المنحوتة الأصليّة. كنت أراقب الجالسين على طاولاتهم يرفعون كؤوسهم بابتهاج، ويتناولون طعامهم بأناقة، وعلى التيراسات المطلّة على الحوش، تتناثر طاولات المحلّقين بنقاشاتهم، وأحلامهم، وضحكاتهم التي تكاد تصل السماء، أمّا نحن في موقعنا تظلّلنا عرائش الياسمين وأشجار الكبّاد والليمون، وتنشر شجيرات الكولونيا أريجها في الأنحاء، لتمتزج برائحة العرق السوريّ الشهير، وروائح الموالح والمقبّلات فتملأ الفضاء من حولنا، إنّها رائحة الألفة في عموم مطاعم حلب ونواديها، لكن يمكن هنا تمييز مدى بذخها وأناقتها بوضوح، كما أنّ الأصالة ستسحبك من يدك وترميك مئتي سنة إلى الوراء.

بدأ عازف العود يغرق في تقاسيمه، وكان غسّان يتودّد إليّ ويمسك مرّة يدي اليمنى ومرّة اليسرى، فيضغط عليها بعزم، وينظر بثبات في عينيّ حتّى ترمشا، وتتبدّد النظرة. بدا لي ساحراً، كان من الواضح أنّه بذل جهداً أيضاً في سبيل هذا اللقاء، لقد حظي شعره الأسود الغزير المسترسل بعناية حلاّق مبتكر، قصّ مقدّمته، وبعثرها نحو الأعلى فمنحته مظهر شابّ عابث، وارتدى بنطالاً كحليّاً، وقميصاً رسميّاً ناصع البياض، ومنشّى بكثافة، ياقته أعرض من المعتاد ولها وقفة أنيقة، وفوقه بليزر من

الكتّان الرماديّ، عكس بياض بشرته، وتورّد خدّيه، وسواد حلّته البديع، خطر لي أنّني لو حلّلت تفاصيله كلًّا على حدة، فلن أجدها جميلة، لكنّ الوسامة شيء آخر، إنّها صفة شموليّة ومختلفة عن الحسن! ويمكن أن أعترف أيضاً بأنّ لمعة عينيه آسرة، وبأنّ قدرته على إظهار الحبّ طاغية. أستطيع أن أتغزّل بغسّان حتّى الصباح، وأنا أحسب أنّ تلك الأمسية هي أجمل أماسي العمر، ولو قال لي في أيّة لحظة منها: هيّا معي إلى آخر الدنيا لذهبت.

انتقل العوّاد لدندنة موسيقى موشّحات وفواصل موسيقيّة أليفة: ملكتم فؤادي في شرع الهوى، وهو من فاصل (اسق العطاش)، وصرنا نخمّن الموشّح الذي يشرع به، والذي تضلّلنا التقاسيم التي يدخل فيها عن كشفه. كان غسّان أسرع في التقاط النغم، فلم تسعفني معرفتي مثلاً بموشّح: فيك كلّما أرى حسن/ مذ رأيت وجهك الحسن/ الذي صار موشّحي الأحبّ، والذي أسمعه إلى اليوم كلّما احتجت لاستدعاء لحظة جميلة. طلب غسّان من المغنّي أداء واحد من الموشّحات على نحو إهداء خاصّ لي، ونظر في عينيّ بثبات وقال: "جلّ من قد صوّرك/ بدرٍ من ماء وطين"، ثمّ انطلقت الموسيقى...

كان غسّان يتحيّن كلّ فرصة في ثنايا حديثنا، ليمسك بيديّ الاثنتين ويقبّل كفيّ قبلات خاطفة، سألني عن عطري الذي كان آنذاك (جادور) من ديور، وتحدّثنا عن العائلة، وكنت على غير عادتي مرتاحة جدّاً في حديثي عن فقدي الكبير لوالدي، ومع ذلك لم أذكر السبب الحقيقيّ لموته، وموقفي من زواج والدتي، ونشأتي التي حصلت فيها على أفضل ما يمكن أن تحصل عليه بنت في ظروفي. وبدا لي أنّ عائلته تقليديّة،

وكبيرة، ومتكاتفة، وقد دعمت خياره في دراسته في باريس، وقد وقف خاله وراء هذا الخيار بشدّة، إذ كان من قبل قد درس الطبّ هناك، وهو الذي رحّب به في بيته عند وصوله، وساعده في استقراره والتحاقه بالجامعة، ولاشكّ في أنّ دراسته في باريس هي التي حوّلته إلى غسّان الذي أراه أمامي، وإلاّ كان مثله مثل أيّ رجل محافظ، ويقدّس التقاليد التي تقول بأنّ اختيار الزوجة هو اختيار عائليّ بحت منوط برضى الأمّ والأخوات قبل كلّ شيء.

كان غسّان قد رتّب المنيو قبل وصولي، وكان النادل يصفّ الأطباق الشهيّة على المائدة: النخاعات، واللسانات، وسلطة الموسم الخضراء، والكبّة النيّة، والكبّة المقليّة، والجبنة الكرديّة، فأنقر الطعام نقراً، وكذلك يفعل غسّان، يمدّ شوكته وسكينه، ويلتقط بهما شقف لحم الضأن المشويّ، ويقطّعها في صحنه، ثم يقرّبها من فمي: *مشاني كندة، حبيبتي خذيه من إيدي*، تماماً كما تفعل نساء العائلة التقليديّات مع شخص يميّزنه، فيولينه الاهتمام والضيافة، ويشعرنه بالمحبّة مع كلّ لقمة. كان يدلّلني وقد أحببت طريقته الأنثويّة في التدليل، في الحقيقة لم أحظ بذلك من قبل، فالطعام يوضع على طاولتنا وهو متاح بلا إلحاح أو تدليل. تتعلّق عيني بساعته، ساعدُها المعدنيّ الفضيّ يحيط بمعصمه كثيف الشعر، وتنعكس زرقة مينائها على بياض جلده، وتصدر صوت طقطقة كلّما حرّكها في يده ليبعدها عن عظمة معصمه نحو الساعد قليلاً، وقد سبّب لي ذلك الصوت نشوة غريبة، يستحسن ألاّ أفكّر في تحليلها. حدّثني غسّان عمّا يجول في خاطره من أمنيات، وقد وجدتها خططاً واثقة أكثر من كونها رغبات، قال إنّه سيأخذني إلى إيطاليا، إلى فلورنسا، وهناك سنرى الجمال

الأصيل في أوربة النهضة، وإرث آل ميديتشي العريق، سنذهب إلى بازيليك سانتا ماريا ديل فيوري، ونتسكّع في الأزقّة والمقابر: سترين يا كندة هناك الفنّ الحقيقيّ، ستعاينينه بنفسك في مقابر فلورنسا، كلّ منحوتة تتضمّن أسرار الفنّ التي لا تبوح بها إلاّ لمثلك...

- أرجوك غسّان إلاّ المقابر، تركت كلّ الجمال وانتهيت إلى المقابر!

- طيب، سنذهب إلى باليرمو وصقلية عند المافيات.

قلت له: أريد الذهاب إلى فينيسيا، فقاطعني: لا فينيسيا لا، زرتها مرّة وهربت من رائحتها، رائحتها لا تحتمل، وكانت زيارتي لها في شهر آب، وفعلاً مرضت من رائحة الرطوبة المختلطة بروائح المجاري.

- لكنّني لم أزرها وأريد زيارتها. وبعدها تذكّرت أنّ ذلك سيحدث بمعجزة، ويحتاج جهداً يفوق طاقتي،

يحتاج شخصاً يهتمّ لأمر سفري وحريّتي، وكنت أفكّر في أنّه آن الأوان لأوكّل محاميًا، وأنهي قضيّة منعي من السفر، والتي ارتبطت باسمي منذ أيّام التحقيقات بقضيّة أبي، وكانت أمّي دائماً تؤجّل هذه الخطوة، كيلا نفتّح العيون علينا كما كانت تقول.

حدّثته عن مذكّرات ماركو بولو، وعن علاقته بالمدينة، وكان يستمع بإنصات، قاطعني: في أي سنوات كان ذلك؟ فأُرتج علي. في الحقيقة أنا أنسى السنوات وأحفظ القرون، فقلت في القرن الثالث عشر قال: صحيح، وكان من أوائل الذين عاودوا اكتشاف طريق الحرير في تلك الحقبة برحلته من أوربة إلى الصين، وإحدى محطّات الرحلة خان البنادقة في سوق المدينة، تعرفينه؟ قلت نعم، ثمّ سكتّ.

كان غسّان يصادر كلامي في كلّ مرّة، ويتفوّق عليّ في الحديث. كانت معارفه أكبر من معارفي، وقد حظي بفرص أكثر من فرصي بالتأكيد، ودارَ العالم، وتعرّف ثقافات عديدة، وواجه صعوبات وتحدّيات لم أعرفها. فكّرت في تعبير أطلقه على ما يفعله معي حضور غسّان، إذ يخبرني صوت في داخلي أنّه ضدّي، وضدّي لا يعني يريد بي شرّاً، لكنّه ضدّي على نحو ما، واهتديت إلى تعبير: إلجام الصوت! كان غسّان، بقصد أو غالباً من غير قصد، يلجم صوتي، بخبرته، وبحكاياته، وبمعارفه، وهذا ليس فقط بسبب الأعوام العشرة أو الأكثر بقليل التي يكبرني بها، بل بسبب الفرص التي أتيحت له، وبالطبع فيها الكثير من القرارات التي اتخذها بشجاعة، فلا شكّ في أنّه تعرّض لمقايضات صعبة، ووقع في حيرة كبيرة، وواجهته اختيارات مُرّة، ليصل إلى هذه اللحظة، وأنا أيضاً عليّ أن أنقذ صوتي من التلاشي. كنت قرأت كتاباً ترجمه أبي، وفي الحقيقة كان آخر ما ترجم، للناقد الروسي ميخائيل باختين حول تعدّد الأصوات في الرواية، حيث يقول: إذا كان ثمّة شخصيّة بلا صوت فريد فهي مجرّد مكمّل أو عدم، ولم أكن أحبّ أبداً أن أكون بلا صوت، أي بلا رؤية، وبلا وجود.

خرائط الجنّ

طلب غسّان مراراً أن نلتقي في البيت، يقول إنّه يشتاق لأن نكون معًا وحدنا، وأن يضمّني في حضنه بلا حذر، وأنّه لا يستطيع أن يصبر أكثر على أن أكون قريبة وبعيدة، وأنا كنت أخاف من أن أصغي له، وهذا الخوف كان دائمًا يحرجني، ويجعلني أعتذر له وأنتقل إلى موضوع آخر، لاسيّما حين يسترسل في ملاطفتي، فيداعب خديّ أو رقبتي، أو يضع إصبعه على شفتيّ، يرسمهما بسبّابته، ثم يعيدها إلى شفتيه، كأنّه ينقل قبلة. أقول لنفسي: كيف يمكن أن أحبّ رجلاً، وأهرب منه، وأصدّه كما أفعل مع غسّان، أو أتركه *نصّ نصّ* كما يقول! وكنت دائمًا أجد، مع كلّ ذلك الأنس والرغبة في صحبته، شيئًا منفّراً يرافق رحلتنا، ويمشي معنا، وحين أخبرت فرح بذلك، قالت: إنّه صوت العقل الذي يفسد المتعة، ويفسد الحبّ، فإمّا أن نتجاهله، فنستسلم، وإمّا أن نغلق الملفّ كاملاً، فلا يوجد في علاقات الحبّ أريد ولا أريد، أو *نصّ نصّ*.

لم أتّصل في ذلك اليوم بغسّان، وكانت الساعة حوالي الواحدة ظهراً، والهدوء يعمّ حيّ السبيل، وليس سوى أصوات العصافير تطلق غناء جماعيًّا ثم تسكت فجأة، في حين يجرح السكون صوت (أَصَاب البَيْع) الذي يمرّ بسيّارة سوزوكي، مفتوحة الظهر، وينادي على غسّالات قديمة، أو برّادات، أو أيّ شيء يمكن شراؤه، أو مقايضته، وقد غادر

الشارع، وبقي صدى صوته مختبئاً بين شجر الصفصاف الكثيف أمام الأرصفة. كنت جالسة في البرنده مختفية وراء شجيرات الياسمين والمدّادة المعرّشة من حديقة الجيران في الأسفل نحو شرفتنا، فتوقّفت سيّارة وأُطفئ محرّكها برصانة، وخفق قلبي، وخمّنت أنّ غسّان قادم إلى بيتي، ورأيته وهو يحمل باقة من الورد أنيقة. بدا رزيناً في قميصه الأبيض الذي يتوهّج من النظافة، وبليزر رماديّ، وبنطلون أسود، ورأيته يقفل باب سيّارته ويفرغ يده من المفتاح، ويرفع بها خصلات غرّته، وقرّرت أنّني يجب أن أفتح الباب. كنت ببيجامتي، وأسرعت لأمشّط شعري المنكوش سريعاً، وأضع برفاناً، وأرتدي حمّالة صدري الذي كان متحرّراً ومستسلماً للراحة، وشعرت بعبء الزيارة، ولا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك، فليرَ كلّ شيء على طبيعته. رنّ الجرس، وسألت نفسي، كيف سمح لنفسه أن يفعل ذلك، ولم يخطر في باله أن يكون لديّ أحد فيحرجني معه، خالتي؟ أحد من أقاربي، أو من صديقاتي، أيّ شيء!؟ وحين سألته قال ببساطة: سأفهم، وأقول: إنني أخطات في العنوان! نعم فكّر غسّان بهذه البساطة، في حين تدفّقتْ إلى عقلي عدّةُ سيناريوهات مخيفة. قابلته باستنكار في حين قابلني بابتسامة عريضة، وفرحة لا يمكن تغييبها، وأدخلته سريعاً، واحتضنني فأوقفته، أخذت منه بوكيه الورد، ووضعته على الكونسول، وعاودت الارتماء في حضنه، وكان يشدّني إليه، ثم كلّما ارتخينا، عاودت لأشدّه أنا، وأدفع جسدي نحوه، ولا أعرف كم لبثنا هكذا، حتّى تعبت من الوقوف، وقدته إلى غرفة الجلوس، التي كانت لحسن الحظّ مرتّبة إذا استثنينا كميّة الكتب المنتشرة في الأرجاء، والتلّة التي تبدأ من الأرض إلى حافّة الطاولة، لكنّه المظهر الطبيعيّ لمكان

يعيش فيه أيّ باحث. جلس غسّان مرتاحاً على الأريكة، وكأنّه في بيته، وجرّني إلى حضنه، وصرت أسأله كيف جاء، ولم يحسب حساب الجيران، وإذا ما يريد أن يشرب قهوة، فأسكتني، وأخذ جذعي إلى صدره، وقيّدني إليه، وكنت أشمّ رائحة الآفتر شيف بعبق الحمضيّات، مع أنفاسه الحارة التي بدأت تنتظم، وأغمضت عينيّ، وقرّرت الاستسلام. لعلّني نمت قليلاً وأطياف بين جفنيّ، وأفكارٌ في عقلي، ثمّ غادرني الوسن، على حركة يد غسّان يمسّد شعري، ويطبع عليه قبلات، ووضعت أذني على قلبه، ولم أسمع دقّاته، وكانت أول عبارة قلتها بعد أكثر من نصف ساعة من الهدوء: أين قلبك؟ لا أسمع شيئاً؟ فردّ: ما في قلب، أكلته القطط! وابتسم، وانهمرت عليّ قبلاته على رقبتي وصفحة صدري، وصار يضمّني إليه أكثر حتّى شعرت بأنّه بدأ يخرج عن السيطرة، فابتعدت عنه: غسّان، هدّي أعصابك! وكان الماء قد جفّ في جسدي، ولم أشعر بأيّة رغبة، ولعلّه الخوف من كونه في بيتي، بينما كنت أرتخي حين يضمّني أو يلمسني في أيّ مكان نكون فيه معاً، ويهبط رحمي، ويدفق مائي.

قلت بدعابة: ممكن تقعد عاقل! ولكنني كنت أقصدها جادّة، فنظر إليّ، ولا أعرف إن كانت نظرة عتب أم استهجان، كأنّه يقول ليس مقام مزاح أو دلع، ثمّ قلت له: ماذا تشرب وأنا أقف أمامه، وقد تقدّم في جلسته على حافّة الأريكة، ليترك يدي، وقال لاشيء! كان ينظر باتّجاه الموقد، وكانت صور لأبي وأمي مؤطّرة ومصفوفة على حافته المرمريّة، وأردت أن أعرّفه إليهما لأطرّي الجوّ المحتقن، قلت: الدكتور عابد الأشقر، بابا... لكنّه بعد أن حدّق في الصور طويلاً، قال: عابد؟ قلتِ لي اسمه محمّد!

- نعم، محمّد عابد.

سرح وقد اكفهرّت معالم وجهه، ثمّ قام واتجه نحو الباب، وخرج. شعرت بعبء انزاح عن كاهلي، وعدت إلى الأريكة، وكانت رائحته في قماشها، والوسائد قد تغيّر موقعها، فارتميت عليها، وقابلت الصور على رفّ الموقد حائرة، ونظرت في وجوه الموجودين فيها، الوجوه التي تركني أصحابها وحدي، ومع ذلك لم أتحرّر من قيدهم، وما زلت أخاف من أمّي وخالتي، ومن صور أبي الذي تركتْه أمّي معلّقاً على الجدار، بعد أن تركها معلّقة بحبال المسؤوليّة والفقد. توصّلت، بعد تحقيق مع الذات، إلى أنّني لا أخاف منهم، بل أخاف لأنّني لا أستند سوى إلى نفسي، أخاف من الخذلان، ومن أن يكون لي نقطة ضعف، تجبرني على أن أسير في طريق لا أريده، أو أندم عليه، ولعلّ الله حين يأخذ من الإنسان مصادر الأمان، يمنحه مهارة اجتناب الخطر.

انقطعت الاتّصالات بعدها بيني وبين غسّان، وهذا لم يحدث أبداً منذ أن عرفته. حاولت أن أسترضيه مساء باتّصال هاتفيّ لكنّه لم يرد، لا في المكتب، ولا في البيت. كان نومي قلقاً ليلتها، وفي الصباح كنت مجهدة، وليس لدي رغبة في العمل والكتابة. شربت فنجانين من القهوة، وأنا أستمع إلى أغاني الصباح تبثّها إذاعة دمشق، وحين غنّت فيروز (يا عاقد الحاجبين) تجاهلتها، ودخلت المطبخ، فتحت البرّاد حدّقت في جوفه، وأغلقت بابه. قضيت الوقت أفكّر في لا شيء، وبحدود التاسعة صباحاً كلّمت فرح، وطلبت إليها أن نلتقي، وقلت لها: *عازمتك عالغدا ضروري*، وقالت إنّ لديهم خطبة لقريبة لها، وستكون مشغولة، فأغلقت السماعة في وجهها. شعرت بفراغ أكبر، فلا أحد هنا في حلب الآن، مع صمت غسّان

الذي كان يملأ أيّامي حقّاً، ووجدت الدنيا موحشة. لبست وقلت أتمشّى باتجاه الجامعة، وطوال الطريق أشعر بغسّان ورائي، وأتلفّت فلا أجده، أو أتوقّع أنّه سيخرج من أحد الشوارع أمامي عند جامع الروضة مثلاً، أو أمام نادي الاتّحاد، حتّى وصلت بوابة الجامعة باتجاه حيّ الشهباء، ولم يظهر، ودخلت الحرم باتجاه المكتبة المركزيّة. لم يكن في كليّة الآداب سوى بعض المعيدين في أحد المكاتب، وبعض أبواب مكاتب الدكاترة مفتوحة أو مواربة، فالجميع في عطلة استعداداً للامتحانات. التقيت ببعض الزملاء وجلسنا على الحواف العريضة للسور الواطئ أمام باب الكلية الداخليّ، كما نفعل منذ كنّا طلبة. لاحظ الجميع أنني لم أكن على مايرام، حتى إنّ زميلتي أسماء انتبهت إلى أنني لم أطلب منها حبّة شوكولا (لي) التي تزوّدني بها كلّما التقينا. تحدّثنا قليلاً عن (استشراق) إدوارد سعيد الذي كنّا التفتنا إليه في تلك الفترة، وكلّ حسب اختصاصه، وجد فيه ضالّته، وكنت قد حدّثتهم عن كتاب أنور عبد الملك (ريح الشرق)، وكتاب سمير أمين (البحر المتوسّط في العالم المعاصر)، ثمّ وجدت توقي للمناقشات قد أفل، وإنْ تسلّيت قليلاً، فاتصلت بغسّان من كابينة الكليّة، إلاّ أنّه لم يجب. لم يكن بي طاقة للمشي، حين قرروا الذهاب للغداء في مطعم قريب، فركبت تاكسي إلى (الموكامبو)، اشتريت وجبة شاورما لحم من مطعم (العريان)، وعدت إلى البيت ماشية. أشعلت التكييف، وأكلت، ثمّ شغّلت سي دي "شهرزاد كورساكوف"، كنت قد اشتريته من محل التسجيلات الشهيرة (شادوز) في العزيزيّة، ولملمت أوراقي لأكتب، وقررت أن أترك الوصال أو الفراق لمزاج غسّان ولصبره، فإذا ذهب فالله معه، وإذا عاد سيناله منّي عتاب شديد، وسأتفنّن وقتها في تعذيبه على

الوقت الذي ضيّعته وأنا أشغل بالي بمزاجيّته وانتظار اتصالاته، وقلت لنفسي: فلنعلّق الآن يا كندة المسألة إلى حيث نغلق فصلاً في كتابة البحث.

طالت مدّة القطيعة أسبوعاً، وغيّرت رأيي في مسألة التواصل معه، مندفعة بالفضول والغضب من الإهمال، إذ خفت فعلاً من أن أفقد غسّان! لعلّه رأى فيَّ تلك البنتَ المكبّلة بالتقاليد، على غير ما تبدو من التحرّر الذي تحكي فيه عن الفنّ والأدب، ولا تشبه لا نساء موديلياني، ولا نساء باريس اللواتي عاش معهنّ، ولا تعرف كيف تعلّق الرجال، ولا كيف تتفاهم معهم، وتجهل معنى أن يحبّ رجل امرأة. فكّرت في أنني لست امرأة، أنا بنت ما تزال طالبة جامعيّة، حتّى لو كانت في مرحلة الدراسات العليا، لم تَخُضْ تجربة جسديّة بالعمق الذي يعرفه غسّان، ثم فكّرت في أنّ من هُنَّ في سنّي فتحن بيوتاً، وعندهنّ كومة أطفال، وأَفْضَتْ هذه الأفكار كلّها إلى وهن في العزيمة، فاتصلت به في ذلك المساء، والغريب أنّه رفع سماعة الهاتف، ووقع قلبي مع حركة انفتاح الأثير بيننا وسمعت: ألو، وكان صوته جادّاً، وثقيلاً. لم أسأله كيف حالك، أو لماذا لم تردّ، قلت له: إذا قاطع المسلمُ المسلمَ ثلاثة أيّام يدخل النار، فضحك ضحكة مجاملة، ولم يردّ كما اعتدت منه. قال لي: المسلم مشغول جداً. قلت: أريد فقط الاطمئنان عليكَ، قال: إنّه بخير، ولم أتمكّن من أن أقول له اشتقت لك، خفت على كبريائي، ولم يسألني عن حالي، قال: أكلّمك لاحقاً وأغلقنا الهاتف، وبعدها ندمت على اتّصالي، إذ كان عليّ أن أتمسّك بالبعد، وأتركه حتّى يحنّ، والآن علينا أن نعيد برنامج الصبر والغياب من أوّله، وهذا ما كان.

* * *

استيقظت في ذلك الصباح الصيفيّ من أوائل تمّوز، وكنت قد تحرّرت من جوّ الامتحانات، وتصحيح أوراق أكثر من مئتي طالب، وتسليمها إلى دائرة الامتحانات، لأتفرّغ للكتابة في مشروعي. كانت الساعة السادسة صباحاً، وأصوات العصافير ملأت الفضاء في الشارع الذي ما يزال ساكناً، قمت لأصنع قهوتي وأجلس على البرندة، فأكتب في رسالتي. كان يوماً بذلك الصفاء مناسباً لأشياء كثيرة، الحبّ، والكتابة، والتريّض في حديقة السبيل المجاورة. قرص الشمس يطلع على مهل من الشفق الشرقيّ للمدينة محمرّاً مثل ياقوتة، ويمرّ بضعة من الرجال وهم يحملون أرغفة الخبز الساخنة من الفرن القريب، تملأ رائحتها الحارة، وكانت الورود في الشرفات تستقطب طيراً طنّاناً صغيراً بجناح أزرق، يأتي كلّ صباح، فيما نحلةٌ تطوف في الأرجاء تقف على وردة جوريّ صفراء في الأصيص على حافة البلكون، ثمّ ترقص أمام وجهي، فأتجاهلها لتغادر. كتبت في ذلك الصباح تحليلاً ثقافيّاً لواحدة من الحكايات السبع التي أشار إليها أبي متوخّية البحث عن مخالفاتها السياقيّةومحاولة أسلبتها مع ألف ليلة، لأثبتَ بالتحليل أنّها لمؤلّف آخر هو حنّا دياب.

شعرت بأنّني أنجزت الكثير بهذه الكتابة، وأنّني أستحقّ استراحة. لم أتّصل بغسّان، إذ قرّرت أن أذهب وحدي إلى خان العلبيّة، وأن أمشي في الأزقّة في سوق المدينة، وبين الحوانيت، وأسأل الناس، مثل المخاتير الذين لابدّ من أنهم يعرفون السجلاّت العائليّة للسكّان، وكذلك أصحاب المكاتب العقاريّة، الذين تمرّ عليهم قيود تسجيل الممتلكات، ومن باع، أو غادر، أو هاجر، ولا أعرف كيف خطر لي أن تكون أسرة حنّا دياب قد هاجرت إلى فرنسا مع أولئك الذين اعتادت حكوماتها رعايتهم بوصفهم مسيحيين منذ

زمن القناصل إلى زمن الانتداب. فكّرت أيضاً في أن يكون لعائلة دياب اسم آخر مثلاً، أو أنهم غيّروا اسمهم في مرحلة ما، فلا يمكن أن تختفي عائلة كبيرة، تتكوّن أسرة واحدة منها من أربعة عشر فرداً، كما أشار أبي نقلاً عن مخطوطة أستاذته. سأسأل التجّار القدامى، أو شيوخ المساجد، أو سيّدات المنازل عن عائلة دياب، التي سكنت هنا قبل مئة وخمسين سنة، فلاشيء يضيع في حلب، إنّها مثل الكون الذي لو ابتلع ثقب أسود مكوّناته، فإنّ الأفكار ستبقى معلّقة في مداره، ولا بدّ من وجود صلة بين هذه القصص التي يعرفها أبي، وتعرف فاطمة نتفاً منها، وقد تعرفها جدّة غسّان، حسب ما حكى لي. إنّني أشعر بتلك الصّلة، وعليّ بوصفي باحثة إثباتُها، وتحويلها إلى علاقة مكتوبة.

ما كان يبثّ فيّ الأمل في أن أجد شيئاً هو أنّ خان العلبيّة الذي عاش فيه حنّا دياب قائم وبحالة جيّدة، وكذلك الأسواق حوله: سوق الجوخ، وسوق ماركوبوليّ، وغيرها، فهي ما تزال آهلة بالبشر ونشاطاتهم التجاريّة والاجتماعيّة. صرت أتردّد كلّ يومين أو ثلاثة على تلك الأمكنة، وأصغي إلى إيقاعها، ولمّا يئست من الوصول إلى شيء اتصلت بفاطمة، وطلبت إليها أن نلتقي. كنت قد قرّرت الإيمان بقدراتها، وبأنّها ستمنحني ولو قليلاً من المعلومات التي تقول إنّها تُملى عليها من قبل الشيخ أحمد. قبل أن أذهب حدّثت فرح بمكالمة طويلة عن نيّتي، قلت يجب أن يعرف أحد ما أين سأكون وماذا سأفعل، ولا أريد أن أخبر غسّان بذلك، لأنّ فاطمة طلبت ألاّ يصحبني أحد، وأنا لم أرد أن أستضيفها في بيتي، فليس من الضرورة أن تعرف مكاني، وإن كانت ستعرفه لو أرادت بقوّتها التواصليّة مع العالم الآخر.

أصرّت فرح نزولاً عند رغبتي، التي تعرف أنّه لن يثنيني عنها شيء، أن تأتي معي، ولم تمانع فاطمة في ذلك. قالت فرح من الأفضل أن أرتدي لباساً

مناسباً مع حجاب، لاسيّما أنّنا سنمثل أمام كائن مسلم، ولم تقل جنّاً مسلماً كما هي المفردة المناسبة. تعرف فرح هذه الأجواء أكثر منّي بكثير، خبّرتني عن أنّ أشخاصاً من أقربائها وجيرانها يرتادون بيوت المخلّصين، أو مكاتبهم، ليحلّوا المشاكل، أو يكشفوا سرقات، أو يفكّوا أسر معتقلين سياسيّين. كانت فرح متحمّسة وكأنّ الأمر عاديّ بالنسبة لها، أنا وحدي التي فكّرت طويلاً، وحسبت حسابات كثيرة قبل هذه الخطوة، وبدوت بعيدة عن سيرورة الناس، والتاريخ، والحياة اليوميّة، التي يرث فيها البشر الحكايات والأخبار عن سابقيهم، وعن محيطهم، في حين أنّني مقطوعة من شجرة.

أنزلنا التاكسي أمام دخلة العقبة، ومضينا في الأزقّة وصعدنا الأدراج، ومشينا باتّجاه بيت فاطمة، الذي حفظت عنوانه مذ مررنا به في مشوارنا الأوّل، عندما طلب إليها غسّان أن تأخذني في جولة. كان من الدور التي تقع في الزقاق الذي ينعطف منه الخارج من (حمّام السادات) إلى اليسار، وليس بعيداً عن المركز الثقافيّ الفرنسيّ، ولا عن مكتب غسّان كما بدا لي. انتابني القلق قبل الدخول، لكنّ فرح طمأنتني وقالت إنّها خبّرت (سامر) أخاها بمشوارنا، وأعطته العنوان في حال حصل شيء، سامر يعمل في تجارة القماش، والبرادي، ومستلزماتها في (قسطل الحجّارين)، قريباً من هنا، وقالت له: إنّها إحدى الزيارات الخاصّة بالبحث. لم أعتب عليها، بل شعرت بالاطمئنان، وتأكّدت لي حكمتها كما في كلّ مرّة. طرقنا سقّاطة الباب مع أنّ جرساً مثبّتاً على الجدار، ففتح لنا ولد صغير، وقبل أن نقطع الممرّ خلفه خرجت فاطمة من غرفة إلى يمين الحوش الذي كان مثل حوش مكتب غسّان، لكنّه أضيق، أوّل ملمح تبيّن لي هو الأرض المرمرية البيضاء والمكحّلة بإطار أسود يحصر مستطيلاً فيه بحرة ونافورة، وأشجار خضراء

متوسّطة الطول منظّمة في الطرف إلى جانب الدرج إلى اليسار، فيما يوجد درج آخر في الاتّجاه نفسه لكن يفضي إلى تحت، ولم يكن هناك ليوان، بل حجرات موزّعة حول الجدر الثلاثة التي تشكّل أضلاع المستطيل والرابع هو جدار الباب. هذا الذي استطعت أن ألمحه في عجالة، والذي أردت له أن يطمئنني إلى أنّني أدخل إلى بيوت بشر طيّبين، وليس إلى كهوف الجان، وخطر لي حسب معرفتي بخصائص البيوت العربيّة أنّ البيت مقتطع من بيت أكبر بكثير. استقبلتنا فاطمة بترحاب شديد، وابتسامة واسعة. كانت ترتدي تنورتها السوداء الكريب الضيّقة التي تبدي بطنها متكوّرة قليلاً، وكنت أسأل نفسي لماذا لا تلبس مشّداً! كان شكل جسمها متناسقًا وجميلاً لولا هذه البطن، وفوقها قميص أبيض من الجورجيت الناصع له ربطة سوداء من الساتان، وقدماها في شحّاطة منزليّة من الجلد المفتوح، على شكل قبقاب، كان دارجًا في التسعينيّات بلون كحلي، لاحظت أظافرها مرتّبة، طويلة قليلاً ومعتنى بها، كأنها تضع مناكير (فرنش)، بسبب البياض الشديد لحافة الظفر. ساقاها سمراوان مكتنزتان وتلبس في إصبعها خاتمًا من الذهب بحجرة فيروز، وعلى رأسها حجابها الأبيض منسدل، وأحد جانبيه ملقى على الكتف، وأدخلتنا غرفة صعدنا إليها بدرجة، وكانت باردة بطريقة منعشة، ومفروشة بموكيت خمري اللون، وعلى الأرض فرشات إسفنج مضغوط، تأخذ شكل جلسة عربيّة أمامها طاولة واطئة من الموزاييك الشاميّ، وعلى الجزء الآخر أرائك مودرن بمساند ظهر على شكل عنابر للتخزين، كانت دارجة في معظم بيوت الطبقة المتوسّطة إلى الفقيرة آنذاك، وتبدو جديدة ولامعة باللون البنيّ المحفور بورود بيج، وتقف أيضًا على ارتفاعها طاولة خشبيّة عليها صحن فواكه، فيه عنب ودرّاق. جلسنا وقد بدّدت ألفة المكان

قلقي. جلست فرح على الأريكة مرتاحة، وطوت ساقًا تحت الأخرى، وكأنها ليست في بيت غريب، فبان بنطلونها الجينز الضيّق تحت جلبابها الأزرق الصيفيّ، وقد أعادت تثبيت حجابها الأبيض لترخي دبّوسه تحت حنكها، وراحت تتحدث مع فاطمة بمودّة وتسألها عن أحوالها. سألتني فاطمة إن كنت رأيت أستاذ غسّان، كما تسمّيه، نفيت بحركة من رأسي، ثمّ قالت إنها لم تذهب اليوم للمكتب لأنها ستستقبلنا. دخلت صبيّة تبدو في عشرينيّاتها، تحمل صينية قهوة وكانت مرتّبة جداً، ورائحتها المطيّبة بالهال التي عبقت في الغرفة تفتح النفس، وقالت بعد أن سلّمت: أكيد بلا سكّر! وكنا قد اتفقنا فرح وأنا ألا نشرب شيئًا عندهم، لكن كل شيء يبدو عاديًا: الأطفال يلعبون في الحوش، وزوجة الأخ الحلوة تجري عليهم، وقد عرّفتنا بها فاطمة، وقالت إنهم اليوم سيتغدون عندها (يبرق) لفّته بيديها، وقلت في نفسي: لابدّ من أنّ الشيخ أحمد ساعدها بلفّه! وضعنا فناجين القهوة، وقلت لفاطمة:

متى نبدأ؟

قالت اشربي قهوتك أولاً، فقلت إنّني مستعجلة، وقالت: حاضر.

أشعلت فرح سيجارتها، وضيّفت فاطمة من باكيتها المارلبورو الأبيض، فأخذتها منها، وقالت: أرجو ألاّ يمانع الشيخ، ابتسمت فاطمة وقالت: أبداً.

ثبتُّ حجابي جيدًاً وجلست فاطمة أمامي مرتاحة، وقد فرّغت الصحن النحاسيّ من الفاكهة، ووضعت ما فيه على سطح الطاولة، وراحت تنظر وتتمتم، وبقيت أراقبها وأريد أن أضحك ربّما لأخفي انفعالي، نظرتُ إلى فرح كانت غارقة في الفرجة، وهي تسحب نفسًا من

سيجارتها وتنفثه نحو السقف وتنقّل ناظريها بين وجه فاطمة والصحن أمامها، وبدأ لون أزرق داكن يظهر في عروق رقبة فاطمة، ويتغضّن وجهها، وهي تتلوّى شيئا فشيئًا وكأنّها تتألّم أو أنّ أحداً يضربها، ثمّ راح جذعها العلويّ يتحرّك يمنة ويسرة بمشقّة وكأنّ روحها تخرج منه، وهي تفرك كفيها وقد تركت السيكارة مشتعلة على حافّة الصحن ورمادها يتساقط عليه، وحين تمعّنتُ في كفيها وجدتُ إبهاميها غاصا في أصلهما وصارا أقصر وكذلك، انثنت أصابعها وقصرت، وجمدت ملامحها وصارت ذكوريّة وجحظت عيناها قليلاً، ففزعت لكنني ثبّت نفسي على أن أكمل المغامرة، وكان برود فرح يطمئنني، لكنْ فكرت لوهلة، من شدة ثباتها وتباسطها، أنها متآمرة مع فاطمة لاختطافي، أو تنويمي، نعم هكذا فكّرت! تكلمت فاطمة بصوت رجل وقالت: السلام عليكم، فرددنا وعليكم السلام ورحمة الله، قلت في نفسي هو الشيخ أحمد قد تلبّسها إذن، ورحت أسأله، كما قالت لي قبل الجلسة: سألته عن أنطون يوسف حنا دياب، وقال لي إنّ اسم الأم مطلوب وضروري، لكنني لم أكن أعرفه، وقلت له عن فتوح، وهيلين، وميسّر، وقصر الجوهري في حيّ العقبة، فكان يشير باتّجاه الغرب، ويقول فتوح هنا، بل لقد أكمل اسمها قائلاً فتوح العارفين هنا، ويقول بيت حنا نحو الشمال، امشي امشي، ثم ادخلي في سوق ملابس. قلت: السوق كلّه هنا يبيع الملابس. أمسكت فاطمة قلمًا وورقة، وراحت ترسم خريطة بثقة من دون أي خطأ، رسمت رسمة مهندس، والله، كنت مشغولة بشكل أصابعها المثنيّة، حين انتبهت بعدها إلى إتقان الرسم، كتبت حنّا، ثم نجمة، ثم كتبت هيلين، وصارت تبكي عندما قالت هيلين، وتضع يديها على قلبها وكأنها متألمة، أتّمت

رسم خريطة بأسهم واضحة. سألتها عن ميسّر، أشارت باتجاه الباب، باب بيتها، قلت: لم أفهم، ورسمت خريطة أخرى على ورقة أخرى، بالطريقة ذاتها، وفيها بابان متقابلان. بعدها توقفتْ، وبدأتْ تتضايق، وتحرّك رأسها بشدّة، حتى نفرت عروقها الزرقاء، وبدأ صوتها يتغير، وهي تقول: السلام عليكم ورحمة الله، وتعود إلينا تدريجيّاً، وأدركت أن الشيخ أحمد خرج منها للتو، وارتاحت ملامحها، وعادت رويداً رويداً، كما كانت بعد أن تحولت السيجارة إلى رماد. نظرت إلينا بذهول، وكأنها فوجئت بوجودنا. فرح كانت تتابع ذلك كأنها تتفرج على فيلم، وقالت لها: يعطيك العافية. استعادت وعيها بنا، وقالت: أهلين وسهلين.

نظرت إليها مستفهمة، فردت بسؤال: إن شاء الله أجابكم الشيخ؟ كأنها لم تعرف ما دار بيننا، ولم يكن بوجودها، قلت لها: ألم تسمعي! قالت: لا، قلت لها حصلنا على خريطتين، فهزّت رأسها معجبة، إذاً الحقوهما.

- هل ستقولين لنا شيئاً آخر يساعدنا؟
- قلت لك: الموضوع ليس بيدي، والله.

شعرت بصدقها، ولم يكن لدي رغبة في الجدال، قالت فرح: إذا احتجنا لشيء آخر هل تستقبلينا؟ فقالت: طبعاً، أي شيء ممكن أن أساعد به، فلن أقصّر. ناولتها خمسمئة ليرة، وكان مبلغاً مجزياً، وأعرف أن الأسعار أكثر، لكن كما قيل لي على حسب الشغل. قالت: *بردت القهوة وما شربتوها، هل نثّني؟* شكرناها، وقد رفضت بشكل قاطع أخذ المبلغ.

أردت الخروج بأسرع من رمح، وقتها فقط ضاق صدري عندما رأيت بنتاً في الحوش، شكلها غريب، قصيرة، وتبدو طفلة بشكل امرأة، واتضح لي أنّها مجدوبة، تمشي حول البحرة بشكل دائري، تنظر في

الأرض ورأسها إلى الأسفل، وفي يدها مجموعة من دبابيس (الشنغل) مشكولة بعضها ببعضها الآخر، تحرّكها وتخشخش بها، وهي ترتدي ثوباً بيتيّاً مورّداً باللونين الأحمر والأبيض، وشعرها أسود قصير يغطي رقبتها، ولها غرّة تعلو حاجبيها. لم تنظر إلينا، وكأنها سارحة في الملكوت، ولا ترى أحداً، وقالت فاطمة: مسكينة مريضة! فقلنا معاً: الله يشفيها، وخرجنا من البيت، وكنت طوال الوقت أقرأ المعوّذات، ولم يكن لدي دليل على أنني دخلت عالم الجنّ، وخرجت منه سالمة، سوى الورقتين اللتين في يدي. قالت فرح: نذهب الآن لتتبعهما، فمنطلقنا من هنا، لكنني قلت لها: سنؤجلها، فأنا متعبة، وأريد أن أرتّب أفكاري من جديد، لكن لا تتركيني وحدي، امكثي عندي الليلة، فأنا أخاف من الجنّ.

***

اتجهنا في اليوم التالي إلى الجامع الكبير، وتابعنا نحو سوق الجوخ، ولم نكن نميّز الأسواق بعضها من بعضها الآخر، إلاّ الأشهر منها، وكنتُ أشطرَ من فرح بالاستدلال، نتيجة شغفي بهذه الأمكنة منذ صغريّ، وتردّدي عليها، حتّى إنّني أفضّل دائماً أن أتعامل معها مثل سائحة، وأحافظ على انبهاري بكلّ حجرة، وكلّ حانوت، أو علبة موزاييك مصنوعة يدويّاً، أو شال مطرّز حتى لو كان مستورداً من تركيّا أو الصين. أتذكّر كيف كان أبي يصطحبني إلى محلّ التبّان للعطارة في السبع بحرات ومنه إلى هنا. كان يرفعني على كتفيه حين أتعب، وأرخي ساقيّ على جانبي صدره، وبعد رحيله لم تنقطع أمّي عن زيارة سوق المْدينة، تذهب إلى (السويقة) لجلب قلب لماكينة الكبّة، وأحياناً لشراء بعض الأغراض

المنزليّة من محلاّت الجملة، ونمرّ بسوق الزهراوي للماكياجات والإكسسوارات، وأتذكّر حين خطبت دالية ابنة خالتي، اشترت أمّي لي تاجاً من (الستراس) كي أضعه في العرس، وكنت أرى نفسي به مثل أميرة، مثل عرائس حلب الساحرات اللواتي يدخلن إلى مسرح (قهوة البرتقان) بثلاثة فساتين: أسود، وذهبيّ أو أزرق، وذلك قبل ظهورهنّ بالبدلة البيضاء النفّاشة والمرصّعة بالأحجار، التي تسهر عليها شكّاكات الخرز، أو الرشّاشات كما يُسمّينَ في حلب، في بيوت سيف الدولة، ونزلة الزبديّة، أو حارات تحت القلعة، أو أَغْيُر، ويتوارثن المهنة من الجدّات والأمّهات. أتذكّر ثوب أمّي الذهبي في خطبة دالية، وقد رسمت الرشّاشة صدره مستلهمة ثوب الفنّانة شادية، الذي ظهرت فيه في حفلة متلفزة، وهي تغنّي "إن راح منك ياعين"، كان مرشوشاً برسمة النهدين، بحجر الكريستال الثمين، وذلك قبل أن يسمع الناس في الشرق الأوسط كلّه بأحجار شواروفسكي النمساويّة التي أطلقت شعارها (الألماس للجميع).

وصلنا خان العلبيّة، وكنت أقول لفرح تخيّلي أنّ جزءاً من حكايات ألف ليلة وليلة التي ملأت الدنيا قد أُلّف هنا، وأنّ حنّا عاش في هذا البيت، واشترى أغراضه من هذه الحوانيت. كنا نحكي عن حنّا كأنّه صاحبنا أو واحد من عائلتنا، وكنت أتعاطف مع موهبته وإمكاناته التي وجدتُها أكبر من محيطه، وقد فهمت جيّداً طبيعة أزمة الهويّة التي عاش فيها وتعقيداتها، في ظلّ إمبراطويّة يرى نفسه فيها من رعايا الدرجة الثالثة، الذين عليهم أن يلتزموا لباساً محدّداً ولوناً محدّداً، ويدفعوا ضرائب مختلفة عن التي يدفعها غيرهم، وإن كان غير الأتراك من المسلمين في

هذه البلاد آنذاك عانوا من التهميش والتمييز أيضاً تحت تلك السلطة، فإنّ وعي حنّا فاقم إشكاليّته، وجعله يهرب إلى الخيال.

تعاطفت مع رغبته في الحكي، والتعلّم، وتأليف الحكايات، ومع خياله الخلّاق، الذي كان أكبر من موقعه الاجتماعيّ، وكان الدكتور حسين يقول لي: إنّ أفضل طريقة للبحث هي تمثّل التاريخ، أي أن نعيش مع الناس ثمّ نتقدهم. بعد أن تتبّعنا الخريطة، وجدنا أنّها أعادتنا إلى البيت المجاور لبيت فاطمة، لكن من الباب الشماليّ، والذي هو بيت لعائلة أخرى قال لنا أحد أفرادها إنّه كان في السابق بيتاً لأحد أعيان القرن الثامن عشر، والذي كان شهبندر التجّار بحسابات ذلك الزمان. أمّا الخريطة الثانية المتعلّقة بهيلين، فوضعتنا في قلب خان العلبيّة، وإذا صدّقْنا الخريطة، فهذا يعني أنّ فتوح العارفين كانت تعيش في البيت الذي يجاور بيت فاطمة، وأنّ هيلين تعيش في خان العلبيّة حيث كان يعيش قنصل إيطاليا، جاراً لحنّا دياب!

قالت لي فرح: لماذا لم تفكّري بالمقابر، فلتعثري على قبره، قلت لها إنّني فكرت، لكنّ مجموعة الزلازل التي وقعت خلال مئة سنة، لاسيّما زلزال العام 1822 قلبت كلّ شيء، فثنّتْ على كلامي. كانت فرح باحثة جادّة وذكيّة، وكانت تعدّ رسالتها للدكتوراه عن السهروردي، وكانت المراجع والآثار ماثلة بين يديها، ولم تكن تائهة مثلي، فأنا أبحث عن اسم ذُكر مرّة في تسجيل صوتيّ لرجل ميّت، حدَّثتْه عنه أستاذتُه الروسيّة، التي تفحّصت في باريس مخطوطة تضمّ اسمه. وكانت لديّ رغبة ملحّة في أن أذهب إلى هناك، وأطالع تلك المخطوطة، لكنّني تركت باريس، التي كان من المستحيل عليّ أن أصلها في ذلك الوقت، لتكون ورقة أخيرة، ليس بسبب صعوبة السفر وتكلفته والحصول على فيزا بالنسبة لبنت سوريّة مثلي، بل بسبب الإشارة

القديمة التي تتعلّق بمنعي من السفر منذ أيّام مقتل والدي، لم يفطن أحدّ لأن يصحّحها على جوازي القديم منذ كنت طفلة، ولم أحتج حتّى اللحظة لتصحيحها، وقد نسيناها أنا وأمّي تماماً لأنّنا لا نريد أن نقلق حيالها. أمّي سوّت وضعها، بزواجها منذ فترة، وبقيتُ عالقة لم يتذكّر وضعي أحد. كانت فرح تقول: إنّ دوافعي تجاه غسّان سببها رغبتي في أن يأخذني إلى باريس، ويساعدني في البحث عن المخطوطة وتصويرها، قلت لها لست براغماتيّة لهذه الدرجة، ولن يكون لأيّ أحد يد فضلى على عملي: انظري أنا أفضّل أن أتعامل مع الجنّ على أن يكون لبشر بصمة على مشروع حياتي، وبعد أنهي تفاصيل مشروعي، إن شاء الله، إن لم توفدني الجامعة لمتابعة البحث، لخلفيّة سياسيّة، سأتقدّم إلى السفارة الفرنسيّة بطلب منحة، أو إلى جامعة باريس ذاتها.

تتركني فرح، وتذهب إلى بيتها المليء بالناس والحكايات، وأعود إلى بيتي ووحشتي، وأستغرب كيف أهون على غسّان، فيقاطعني بقسوة، وهو يعلم أن ليس لي أحد غيره في حلب، وهل من المعقول أن يحمل هذا الغضب لمجرّد أنّني صددته عن جسدي، إن كان ذلك حقيقيّاً، فهو غير منطقيّ، لكن من يجبر الحقيقة على أن تتوافق مع المنطق! تذكّرت أحداثاً كثيرة حدثت خلال الأشهر الماضية، تدلّ على أنّي أعني له الكثير الكثير. لقد وثق بي حتّى أعطاني نسخة مصدقة من شهادته ومعادلتها، وقال إنّه من الأفضل أن تكون معي في حال فقد نسخه، أو احتاجها لمعاملة ما وهو خارج البلد. كنت حين أتعب من العمل أتّصل به في المكتب، فيردّ بلهفة، ودائماً يكون مرحّباً، وصوته ممتلئ بالدفء والغبطة. كان طوال الوقت هادئاً، لم يحتدّ ولا لمرّة واحدة، ولم أكن أعرف أنّ هناك رجالاً يحافظون على

هدوئهم طوال الوقت، وكانت نبرات الشغف والفرح حاضرة في كلّ كلمة يقولها، وصوته يتهدّج وكأنه خارج من رواية رومانسيّة قديمة، وكان مطواعاً، وكلمتي عنده لا تصير اثنتين: ألو غسّان!

- روحي!
- *مالّة،*
- *أجي آخدك؟*
- *وين؟*
- *وين بتريدي؟ نتغدّى بأوتيل أمير؟ نتعشى بوانيس؟ نادي حلب، وضاح شبلي يغني هناك مساءات السبت.*

حين كنت أذهب إلى أيّ مكان مكتئبة من أفكاري التي لا أستطيع أن أشرحها له، أعرف أنّه سيجدني. يسأل فرح، ويتوقّع، ويفكّر، والمهم أنّه لا يتركني لأوهامي، كان مستعداً ليقطع في الحال أيّ شكّ، أو فكرة سلبية قد تراودني. كنت أحدّق فيه وهو ينظر في مخطّطاته، ويضع نظارة طبية بإطار أسود غليظ يشبه بها إيف سان لوران كما ظهر مرّة على غلاف مجلة فيروز، وأقول:

نيالها حبيبتك! يردّ فوراً: أنت حبيبتي. لا يلاوعني كثيراً، ولا يصمت، بل يردّ عليّ دائماً باطمئنان، وأنا أقول: ليس لديه ألاعيب وخطط، ربما ليس لديه وقت، وربما لأنّه ناضج، وقد شبع من ترّهات المراهقين، وعمليات التشويق التي يمارسها الشباب على حبيباتهم، ليصرن طوع أياديهم، والتي تجعل البنت تشعر بأنّها كلب يحتاج إلى ترويض، أو تربية، وكانت تلك عبارات دارجة بين الشباب آنذاك: *والله لأ ربّيها، أو والله لأ ربيه، أو (أنا بفرجيها)*، وغسّان لم يكن يريني سوى الحب، ويهدّدني بالحب فقط حتى

إنّني حين التقيت صديقاتي مارلين، وسلوى، ومعنا فرح، وجلسنا في كوفي شوب (ساج) أمام الحديقة العامّة، قلن: إنّ الرجال الناضجين يحبّون بهذه الطريقة، إنّهم مباشرون وواضحون، والحبّ لديهم يعني الأمان والاكتفاء الجسديّ والاستقرار للالتفات للعمل، وتكوين العائلة، وليس لنظريّات امرئ القيس: **أغرّك مني أن حبّك قاتلي/ وأنّك مهما تأمري القلب يفعل**، وكنّا في ذلك الزمن أيضًا نَغرق في أشعار المتصوفة، ونسمع مواويل الهجر والتعذيب من أديب الدايخ، ومحمّد خيري، وأنا أقول: إنهنّ أخبر منّي برجال حلب، فهم إخوتهم، وآباؤهم، وأفراد عائلاتهم.

طالت غيبة غسّان عنّي، وكنت كلّ يوم أشتاق له أكثر، وقد يئست بنسبة عالية من عودته، فالهجر ولو كان مؤقّتًا، هو باب للنسيان والتعوّد، وكانت فرح تقول: لقد عرف دواكِ، كنت تتدلّلين عليه، *والكلب ما بحب إلاّ خنّاقه*، وتضحك، فأستنكر: أنا كلب! *ممكن تحسني ألفاظك!*

كنت أستأنس بوجودها هي الأخرى، ولا أريد أن تتركني لحظة، وأسألها مئة مرّة في اليوم، هل سيرجع؟ وتجيبُني سيرجع. كيف تعرفين ذلك؟ وتجلس لتشرح لي مطوّلاً:

ما الذي يضطرّه ليبدي استعداده للزواج بك، ويريد مقابلة أهلك! يترك عمله ويذهب معك، *رجّال مقدّر، ومية بنت تتمنّاه!* وكلامها بدلاً من أن يطفئ ناري يشعلها من جديد، وكأنّها تزيّنه في عينيّ أكثر فأكثر. أقول لها: طوّل، خلص لم يعد يريدني، فتقول: كان سيقول لك ذلك، سيتّصل أو يطلب مقابلتك، ويقول: يا بنت الحلال، خلص، كلّ واحد من طريق. ثمّ تقول: اصبري لشهر، شهر واحد فقط، وبعدها يحلّها ألف حلّال، وكان ما قالت فرح.

تفّاحة وقنينة

ذهبت لأقابل السيّد زكريا القزّاز، وهو نسّابة، وذو علم واسع بتاريخ المنطقة وأهلها. يملك مكتبًا تجاريًّا في خان العلبيّة، وقد خبّرني عنه الدكتور حسين، وقال إنّه يعمل في ترميم المخطوطات وتجارتها، ويسكن في محلّة العقبة، وحين سألته عن الصلة بينه وبين غسّان فوجئت بأنّه عمّه الأصغر شقيق والده، وما أثار استغرابي أنّ غسّان لم يذكر لي عنه شيئًا، وهو يعرف مدى حرصي على الوصول إلى أيّة معلومة عن الناس هناك. ذهبت إليه فوجدته ستينيًّا أنيقًا له هيئة أهل حلب الأصلاء، ببشاشته وكرم ضيافته، ولا يشبه غسّان في ملامحه، إذ كان أشقر بعينين ملوّنتين، وجسد فارع. حدّثني عن مشروعه في أرشفة الصور التي تحتفظ بها عائلات حلب في الوطن والمهجر، ليتتبّع من خلالها تحوّلات المدينة عبر وجوه البشر، ولباسهم، والفضاءات التي تلتقط فيها صورهم، منذ القرن التاسع عشر، وقال إنّ معه متطّوعين من الشباب يعملون بروح متوقّدة لخدمة تاريخ مدينتهم. حين سألته عن حنّا دياب أكّد لي أنه حين راجع سجلات محاكم الطوائف، وجد اسم هذه العائلة، وكان يظنّ أنّ عائلة دياب من المسلمين فقط، لكنّه عرف أنهم موارنة، وأعطاني أرقام السجلاّت التي يمكن لي أن أجد فيها معلومات تفيدني، وقال إنّه بإمكانه تسهيل عملي عبر توصية منه لمدير السجل، وحين سألته عن الحكايات،

قال إنّه يعرفها، وإنّ النساء منذ طفولته كنّ يحكينها لأطفالهنّ، وقال يمكن لغسّان أن يأخذني لمقابلة جدّته التي تعرف الكثير من حكايات الخان.

أذهلني حين قال إنّه يعرف علاقتي بغسّان، الذي لم يذكر لي شيئاً لا عن عمّه ولا عن جدّته لأمّه التي ذكرها السيّد زكريّا. قلت له متشكّكة إذن غسّان حكى لك حكايتي!

- طبعاً يا ابنتي، كلّنا تأثّرنا حين عرفنا بوجودك، لقد كان والدك الدكتور عابد رحمه الله صديقاً مقرّباً جدّاً من المرحوم عبد الرحمن الأخ الأكبر لغسّان، درسا معاً في (المأمون)، وكان والدك يأتي دائماً إلى بيت أخي لزيارة عبد الرحمن، يقضيان الوقت في الدراسة والقراءة. عندهم مكتبة كبيرة، وكان والدك يبحث بين كتبها ويقرأ. كان شابّاً ذكيّاً يشع نُور المعرفة من عينيه، قتلوه في ريعان شبابه مثلما قتلوا عبد الرحمن.
- كيف قتل عبد الرحمن؟!
- اعتقل في أحداث حيّ المشارقة، ولم نعرف بعد ذلك له أثراً. سألنا كثيراً وبحثنا، وخرج عشرات الذين عرفناهم، ولم نعثر له على أثر.

قلت بعفويّة، وأنا ما أزال في ذهولي: لم لم تسألوا فاطمة؟ ابتسم بهدوء يحمل معاني عميقة للأسى، وقال: سألناها، وقد رأته ميتاً.

- ماذا تذكر أيضاً عن أبي؟
- أذكر كيف كان يغوص في كتاب آل القزّاز، كتاب العائلة. كان في بيت أخي، يعني أهل غسّان، كتاب كبير يشبه المراجع

التاريخية، مستطيل ومجلّد بجلد أسود، ومطبوع بطباعة الحجر، فيه تاريخ العائلة، نسبها ورجالاتها، وسيرة عملهم في الحرير منذ ما يزيد على مئتي سنة. كانوا أثرياء، ومنهم متعلّمون، ومنهم متصوّفة، ولحسن القزّاز أحد أجدادنا حكاية معروفة مع بنت شهبندر التجّار، كانت مدوّنة في الكتاب، وكان أبوك يفتح الكتاب، ويغرق في صفحاته.

- وأين الكتاب الآن؟
- هيييي، ذهب الكتاب منذ أكثر من عشرين سنة، حين داهم الأمن بيت أخي، حيث أفرغوا المكتبة وطلبوا من أهل البيت أن يرموا الكتب في وجاق النار لإحراقها. كان غسّان صغيراً، وأجبروه على رمي كتبه في النار أيضاً.

حاولت ألاّ أصدّق ما سمعته من العمّ زكريا، تمنيت لو توقّف كلّ شيء قبل اللحظة التي حدّثني فيها عن ذلك كلّه، لم أصدّق أنّ غسّان يعرفني هذه المعرفة كلّها، وأنّ ما بيننا بعيد جدّاً، ومؤلم، وعميق، ويدعو إلى الشفقة، وكان عليه أن يجمعنا حتّى النهاية. لماذا لم يكن غسّان صادقاً معي؟ لماذا خبّأ عنّي ذلك التاريخ كلّه، ولماذا يتركني لمرارة الزمان مرّة ثانية، وكان بيده أن يسندني ويحميني!

اتجهت مقهورة نحو القلعة، كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر، كلّمت فرح من كابينة الهاتف أمام السرايا، وطلبت إليها أن تلحق بي إلى السطح، كنّا اعتدنا ذلك المشوار كلّما تضيق بنا الدنيا، على الرغم من أنّ دنيا حلب لا تضيق لا بأهلها، ولا بمن يلوذ بها عادة. كنت بحاجة لأن أكون في مكان لم يجمعني بغسّان، ودخلت. أبرزت بطاقة طلبة الدراسات

العليا، وصعدت الأدراج الواسعة بعد الباب الرئيس، وقفت كالعادة أمام مقام الخضر عليه السلام دقيقة قرأت الفاتحة، وتخففت من ثقل دموعي، ومضيت وكانت درجة الحرارة أقل بعشر درجات منها خارج القلعة، وكانت الرطوبة مع العتمة في الداخل، التي يبثّها الحجر الرماديّ، مؤنسةً، مع نسمات الهواء التي تنسرب من المناور المحيطة والفصلان، والفتحات العالية المشقوقة في حجارة السور للمراقبة وتموقع الرمّاحين. خرجت إلى الفضاء المكشوف في الأعلى، حيث الأخضر الذي ينمو منذ قديم الزمان، لاعمر له، يحيا ويموت بلا تدخّل من البشر، يتفتّق من الفجاج والشقوق الرطبة بين مكعّبات الحجر، في أشكال عشوائيّة تمنح شعوراً بالزمان. إذا التففت يميناً ستكون أمامي قاعة العرش، وإذا تابعت سيري سيكون على يميني (حبس الدمّ) سجن المعتقلين المناوئين للسلاطين والأمراء، والذي يريد المرء اجتيازه سريعاً، ولو كان مجرّد أطلال. أصعد درجات عريضة ومريحة، وأفكر كيف لا يتعب المرء من صعودها، وكيف تصعد وكأنك لا تصعد، بل تمشي على غيوم، وعلى اليسار سيكون المسجد الكبير، بابه مفتوح للعابرين، وفي باحته شجرة صنوبر حلبيّ. أصل إلى أعلى التلّة، وأقف على الإفريز، وأنظر إلى المدينة تمتد على السفوح بمنتهى الجلال، لا شيء يعطّل حركة البشر فيها، عامرة ببيوت أهلها، وجوامعها، وتبدو أدخنة المطاعم والمصانع في البعيد، والقباب تلمع، والمآذن ترتفع مطمئنة لوجودها واستمرار طقوسها لمئات السنين، وشجر أخضر يظهر ويغيب بين مساحة وأخرى، ويشير إلى وجود الحدائق والمتنزّهات، والغيوم البيضاء القليلة تتمشّى فوق بيت (الكواكبي)، وأمامي الغرفة الخضراء لزاوية الشيخ النسيمي. لم

يخفّف ذلك الجلال كلّه من الثقل في قلبي، ثقل يجعلني أنوء بحمله، وتنتهي تأملاتي لأدخل إلى الكافتيريا. يرحّب بي صاحبها حيث بعض السياح يتناولون المرطّبات في تلك القاعة الواسعة بقبابها العالية. أجلس إلى طاولة مفروشة بغطاء من الكتّان التقليدي الأحمر والأسود، الذي يبيعونه في المحلات حول القلعة، على كرسيّ من كراسي الخيزران العالية التي تلائم الثيمة السياحيّة، وثريّات النحاس المهيبة بسلاسل الخرز الذهبيّ والأحمر تتدلّى من السقف، والنوافذ مشرعة إلى الغرب، والنسمات عذبة، وكان متعهدا الكافتيريا شقيقين لهما السحنة نفسها، نحيلين بشعور بنيّة مشقرّة، وشوارب عثمانيّة كثيفة ومعقوفة نحو الأعلى، يتبادلان الدور، الأيام أو الساعات، يدخنان الأرجيلة بالتنباك العجميّ، ويشربان الشاي على إحدى الطاولات، ولا تقدم الكافتيريا طعاماً، مشاريب فقط، وهي متجاورة مع متحف القلعة الذي يكون متاحاً دائماً للسيّاح والزائرين. كان صوت ميّادة الحنّاوي يملأ القاعة بشجن، وهي تشدو بـ (نعمة النسيان): ماقدرش أحبّ غيرك، ولا أقدر أحبّ تاني...

جلست إلى طاولتي المعتادة، وطلبت أرجيلة نعناع وقهوة سادة، وقد لاحظ النادل دموعي، فأحضر لي علبة مناديل، وتعلّلت بأنّي مشغولة بأوراقي، وأشحت بعينيّ عنه. دوّنت المعلومات الغريبة التي تلقّفتها، واستبشرت بقصّة حسن القزّاز، وأضفتها إلى نصّي، وبقيت أعمل، وانتبهت إلى أنّني قضيت حوالي الساعتين منكبّة، وكانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغرب، والقلعة تغلق عند السادسة، كنت قد تركتُ أرجيلتي، فطلبت إلى النادل تجديد رأسها، وكانت ميّادة الحنّاوي تعيد أغنيتها، وتقول: "*يا تجيني يا تاخدني معاك، يا تعلّمني ازاي أنساك*"! وانتبهت لأوّل مرّة لمعنى

الخيارات الثلاثة، ورفعت رأسي باتجاه الباب ورأيته يدخل بثقة، ويده في جيبه، والأخرى تحمل مفاتيحه، ولم يبذل جهداً ليجدني، وبقيت في مكاني جالسة، وأقبل باتّجاهي بثبات، وشدّني من جلستي وعانقني غير آبه بأحد، وكأنّ شيئاً من خصامنا لم يكن، وألقى كلماته في أذني: كندة لن تضيعي منّي ثانية، لن أدعك تضيعين مني مرّة ثانية، وقال الكلمة الأخيرة بإمالة حلبيّة عميقة، وكنت أنصهر بين ذراعيه، وشعرت بدوار يأخذ رأسي وعينيّ، وبكيت بنشيج خافت، وبدأت سريعاً أطرح أسئلتي ليس عن غيابه، لكن عن تغييبه معرفته بأبي، وبمن أكون. لكنّه كشف لي الارتباط بينهما من حيث لم أحتسب، قال إنّه لمّا خرج من بيتي تلك الساعة عرف أنني ابنة الدكتور عابد الأشقر، لأنّه ظنّ أنّ اسم أبي هو محمّد، وهو غالباً الاسم الذي أعرّف به، ولا أقوله مركّباً إلاّ نادراً، ولأنّه لم يسمع منّي حكاية مقتله، ولم يخطر ذلك في باله إلاّ عندما رأى صورة أبي في شبابه، الموضوعة على رفّ الموقد، وحين سمع بكلمة (عابد)، كان عليه أن يستوعب ما حصل، وقتها تكلّم مع عمّه زكريا، وهو الوحيد من العائلة الذي يمكن أن يتذكّر أيّام الثمانينيّات.

فسّر لي كلّ شيء بعجالة، وأنا ما زلتُ على صدره أنشج، وهو يردّد: أنت أختي، أنت حبيبتي، أنت أمانة في عنقي، وصاحب المقهى يحاول أن يغضّ البصر، وشخصان على طاولة حولنا ينتظران نهاية المشهد. ثمّ قال لي: *ريحتك دخّان!* فضحكت، وفككنا الاشتباك وجلس أمامي، وأخذ نفساً عميقاً وارتاح: *إييه، عم بتأركلي كمان! يعني آخدة راحتك على الآخر ومبسوطة بغيابي!* هززت رأسي: أبداً، ونسيت عبارات العتاب التي رتّبتُ لأقولها، وأفاعيل الانتقام التي نويت فعلها، وأساليب التعذيب التي خططت لها.

عرفت أنّ فرح قالت له: ستجدها في القلعة. سأبقى ممتنّة لها أن أعادت إليّ روحي! واكتشفت أنّ غسّان هو كلّ شيء، ولم أكن أدري، وأنّني غارقة في حبّه، ولن أتركه يرحل عنّي، وسأقول له الآن إنّنا سنتزوّج في أيلول القادم، وثلاثة أشهر تكفينا لنرتّب كلّ شيء، وقبل أن أفعل، قام إلى الكرسيّ الذي بجانبي، ورفع خصل شعري وراء رقبتي: كندة، تعرفين أنّني لا أستطع مقاومتك، ماذا تريدين أن أفعل، وأنت بهذا الجمال، وأنا أحبّك، والله أحبّك، اتّصلي بأمّك، قولي لها سنتزوّج يوم الخميس، أو اليوم... في أي وقت تريدين، أرجوك، وأمسك بيديّ وبدأ يقبّلهما برجاء وبعشق لا يمكن أن تصفه الصور أو الكلمات. كنت أشعر بصدق كلّ كلمة يقولها، فقد كان غسّان عاشقاً، وأنا شعرت بنار هذا العشق مراراً، ولم يكن عسيراً عليه أن يوصل في لحظات عديدة دفق الحبّ إليّ، فأضحك ملء قلبي، وتدمع عيناي من الغبطة في كثير من الأحيان. وحين أنهينا العتاب، والشكوى، والبوح، قمنا وكانت القلعة ستغلق أبوابها، فوقفنا على شرفتها، والتصقت بغسّان، وظللنا ننظر إلى حارة الكواكبي، وجامع القرناصيّة الذي بدأ يشعل أضواءه، وكانت تلك اللحظة واحدة من أحلامي: أن يحتضنني الرجل الذي أحبّه، وتكون الدنيا أمامنا على مدّ النظر، وكان لهذا المشهد أن يختزل حياتي كلّها.

طلبت إلى غسّان أن يأخذني إلى بيت جده، الذي يقع قريباً جدّاً من الخان، ولم أكن أعرف أن جدّته ما تزال على قيد الحياة، إلا من كلام عمّه زكريا القزاز. أُدرك سبب عدم تحمّسه لهذه الزيارة، إذ قال إنّنا سنتعرّف بالعائلة كلّها حالما تتمّ خطبتنا، إذ ليس في قاموسهم الاجتماعيّ أن يدخل بي عليهم هكذا بلا ارتباط رسميّ، ولاسيّما أنّ خالاته اللواتي جئن في زيارة من السعودية مع بناتهنّ وأحفادهنّ يقمن الآن في البيت

الكبير، لكنّه طاوعني بعد أن قلت له: أخبرهم بأنّني باحثة في التراث، ولا داعي للشرح أكثر، فاستجاب.

حين دخلت بيت جدّه قفزت في الزمن. لا شكّ في أنّهم لا ينتمون إلى هذا العالم. كان الوقت ظهراً، وكانوا قد عتّموا الغرفة الواسعة، أغلقوا الأباجورات، التي لا تكون عادة على نوافذ البيوت العتيقة ، وتركوا الزجاج مفتوحاً، وكانت ثمّة نسمات قادمة من الحوش تتحرّك لها ستائر الأورغانزا إلى فوق قليلاً، وكانت مروحة رماديّة بمحوّل، تبدو وكأنها تعود إلى زمن السبعينّات، لا يمكن العثور على شبيهة لها اليوم، قد وضعت على سطح مدفأة مازوت، وهي تدور بصوت، لكنّه غير مزعج، فيدفع هواؤها الستائر باتجاه معاكس.

الأطفال قد تمدّدوا على فرش تَصْطَفُّ على أرض البلاط القديم الملوّن واللامع من شدّة النظافة، بشكل صفوف بعضهم إلى جانب بعض، أجساد كثيرة، أكثر من عشرة، ربّما خمسة عشر طفلاً بثياب قطنيّة شورتات، وتي شيرتات ملوّنة، وفانيلات بيضاء، مع سراويل داخليّة محزّزة، وبينهم تستلقي سيّدات، بأثواب بيتيّة طويلة، منهنّ من تضع ساعدها على جبينها، وقد أغمضت عينيها فبدت نائمة، وأخرى استلقت على بطنها، ويداها تحت الوسادة، وقد نفرت مؤخّرتها العريضة والمقبّبة تحت ثوبها القطني، بَدَونَ خمسينيّات وستينيّات أو أقلّ، شعور قصيرة، وأخرى طويلة، وفيهنّ الجدّة، التي كانت تروي الحكاية، مغمضة عينيها، والكلّ يستمع بصمت، الأطفال جميعاً أغمضوا عيونهم، وبدا أنّهم انتقلوا إلى عالم الحكاية... لم يتحرّك أحد بدخولي خلف غسّان، هي دقيقة أو دقيقتان، استطعت من خلالهما أن ألمح المشهد، فأحتفظ به في ذاكرتي، لأنّ غسّان أغلق الباب عليهم، وقال:

إنّها تحاول أن تجعل أحفادها ينامون نومة الظهر، كانت نانا تقول: *"كان في كتكتان، لاقى له طابة خيطان، طفّ على بيت الجيران، لاقاهم عم بساووا نان، والنان بالتنور، والتّنور بدّو حطب، والحطب ببيت الجبل، وبيت الجبل بدّو مفتاح، والمفتاح مع عمّي صلاح، وعمّي صلاح بالبستان، ما بيجي ليجيب معه حمل قناني وحمل تفّاح، تفاحة وقنينة لصبا، وتفاحة وقنينة لمّيادة، وتفّاحة وقنينة لحسن، وتفاحة منقورة وقنينة مكسورة لحمودة"*، ويبدو أنّ حمودة هو وحده الذي يخالف الأوامر فلا ينام.

قتلتني هذه الافتتاحيّة، كان بابا يسردها عليّ في بداية كلّ حكاية يحكيها، سألت غسّان:

ماذا تقول جدّتك؟

- تحكي حكاية لأحفاد بناتها، كانت تحكي لنا الكثير من الحكايات أيضًا؟
- فهمت، أية حكاية؟
- حكاييييية (عنزة عنيزيّة!)، ألا تعرفينها؟
- لا، لا أعرفها، لكن أعرف (تفّاحة وقنينة).
- نعم، هذه المقدّمة تبدأ بها الحكايات كلّها غالبًا.
- طيّب ما هي حكاية (عنزة عنيزيّة)؟
- (عنزة العنيزيّة أمّ قرون حديديّة) حكاية شعبيّة، ومعروفة من قديم الزمان!
- هل يمكنكَ أن تحكيها لي؟

شدّني غسّان من يدي، وألصقني بجنبه، ونحن نصعد نحو الليوان، وهو يقول: سأحكيها، سأحكيها لك، لكن قبل النوم! شربنا القهوة،

بانتظار أن تخرج إلينا نانا بعد قيلولتها، وتناولنا مربّى الباذنجان المحشي بالجوز والقرفة، وكان لذيذاً جدّاً، حيث الباذنجانة صغيرة بحجم الإصبع، وتقرش قرشاً من جودة تكليسها، وكانت قد قدّمت لنا الضيافة واحدة من بنات الخالات الكثر كما فهمت من غسّان، وإذ سألته عن أمّه قال بأنّها تأتي بعد المغرب عادة لتقضي وقتاً بوجود أخواتها المغتربات، لكنّها أيضاً مشغولة بأبنائها وأحفادها، وأنّ أمامي وقتاً طويلاً سأتعرّف فيه إلى العائلة، وسأملّ منهم على حدّ قوله. ولا أعرف إن كان قدري الذي جعلني أفتح فمي لأسأل غسّان ذلك السؤال الذي سيغيّر حياتي إلى الأبد، وكأنّ الأحاديث انتهت في العالم، أو انّني أسعى وراء النكد ولا أجدني أستحقّ الهناء، وكان السؤال يرجوني ألاّ أطلقه من بين شفتيّ، ولكن الكلمات التي تخرج من أفواهنا لا تعود إليها أبداً:

غسّان، لماذ لم تتزوّج؟ عشتَ في باريس، وعملتَ بعد تخرّجك في الجامعة لخمس سنوات وأكثر، وكان وضعك مستقرّاً! نظر في عينيّ بجديّة، ولمعة مريبة تنطلق من بؤبؤه الأيسر، أمسك معصميّ بقوّة ووضعهما أمامه، كأنّه يثبّتني كي لا أهرب، وقال بحزم: أنا متزوّج فعلاً، كنت متزوّجاً ولديّ ابن.

انبجس شيء في دماغي، اهتزّ له جسدي، وشعرت بنار لطمة على وجهي لم أتحسّب لها، وتمالكت نفسي من السقوط بالطبع، لكن الدماء كانت تنطلق من محجري عينيّ، وأنفاسي حارّة وضيّقة، وكنت أترنّح، فثبّتني، لكنّني سحبت يدي من يديه، وقلت وأنا أكزّ على أسناني كي لا تنطلق النيران من فمي كتنين، وكان ينتظر أن أصفعه ربّما:

- لماذا خدعتني؟

- لم أخدعك.
- لقد خدعتني.
- لا تستعملي كلمات كبيرة، لم أخدعك.

وصار صوتي يعلو ويرتجف:

- لقد خدعتني.
- لم أخدعك، لم أخدعك، أنا فقط أخّرت الحقيقة، كنت سأقول لك.
- لماذا أخّرتها؟
- لأنّني أحبّك!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أردت هنا حقّاً أن أصفعه، وهو يتابع: كما ترين، لم آخذ فرصة لأرتّب كلامي، الأحداث توالت شيئاً فشيئاً، ومازلنا إلى اليوم نكتشف بعضنا البعض... لكنني تركته ورحت أبحث عن الباب، ولا أعرف كيف وجدته، ومضيت إلى الطريق بسرعة، أريد أن أهرب منه، وحقيبتي المعلّقة على كتفي وفيها أوراقي تعجز عن اللحاق بي، لكنّه أمسكني: كندة، الناس ينظرون إلينا. كنت أريد أن أقول له فلتحترق أنت والناس، والمكان والتاريخ الذي جمعنا، لكنني لم أعرف، كنت أبتلع النار بدلاً من أن أنفثها.

- *خلينا نتفاهم يا كندة...*

شعرت بأنه غريب عني وبعيد، بقدر ما كان قبل دقائق حميماً وقريباً. وحين وصلت رأس الحارة، التفت إليه وقلت: هذا فراق بيني وبينك يا غسّان، وشعرت بالغبن واستصغرت نفسي، وكان يلحق بي، وكنت قد هسترت فعلاً، وتجلّى لي تاريخي الصغير، الذي ليس فيه من

الأفراح سوى شيء قليل لا أذكره، وأذكر الفقد والغياب والطاعة والسكوت، وأردت أن أقطع الشارع العامّ ذاهلة، فجرّني غسّان محكماً قبضته، وكان الناس من حولنا كثرًا، ينظرون إلينا بفضول، ومضيت معه وهو يمسك بيدي ويجرّني مثل طفلة حَرون يجرّها والدها في السوق معرضاً عن تلبية طلبها، دفعني باتّجاه سيّرته، وأقفل عليّ بابها، وكنت قد بدأت بالعويل. توقّفت عن الكلام، وكان مضطرباً جدّاً، لعلّه كان خائفاً منّي، يقود بعصبيّة في شارع السبع بحرات باتّجاه باب النصر، ويحاول أن يفهّمني، لكنّ أبواب الفهم أغلقت عندي بأمرٍ واحدٍ أحد: يا حبيبتي، يا روحي، كنت سأخبرك، لم أقل لك منذ البداية لأنني حريص على أن أبقى معك، أريد أن تتعرّفي إليّ قبل أن تعرفي ظروفي. لو قلت لك إنني متزوج، وأب منذ البداية، ما حصلنا على فرصة اللقاء، كنت صرفت النظر عن الارتباط بي من دون منحي أية فرصة، الآن وقد عرفتني، ستفكّرين بالأمر، وستجدين الموضوع بسيطاً. لن يؤثّر وضعي على حياتنا، كأنّه لم يكن، صدّقيني يا كندة، كنت متزوّجاً، وانتهى الأمر.

صرت أَشْتُمه في داخلي، وأنا أمسح دموعي، وأنفي بمنديل سحبته من جيب السيارة، وفضّلت الصمت، قبل أن أقول أيّة كلمة إضافية، وتركت نشيجي يعبّر عن غليان قلبي، وهو يحدّثني عن جولين، زوجته الفرنسيّة.

- أين هي الآن؟
- في ليون. رفضت قطعيّاً الانتقال إلى حلب، وترك عملها وحياتها.
- ما هو عملُها؟

- تعمل في حقل مزادات القطع النفيسة، وقد درست تاريخ الفنّ.

كان يجيبني، وكأنّني أستاذ يمتحن طالبه:

- لهذا السبب لم تُرد أن ألتقي أحدًا من أهلك؟

- لا، أنا أيضًا لم ألتق أحدًا من أهلك!

عرفت أنّ ابنه ريّان في المدرسة، أو رايان كما تفضّل أمّه أن تسمّيه، ويبلغ من العمر ستَّ سنوات، يعني في العمر ذاته الذي تركني فيه أبي!

- هل انقطعت علاقتكما تمامًا؟

- نتواصل من أجل رايان، ما تزال هناك متعلّقات مشتركة.

- كيف تقول لن يؤثّر ذلك على حياتنا، وبينكما ولد ومتعلّقات؟

يبدو أنّ هذا السؤال فاجأه، وليس لديه جواب موضوعيّ، وغسّان يحرص دائمًا على مصداقيّته، ولا يعطي وعوداً لا يستطيع الوفاء بها، ممّا أغاظني أكثر، ودخلت في نوبة جديدة من النشيج. وحين وصلت حديقة السبيل، قلت له: *نزّلني هون.*

- سأوصلك إلى البيت، أريد أن أطمئن عليك.

رفعت صوتي: سأشتري أغراضًا من الدكان.

توقّف، وتناولت حقيبتي، وصفقت الباب خلفي، ولم أسمع سيّارته تتحرّك.

* * *

استلقيت على سريري، وأنا أفكّر بأن أغضّ النظر عن التاريخ الذي جمع غسّان بامرأة أخرى، والذكريات والحبّ الذي لا شكّ كان عاصفًا، لكن كيف أتحرّر من الحاضر والمستقبل! وقرّرت ألاّ أتّخذ أيّ قرار،

مهما كنت متأكّدة منه، فلا بدّ من الصمت والتفكير بهدوء، والقرار يأتي لاحقاً، ثم أتذكّر قوله: انتهى الأمر! الأمر لا ينتهي أبداً، أيّ أمر يبدأ لا ينتهي مثلما بدأ بلا إضافات، أو خسائر، أو تغييرات، لقد جاء إلى المرأة الخطأ، المرأة التي لا يمكن أن ترتبط برجل ترك ابنه أيّاً كان السبب أو الخلفيّات أو الظرف، وأيّاً كانت الأم. أنا التي أعرف تماماً معنى أن يُترك الأبناء بلا آباء، ولن أغفر له أبداً.

استيقظت في حوالي العاشرة ليلاً، وتذكّرت ما حصل، وكأنني قد هربت منه في منامي. كنت مطعونة، وقلبي يغلي من الغدر والغيرة معاً، وعدت لأنوح على نفسي، وتمنّيت لو كان غسّان معي لأحطّم صدره، وتخيّلته وهو يبدي لي تسويغاته المقنعة التي يمكن أن تقلب ناري برداً وسلاماً، يأخذ رأسي في حجره بتحنان يشلّ قدرتي على المقاومة، وهو يقول لي: لن أتركك تذهبين مع أحد غيري، *"والله إذا بخلّيكِ الله لا يخلّيني"!* وما ترك بقلبي غصّة أنّني أردت أن أسأله عن الماضي، وأن أقبّل عينيه اللتين رأى بهما أبي، يا إلهي لا أكاد أصدّق أنّ غسّان عرف في طفولته أبي! رآه عندهم في البيت مراراً، وشاهده وهو يتحرّك، وسمع صوته، وربمّا تناول معه الطعام وحدّثه، وصرت أريد غسّان ولا أريده، وكان حدسي يقول لي إنّني سأتركه، وسيغدو عالمي موحشاً بعد أن اعتدت عليه، واستأنست بوجوده في هذه الدنيا، وقد قال لي: إنّني أمانة في عنقه، يا الله هذه العبارة كفيلة بأن تخلقني من جديد، فأنا لم أسمعها من أيّ رجل من قبل. قمت لأغلق أباجور البلكون، فرأيت غسّان جالساً في سيّارته، وقد أراح الكرسيّ إلى الوراء، وكأنه نائم، لعلّه ذهب وعاد، أو أنّه لم يغادر، ولم يرقّ قلبي له، بل تشفّيت قليلاً به.

قرّرت أن أعتزل في بيتي حتّى أفيق من الصدمة، وأرتّب الفوضى التي أحدثتها الساعات الماضية. لن أتّخذ قرارات قطعيّة، لكن أفضّل أن أختلي بنفسي وأحزن قليلاً، وأبكي كثيراً، من حقّي أن أبكي. لن أضع طعاماً في فمي إلاّ ما يقوتني، وسأخسر ثلاثة كيلو غرامات من وزني خلال أسبوع، وستغور عيناي من البكاء ويجلو الدمع بؤبؤيهما، وسأبدو كمن لم ينم لليال طويلة، سأستيقظ في الليل مرّات وأبكي، أبكي بنحيب كأنّي أريد أن أُسمع غسّان صوت بكائي في الطرف الآخر من المدينة، حيث لا أعرف ماذا يفعل تحديداً، لكنّه مع عائلته الكبيرة مع أمه وإخوته وخالاته، أو أنّه يكلّم جولين ويكلم رايان، وقد ينساني، أو أنّه لايفكّر بي طوال الوقت، مثلما أفعل.

حين اتصلت بفرح ليلتها، قالت لي بواقعيتها المزعجة: يا روحي قلت لك، رجل يعيش في باريس كل هذه السنوات وحده، تريدينه راهباً! بعدين كل الناس تتزوج وتطلق.. إمّا أن تقبلي، وإمّا أن ترفضي، *وين المشكلة؟* لا أحد يلحقك بعصا، صار بينكم شي؟

- لا.. طبعا لأ.

- خلص إذن، استهدي بالله، وفكّري على مهل من غير *شوح ونوح!*

سأتّصل بعدها بأمّي ممتلئة بالغضب، وسأعاتبها باكية على البعد، وسأطلب إليها بما يشبه الأمر أن تشتري لي سيّارة، ممّا سيفاجئها: بيك أب سكودا بمئة وخمسين ألفاً فقط، أو أوكتافيا بثلاثمئة ألف، وستحتجّ بأنّني لا أعرف القيادة، وسأفاجئها بأنني تدرّبت وحصلت على الرخصة. سألتني عن سبب هياجي وطلباتي الفجائيّة، وعلى حدّ قولها: ماذا خطر

لك (*تتفتّقي*)، فأجبتها اعتبريها ثمن تخلّيك عنّي. وأعترف أنّني بذلك نفّست عن بعض الغلّ في صدري.

سأقضي أوقاتي أتدرّب على الغياب بطرق شتّى، اخترت من أفلام الفيديو التي استأجرتها مؤخراً من أحد محلاّت الجميليّة، فيلم (بيفور ذي سن رايز)، الذي سأحضره ثلاث مرات، لأفكّك فلسفة الحبّ التي يقدّمها كلّ من سيلين وجيمس، وأقارن بين الصدفة التي جمعتني بغسّان أمّام باب مغلق لبيت عتيق، بالصدفة التي جمعتهما في قطار متّجه إلى فيينا. وحين أتأمّل أكثر في الصور أمامي أجد أنّ المدينتين تتشابهان جدّاً، الأزقّة المرصوفة بحجر البازلت الذي يمنحها سحراً غامضاً، والعمارة القوطيّة التي تنشر الجلال، والمقاهي الحيّة التي تروي قصص البشر! يقول جيمس في الفيلم: "نحن غريبان تماماً، كلّ منّا يتعرّف إلى الآخر، لكن بطريقة ما، يبدو أنّني أعرفك منذ زمن طويل"، وتردّ عليه سيلين: "كلّ ما نفعله في الحياة هو طريقة لنكون محبوبين أكثر". دوّنت العبارتين، سأحفظهما لألقيهما على مسامع غسّان لو قدّر لنا لقاء جديد. كانت سيلين تطرح هواجسي حين تسأله: "هل تعتقد أنّ بإمكاننا أن نلتقي بأشخاص عديدين في الحياة، وأن تكون نفسنا مقسّمة بينهم؟" لكنّها مثلي لن تحصل على جواب، وستستسلم للحظة الفراق، بتلك البساطة التي قادتها إلى اللقاء، بحيث لا يعرف المرء المغزى ممّا حدث، وهل من الأفضل أنّه حدث أم أنّه لم يحدث! كان غسّان قد قالها لي مسبقاً في واحدة من جلساتنا في المشربيّة: "أتمنى لو أنني لم أقابلك أبداً!" ولعلّني اهتديت الآن إلى تفسيرها.

ستعزّ عليّ لحظات كثيرة عشناها معاً أنا وغسّان: نكون ماشين في واحد من شوارع حلب القديمة، فيوقفني لنتأمّل إحدى المشربيّات أو

بوابة لبناء أثريّ، فأغرق في قراءة المشهد، ثمّ ألتفت إليه فأراه ينظر إليّ بشوق، ثمّ يمسك يدي ويهرسها وهو يقّربها من قلبه، يقبّلها ويصيح: أووخ! ثمّ يعضّني في معصمي بشغف، مثلما نعضّ يد طفل ممتلئ لا نقاوم لذاذة لحمه الطريّ، فأنتزع يدي من الألم وأقول: ما هذا؟ فيقول: ساعة، ساعة! يصنع في معصمي ساعة بآثار أسنانه، فأضحك حتّى تنزل دموعي، كان أبي والله يصنع لي الساعات نفسها، على معصمي الأيسر ذاته.

دخلت فرح البيت كالعادة وهي محمّلة بوجبات البروستد الذي أحبّه من (البيت الأخضر) في العزيزيّة، وعلبة بوظة بالقيمق من سلّورة، وعلبة حلو عربي من مهروسة، وبعد أن علّقت رداءها وغطاء رأسها، وضعت الأشياء في المطبخ، وقالت: أضع الركوة على النار أم تضعينها أنت؟ لم تنتظر جوابي، وتناولت الركوة من الخزانة فوقها، وأنا ألحق بها، وبدا لي أنّها سشورت شعرها، ووضعت ماكياجاً خفيفاً، نظرت إليها ونظرت إليّ، وقالت: لماذا أنت منكوشة وصفراء؟ خير إن شاء الله، مقتول لك قتيل! اذهبي غيّري هذا المنظر، وتعالي لنتكلّم كلاماً أخيراً في هذا الأمر، وبعدها لا أريد أن أسمع عنه كلمة، يكفي إضاعة وقت. نظرت إلى علبة الحلو أمامنا وانفجرت بالبكاء، وحين سألتني: قلت لها إنّ غسّان كان يناديني: معمول بفستق، وسكاكر بالعلب... ضحكت ساخرة: لم يحصل شيء، سيظلّ يناديك ببطيختي، خلصينا. امتثلت لكلامها، فآخر شيء أريده أن أدخل في معركة مع فرح، ودخلت لأمشّط شعري وأغيّر بيجامة القطن الشورت الزرقاء، وعلى صدرها صورة ميكي ماوس كبيرة وهو يغمز بإحدى عينيه، التي امتصّت عرقي ودموعي لثلاثة أيّام ماضية.

قالت فرح إنّ كلّ ما فعله غسّان هو من حقّه، وكلامه عن تأخير الحقيقة مقنع جدّاً، وقد أذهلتها حقيقة الصلة بين أبي وأخيه عبد الرحمن، ولامتني لأنّني ظلمته كثيراً. ثمّ قالت إن لم أكن مرتاحة، ولا أستطيع تخطي موضوع زواجه، فمن حقّي أيضاً أن أرفض، وأقول له حسب تعبيرها الذي أعجبني: "اخرج منها فإنّك رجيم"، لكن عليّ أن أصارحه بذلك فوراً، فكلّما طالت المسألة صار الحسم أصعب والخسائر أكبر. تحبّ فرح التنظير، أشعر أنّها أنضج منّي، وأنّها تقتلني بموضوعيّتها، وأنا أريد كلمة في صفّي تؤيد غضبي وشعوري بالإهانة، وفي الوقت ذاته تؤكّد لي أنّ غسّان يحبّني بجنون، ولن يتخلّى عنّي، وأنّه يتعذّب لبعدي عنه، وأنّه يندم على حياته قبلي. تناولت السيجارة من يدها، ودسستها في فمي، وأنا أنظر إلى حركة يديها المزيّنتين بأساور الذهب، وهي تفتح حقيبة يدها لتخرج منها قدّاحة جديدة، بعد أن قذفت الأخرى فاستقرّت في سلّة المهملات في الزاوية، وبدت أستاذة في الحياة، وبدوت أمامها تلميذة.

قلت لها: لا أصدّق أنّه فعل بي ذلك!

- هيهي علينا، يا روحي لم يفعل شيئاً، كان...، كان متزوّجاً هذا في الماضي، من زمان، وأنت لم تكوني موجودة في حياته.
- لم يكن يبدو عليه! حين يكلّمني، وحين يستمع إليّ، وحين يضمّني إلى صدره، كيف لم ألاحظ؟ كيف سمحت لنفسي أن أفعل ذلك، أن أتحوّل بين يديه عصفوراً يرتعش، ويبحث عن دفء في قفص من الكذب. لكنّني فعلاً كنت أشعر بنفسي معه طفلة تائهة وجدت أهلها، والآن أتخيّل احتضانه لطفله الحقيقيّ ولزوجته، أتخيّل علاقته بها، لابدّ من أنها جميلة جدًّا.

- ليس شرطًا.
- بالنسبة لغسّان شرط. شقراء وطويلة ونحيلة بشفاه حمراء ومناكير أحمر، كيف كان يسهر معها، وينام معها، وأنا لم أبذل أيّ جهد كي أفصح عن كوني امرأة.
- ومع ذلك هو ملتصق بك، اسألي نفسك لماذا!
- كله حكي. يقول لي: كلّ شيء بينهما انتهى. لا يا ستّي ما انتهى، أعرف غسّان، أعرفه إنّه ليس من النوع الذي يمكن أن يهجر طفله، هو يريدني مع الطفل، ومع الماضي، يريد كلّ شيء. لو كنت مكاني ماذا ستفعلين؟

كان هواء العصر يطيّر ستائر الأورغانزا باتجاه الطاولة، فقامت فرح بمسؤولية، ولمّت فردة الستارة حول الحلقة المعدنيّة المثبّتة في الجدار، وسيكارتها في فمها، وكنّا نستمع إلى عبد الحليم حافظ يغنّي (رسالة من تحت الماء)، عبر راديو كاسيت اشتريته مؤخّراً: إن كنت أعزّ عليك فخذ بيدي... عندما استقرّت في جلستها ونفضت رماد لفافتها، قالت بثقة: كنت سأقبل به بكامل ظروفه، لا أجد في غسّان أيّ عيب، وأنت أيضًا لديك ظروفك!

عبارتها الأخيرة نفّست امتلائي الوهميّ، لم تصدمني صراحتها، فأنا معتادة عليها، لكنّها هذه المرّة وضعت أمامي المرآة التي ستريني حقيقة وضعي تمامًا، إنّها تنقل لي أفكار الآخرين. حقّاً من أنا؟ بنت من أصول ريفيّة، لكنّني متفوّقة وشكلي جميل، ووضعي المادّي جيّد جدّاً، لكنني أيضًا لست ابنة تاجر، ولا أنتمي إلى عائلة محافظة، وممتدة وتعيش تحت القلعة أبًا عن جد، وأبي مقتول منذ الثمانينيّات، ودارس في روسيا

أي (شيوعيّ) كما يسمّون كلّ من عاش في تلك البلاد، وأمّي متزوّجة برجل آخر، وماذا بعد، فعلاً لو كان لدى غسّان ليس ولد واحد فحسب بل ثلاثة أولاد سترجح كفّته على كفّتي، هذا ما أرادت فرح أن تقوله، وهو الذي سيجعلني ألملم نفسي، وأعود لمشروعي، مشروع أبي، وآنف من العودة لغسّان، وأترك الأيّام القادمة تحسم المعركة.

كانت أوّل تجربة اختبار للمناعة بعد يومين من جلستي مع فرح، إذ طرق الباب، رأيته من العين السحريّة، يرتدي بليزره الرماديّ، وبنطلوناً أسود، وقميصاً أبيض، وكان ساحراً وقد ترك لحيته بلا حلاقة للأيام الماضية، كأنّه يعلن حزناً، أو تعاطفاً، أو أرقاً. تمعّنت في تفاصيله المكبّرة بالعدسة جيّداً، كان ينظر إلى أعلى وكفّه مفرودة على باب بيتي، وبالأخرى رنّ الجرس ثانية، ثمّ ثالثة لكنّني لم أفتح الباب، وتركته يعود من حيث أتى.

أتممت قراءة كتاب الأخوين راسل، واستخرجت منه كلّ ما يهديني إلى السياق الثقافيّ للحقبة، وإلى عادات الناس في تلقّي الحكايات واهتمامهم بها، ووجدتهما يذكران (بول لوكاس) وألف ليلة، وطريقة روايتها من قبل الخدم لأسيادهم قبل النوم، وقد طار عقلي بها، كأنّها مفاتيح الحلّ أهديت إليّ.

كان عليّ أن أعيد أفلام الفيديو التي استأجرتها من محل أحد طلبتي في الجميليّة. ركبت سيرفيس أنزلني عند ساحة سعد الله، ومشيت نحو جامع الصدّيق، ثمّ شارع إسكندرون، وفاتني الدخول إلى العبّارة التي فيها المحلّ المقصود، لأنّ قدميّ قادتاني نحو جامع زكي باشا، ووجدت نفسي على سور مدرسة المأمون، ووقفت أمام البوّابة التي كانت مغلقة،

وفي بالي أحاديثنا، إذ لم نترك شيئًا إلاّ وقلناه، وكأنّي أردت استعادة غسّان منذ القديم، منذ يفاعته قبل أن يكون لامرأة أخرى. قال لي مرّة إنّ ثانويّة المعرّي، التي كانت تسمّى التجهيز الثانية، أقرب بكثير إلى بيتهم، ومع ذلك أصر والده على أن يدرس في ثانويّة المأمون. أبي أيضًا درس في المأمون، أو التجهيز الأولى، مدرسة النخبة، وطبعًا لم أتفاجأ فمعظم الذكور كانوا يدرسون إمّا في المعري أو المأمون، في حين درس الجيل الذي سبقهم في الكلية الأميركيّة أو الفرير. قال: كنت أركب باصين حتّى أصل إليها، أخرج من البيت في السادسة صباحًا، وأعود مع العصر.

وقفت على سور المدرسة التي تخرّج فيها أغلى رجلين في حياتي، واعترفت لنفسي بأنّني أحببت غسّان من كلّ قلبي، وأنّني أريد أن أبقى معه حتّى أموت، وبكيت بحرقة بعد أن أقسمتُ على أن أكفّ عن البكاء، لكنّنا نبكي بذاكرتنا لا بقلوبنا.

بيت خالتي حياة

حين قرّرت أمّي الزواج كنت في سنتي الثانية في الجامعة. لم أعترض، قالت لي خالتي حياة، التي ستصير حماتي لاحقًا: يجب أن تكوني عادلة يا ابنتي، ستكون لك حياتك، وستبقى أمك من الآن فصاعداً وحدها، فالأولاد في الجامعة يطيرون بعيداً ولن يعودوا إلاّ ضيوفًا. أمّك ربّتك أحسن تربية، واستطاعت أن تعيلك بالشكل الأمثل، وجاءتها فرصة زواج برجل (سكّرة)، محبّ، وظروفه مناسبة، ووضعه الاقتصاديّ ممتاز، وليس لديه أولاد ليفضّلهم عليك، أو لتنشغل أمك بعائلة ثانية تثير أحقادك، الرجل لا ينجب، ويريد امرأة تؤنسه، والآن يمكنها أن تتزوّج وتربحان معًا، دعينا نقسم البيدر بالنصف، عشرون سنة لك، وما تبقّى لها، عمرها فوق الأربعين، لن تحظى برجل بمقوّمات جيّدة بعدها، ثمّ بعد تخرّجك ستشعرين بأنّك ظلمتها، وسيصير هذا الشعور عبئًا يلازمكِ. ستذهب وتعمل هناك في الشارقة، وسيكون دخلها كبيراً، وهذا سيجعلك مرتاحة ماديًا، وأنا هنا بجانبك، ولو أردت الإقامة عندي فهذا سيسعدني! صمتُّ، وكانت خالتي في ذلك الوقت أشطر من أيّ خبير تنمية بشرية نراه اليوم.

لم يأخذ الموضوع أبعاداً أكثر من هذا الحوار، تعرّفت إلى عمّو كمال، كما سأناديه دائمًا، وجدته لطيفًا، وأنيقًا، ومهذّبًا، ولا مؤشّرات

على الشرّ في شخصيّته، يحمل شهادة ماجستير في الإدارة، ويعمل في شركة تعنى بالإنشاءات الطبيّة في دبي، وكان ثريّاً من عمله الممتدّ في الخليج، ومطلّقاً من قبل عشر سنوات من ذلك الوقت. أمّا أمي فقد حصلت على استيداع لمدّة خمس سنوات، ووجدت لها عملاً في بنك HSBC البريطانيّ في الشارقة. تودّعنا بكثير من الدموع، والأمنيات، ووعود بلقاء وشيك في أقرب إجازة.

افتقدت أمّي كثيراً، على الرغم من تعلّقي بالجامعة، وبالمحاضرات، والأصدقاء، والأساتذة، وبحياة الشباب الصاخبة حيث المواعيد، والورود، وكلمات الغزل، والوجبات اللذيذة في مطاعم نزلة المحافظة: (صحتين)، و(كوب)، و(مشوار)، لكن حين يحلّ المساء، حيث لم يكن هناك وسائل تواصل اجتماعي، وتلفونات متلفزة، كانت كآبة الدنيا تحلّ في نفسي، ويجرفني الشعور باليتم إلى واد من الحزن سحيق، وأظلّ أبكي حتّى أنام. كنا أنا وأمّي رتّبنا حياتنا على قدّ شخصين في كلّ شيء: الملابس، وبرامج التلفزيون، والطعام، وأدوات المائدة، ومواد الاستحمام... كنّا نأكل أفضل طعام ونلبس أفضل الملابس، وكانت أمّي تقول: لسنا بحاجة إلى تقديم تنازلات، فبغياب الرجل، لا حاجة لتأكلي التفاحة المسودّة، وتتركي له التفاحة السليمة، أو تأكلي حبّة الكبّة المحروقة لتتركي له المقليّة جيّداً، أو أن تعطيه قطعة اللحم الأفضل. عليك أن تعتني بنفسك من غير تنازلات، ونحن كنّا نتقاسم الشيء الأفضل، ونتخلّى عن الأقلّ جودة.

انقطعت بعدها علاقتي بغسّان تماماً، لم أجد سيّارته أمام منزلي بعد تلك الليلة، ولم أتّصل به ولا مرّة، وكأنّ حاجزاً من الصمت حلّ بيننا،

وقد استسلمت لفكرة الزمن الكفيل بحلّ المشكلات، لكنّ الدنيا ضاقت بي حقّـًا، وشعرت بأنّني وحيدة، وخائفة من المستقبل، وفكّرت في أن أخبر أمّي بكلّ شيء، حتّى أطمئنّ وأستدلّ على طريق، ثمّ تراجعت لأنّها ستموت من الخوف، وستسألني أسئلة لا أحبّها، وستبدأ من الأخطر: ماذا حصل بينكما؟ هل اقترب منك؟ إلى أين وصلت العلاقة؟ وستطمئن على عذريّتي، وسأصرخ فيها لتتوقّف عن أسئلتها المهينة! ثمّ ستنتقل إلى السؤال عن أهله وناسه، وإن كان أحد قد عرف بقصّتنا أو رآني معه، لتطمئنّ على مستقبل زواجي والحصول على نصيبي بلا تشويش، أو قال وقيل. أعرف أنّها تريد أن تُخْلِي مسؤوليّتها من جهتي، وهذا من حقّها، أما الأمراض النفسيّة التي أعيش فيها، فلا بأس، تلك لا أحد يسأل عنها، إنّها قابلة للعلاج بسرعة، بما فيها خوفي، وقلقي، وحزني، وحيرتي، وتعلّقي برجل، وصراعي مع رغبتي لأمتنع عنه، فذلك كلّه ستصنّفه أمّي على أنّه دلع فائض.

فكّرت بمحمود، ابن خالتي، شعرت أنّني بحاجة لأتواصل معه، وأن يكون قريبًا منّي، فهو رجل قويّ ومتفهّم، ويمكن أن يسندني، وأنا لم أطلب منه شيئًا في حياتي، أصلاً أنا لم أره منذ سنة، وأسمع أخباره من خالتي، فهو مشغول بالعمل، وبالمعمل، وبالتصدير، وبأسفاره الكثيرة. اتّصلت بخالتي، وحصلت على رقم مكتبه، سألتني عن السبب، قلت لها أريد واسطة للعمل لابن أحد الأساتذة. كلّمته من كابينة التلفون في الكليّة:

- مرحبا محمود!
- أهلين، جاءني صوته رزينًا، يشوبه شيء من المفاجأة. لم يعرفني بالطبع، لكن يبدو أنّه استغرب من رقم غريب بصوت أنثويّ!

- *شلونك محمود*، معك كندة بنت خالتك.

سكت للحظة: أهلين كندة أهلين... خير في شي!

- *لا أبداً بس حابّة أشوفك.*
- خير كندة، شغلتِ بالي! أمي فيها شي؟ خالتي هناء...
- *لا، لا ولا شي. محمود بس حابّة أقعد أحكي معك شوي*، متضايقة، ووجدت أنّك الوحيد الذي يمكن أن أكلّمه، وبعيداً عن البيت.
- *مية السلامة روحي*... أين أنت؟ الآن أرسل لك الشوفير.

شعرت أنّه اطمأنّ، وأشفقت عليه من الخضّة التي سببتها له، معه حقّ، كان اتّصالي غريبًا، لم يعتد منّي ذلك.

- لا ما في داعي.. أنا آتي بتاكسي.
- أيّ تاكسي، يا كندة، أنا بالشيخ نجّار، منطقة بعيدة عليك، وليس مناسبًا أن تدخليها بتاكسي.
- إذن سأنتظر بعد ساعةٍ تمامًا أمام بوابة كليّة الآداب الرئيسة الخارجيّة.
- *أوك*. الله معك.

وصلت مقرّ المعمل، في المنطقة التي ستصير بعد سنوات قليلة المدينة الصناعيّة. أرض منبسطة وواسعة، وستقام عليها المنشآت الصناعيّة بصورة منظّمة وأنيقة، معامل، وشركات للأثرياء من صناعيي حلب، وكانت منشأة زوج خالتي من أولاها، وقبل أن تكتمل الأبنية، كانت تبدو موحّدة باللونين الأبيض والرماديّ بمظلّات القرميد للكراجات، وأمامها سيّارات خاصّة بملايين الليرات. الطرقات لم تكن

معبّدة إلاّ قليلاً، وشجر الكرز مزروع أمام المنشآت بعناية، وكذلك في الممرّات بينها. وفي الأراضي غير المبنيّة، على المدى البعيد، تبدو أشجار السرو والكينا كثيفة، لتخفّف من قسوة الحياة الآليّة للمكان. تصطفّ تحت مظلاّت التوتياء مولّدات الكهرباء الملحقة بالأبنية، والتي لا حصر لعددها، ويبدو أنّهم جرّوا قناة مياه خاصّة لحاجات التشغيل والإنتاج. الشاحنات تسير بالدور، بعضها يخرج من مرائب المعامل، ويدخل بعضها الآخر، وشركات التحميل والنقل، يرتدي موظّفوها زيّاً خاصّاً بهم، يميزهم من غيرهم، حالة من الديناميكيّة تكتنف المكان، لكنّها تختلف عن ديناميكيّة الأسواق في المدينة، إنّها منظّمة وفاخرة.

قادني السائق إلى واحد من هذه المباني الحديثة، معمل شعبان للغزل والنسيج، كان البناء جانبيّاً أشبه بفيلا صغيرة إلى جانب المعمل، صعدت الدرجات الرخاميّة، ودخلت من الباب الزجاجيّ فلفحتني برودة التكييف. الأرض كلّها ملبّسة بالرخام الأبيض، وواجهني صالون بأثاث من الستيل الذهبي والكوبلان المورّد بالبيج والخمري، وإلى يمينه ممرّ، وإلى يساره باب جرّار من خشب الجوز، انفتح على مصراعيه، وكان محمود هو الذي فتحه بقبضتيه، وحين رأيته، اندفعت نحوه، فتلقّاني بابتسامة مرحّبة، وعلا صوته: يا أهلا وسهلا بست كندة، *يا مية السلامة!* أردت فعلاً أن أرمي نفسي على صدره، اقتربت منه جدّاً، فعانقني بذراع واحدة، وطبع قبلة سريعة على قمّة رأسي، كانت دافئة وأخويّة، وهو يقودني إلى الداخل، ولم أكن أحتاج أكثر من هذه الحفاوة لأطمئنّ. لم أكن أعرف أنّ مكاتب الشركات في المدينة الصناعيّة ستكون بهذه الأبّهة التي تحيط بمعمل زوج خالتي وابنيه: حازم الأكبر، وهو مهندس

ميكانيك، ومحمود الأصغر الذي درس إدارة الأعمال في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وهو دينامو العمل، وصاحب العلاقات التجاريّة الممتدّة فيما يخصّ استيراد الماكينات، وتصدير المنتجات، وتحالفات السوق المحلّي والدوليّ، وتقييم خطوط إنتاج الخيط، وفتحها وإغلاقها وتحويلها، وغير ذلك من المصطلحات التي كنت أسمعها في بيتهم منذ القديم. في الحقيقة علاقتي ببيت خالتي لم تتبع يوماً لأيّة خطّة. أنا أعرفهم مذ فتحت عينيّ على الدنيا، لكنّني لم أقتحمهم ولا اقتحموني، وذلك ما كانت أمّي حريصة عليه. كنت دائماً عندهم، لكنّني مع أمي وخالتي، أكثر من كوني مع حازم، ومحمود، ودالية. كانوا أكبر منّي، يعني دالية وهي أصغرهم تكبرني بعشر سنوات. اهتماماتهم مختلفة، وعلاقاتهم ببيت جدّهم لأبيهم قويّة، علاقات المال، والمنافسات على الثراء، والظهور بأفخر الملابس والسيّارات، والحفلات، والأعراس والاستقبالات، والاستثمارات بملايين الدولارات، وامتلاك المزارع الفارهة في (بنيامين)، و(عين جارة)، و(القبر الإنكليزي). كنّا نزورهم في بيتهم باستمرار، نأتي بعد دوام ماما، ونتغدّى مع خالتي، وغالباً ما نغادر قبل المغرب، حيث يعود زوجها من المعمل، فتتفرّغ له. كان كثيراً ما يدعونا للغداء أيّام العطل في بيتهم أو في المزرعة، كنت أرى الشفقة الملتبسة بحسّ المسؤوليّة في عينيه. كان أولاد خالتي يقضون الوقت مع أصحابهم في لعب كرة السلّة في نادي الاتحاد، وكانوا يتركونني أدخل غرفهم وألعب بما تبقّى من ألعابهم، حتّى دالية، كانت تسمح لي باستعمال أدوات التجميل الخاصّة بها: المناكير، والحمرة، والإكسسوارات. عندها مناكير من كلّ الألوان مصفوف في حمّالة خاصّة

مثل تلك التي توضع في محلاّت التجميل. أحسب لهم أنّهم عند وفاة أبي، حين كنّا نجتمع ونقضي معهم وقتاً طويلاً، كانوا حريصين على ألاّ يذكروا كلمة بابا أمامي، حتّى أبوهم عمّو خليل، كانوا ينادونه أمامي عمّو، حتّى لا تنجرح مشاعري، لكن دالية تحديداً لم تكن تحبّ التمادي في الحديث مع أحد، هكذا هو طبعها كتومة، ومنفردة بذاتها. قلت لها مرة، وكنت صغيرة، بعد وفاة أبي مباشرة أريد أن أتزوّج حازم، وتصير خالتي حماتي، وأنت أخت زوجي. فنهرتني، وقالت لي: هذا الكلام عيب، وأنت ما زلت صغيرة على هذه المواضيع. من يومها صارت علاقتي بها أقلّ ودّاً، وربّما إلى الآن، اعتدت البرود في معاملتي معها، لاسيّما أنّها تزوّجت قبل أن تدخل الجامعة، زوّجها أهلُها لابن أحدّ الصناعيّين الكبار في حلب، وكان عرسها مثل ألف ليلة وليلة، وبعد أن أكملت دراستي، ووصلت إلى الدكتوراه، صارت تشعر بتفوّقي عليها، حتّى إنّني حين نلت الشهادة الثانويّة، وأهدتني خالتي وعمّو خليل طبعاً خمس ليرات ذهبيّة إنكليزيّة، قالت لي دالية: هذه تنفعك للزمن، أكثر من الشهادة!

خالتي حياة سيّدة أموميّة جدّاً، قويّة وقادرة، أسّست بيتاً قويّاً وأسرة سعيدة، كلّ شيء له حلّ بالنسبة لها، تحبّ التقانة في البيت، والنظافة، والتفاصيل مثل نساء حلب كلّهنّ. ربّت أولادها أحسن تربية، وأجدها منفتحة جدّاً مقارنة بالناس في محيطها، وكريمة، وتحبّ الناس. بيتُها مبهرٌ دائماً بنظافته، وفخامة أثاثه، ومقتنياته، وعامرٌ بأطايب الطعام التي تطبخها بيديها، على الرغم من وجود خادمتين مقيمتين عندها. تحبّ كلّ شيء على أصوله: اليبرق تحته شرحات غنم ودهنة، والمحشي تحته

عصاعيص، والفاصوليا الخضراء في عبّها محشي الكوسا، والكبّة المشويّة في قلبها الشحمة وحبّ الرمّان، والفريكة مع لحمة موزات، والدجاج يجب أن يشلوط على النار قبل طبخه، حتّى يتخلّص من زنخته. خالتي حياة طويلة وممتلئة وضخمة، حين تدخل إلى أيّ استقبال، تكون بكامل أبّهتها بتايير أسود أو كحلي يلفّ جسدها، ويظهر اكتناز وركيها وصدرها، وامتلاء بطنها، مرشوش عند الصدر والأكمام بالبرق أو حجر الكريستال، وتحته قميص شيفون أو ساتان رسميّ، أبيض أو أصفر أو أخضر، ودائماً أحذيتها جديدة بكعب عال، لا أعرف كيف يحتمل ثقل جسدها، وحين تخلع الإيشارب من على رأسها تنفض شعرها القصير المصبوغ بالكستنائي الداكن بأصابع كفّها، فيأخذ حجماً أوفى، وتكون قد زينت نفسها بقطع المجوهرات الفريدة من زردات الذهب، أو حلق الألماس مع مانتاتيف، أو شلّة اللولو القصيرة بثلاثة أدوار، والطويلة بخمسة، وتفوح منها روائح البارفانات الأوريجينال الطيّبة التي لا تحبّ تغييرها، بعبق الأزهار من ديور سيمو، أو نينا ريتشي، أو كاشاريل، مختلطة بروائح الدريرة المكتسبة من خزانة ملابسها، وتضع الكحل في قلب عينيها، وحمرة حمراء على شفتيها، وتخطو بتؤدة واعتزاز، وتتصدّر المجالس، وبمجرّد أن تلمحني تناديني: *تعي روحي، تعي لقلبي!* وتقبّلني في وجنتيّ وتشمّني، فأشعر أنّني أنغمر بالمحبّة، وتبدأ بسرد محاسني، وتثني على مظاهر أنوثتي، وتغبط الرجل الذي سيحظى بي يوماً، وترجو الله أن يسعدني.

* * *

استرحت في الجلسة مع محمود، قعد مقابلي على كرسيّ الجلد العسلي أمام المكتب، وليس خلفه، وقال:

- ماذا تشربين؟ عندنا عصير رمّان فريش، وعندنا تمر هندي، وفي إسبريسو، وكاباتشينو.

- إسبريسو لو سمحت!

قام من مكانه إلى بار صغير إلى جانب النافذة، حيث الماكينة، وبدأ يحضّر القهوة، وأنا حين شعرت بالاطمئنان، وجدت أنّ هذه الحركة التي فعلتها باتّصالي به سخيفة، ولا داعي لها، فلديه شغل كثير، وأعمال يديرها، وأنا أشغله بهواجسي. تضاءل القلق، ووجدت مشاعري تافهة، قلت له كي لا آخذ من وقته كثيرًا: محمود أنا أعتذر أنّني شغلت بالك، لكن في الأيّام الماضية شعرت أنّني وحيدة وضعيفة، وقد مررت بضغط في الدراسة والعمل، ولا أعرف كيف خطرت في بالي، لعلّني أردت أن أذكّر نفسي بأنّ لي عائلة.

- *إيش هالحكي يا كندة*! طبعًا نحن عائلتك. وارتاح في جلسته، وبانت أبهته، وثبّت نظارته من المنتصف على عظمة أنفه، ونظرت في زرقة عينيه، وقميصه الأبيض الناصع، ونظرت إلى نفسي بثوب من الكتّان الأسود الطويل، بحزام على هيئة حبل من القنّب يبديني مثل راهبة، شعري مهمل مربوط بشكل ذيل حصان، ووجهي شاحب من همّ الغرام.

أوّل سؤال سألني إياه محمود: *لازمك مصاري؟* ابتسمت، وقلت لا، *ليس مصاري*.

- هل هناك من يضايقك، قولي *والله* بجيبه *من تحت الأرض وبربّي فيه حلب*.

- لا، لا...
- طيب بس هيك! يجب أن تقولي، لأنّه ليس من المعقول أن تتصلي فجأة، وتأتي إلى هنا، ولا تكون هناك قصّة كبيرة. قولي *مين مزعلك يا ستّ الكلّ! في حدا*، أشمّ رائحة رجل في الموضوع، أحدهم تقدّم لك، وتسألينني عنه!

صرت أخجل من أنّني أضيّع وقته، وأنّه يحاول أن يعرف سبب قدومي الغريب.

- ممكن، لكن ليس من أجل ذلك فقط. محمود أنت تفهم أنّ الإنسان يحتاج أحيانًا إلى أن يعرف أنّ له أحداً قريبًا، يمكن أن يلجأ إليه من غير أن يفصح، هناك تراكمات، وأنا وجدتك الأجدر والأقرب لأحكي لك، لكن صدّقني بمجرّد أن رأيتك واستقبلتني، انتهى كل شيء.
- كندة، كلامك كتير حلو! كيف كبرت أنت هكذا فجأة! تعرفين أنّني مبسوط أنك فكّرت بي. أنا معك دائمًا، أي خطوة تريدينها، أي طلب فقط قولي: ألو! من هو؟ وماذا يريد؟ خطيب...
- نعم، لكن لا أريد، قلت: لا.
- إذا لم يعجبك لا نريده، ما المشكلة!
- لا يوجد مشكلة، هو فقط يعيش في باريس، وأنا لا أريد أن أترك دراستي وعملي!
- أوه، يعيش في باريس. وماذا يعمل؟
- طبيب.

- حلبي؟
- نعم.
- طبيب ماذا؟
- تجميل.
- *والله هذه شغلة كويسة! وبتجيب مصاري.*

شعرت بمفاجأته، وبنظرة حسد، ربّما أخرجه كلامي من قوقعة تميّزه، وعرف أنّ ثمّة رجلاً مميّزاً في حلب غيره.

- طيب، لا تروحي.، ماذا قالت خالتي هناء؟
- لا الموضوع لم يصل إليها، أرجوك لا لها تقل شيئاً.
- *زعلانة عالعريس خيتو*؟ سيأتي غيره.
- لا، فقط أريد من يقول لي ابقي في حلب.
- طيب، ابقي في حلب.

ضحكنا، ثمّ رحنا ندردش حول عملي في المدينة القديمة، والمطاعم فيها، وقال لي إنّ لهم بيتاً عند الهجرة والجوازات أمام القلعة، ويفكّرون في تحويلة فندقاً، وقد كان بيت جدّه، واشترى عمو خليل حصص إخوته فيه. ثمّ قام إلى الهاتف، اتصل بأمّه وفتح الإنترفون:

- *شلونك أم حازم*، ماذا طبخت لنا اليوم؟
- أسمع صوت خالتي يرنّ مرحّبة بولدها.
- بامية حبيب قلبي.
- *إيه طيبة البامية، ما بتقول شي.*
- *كلكن بتموتوا عليها.*

ونظر إليّ وهو يخفض من صوته: *مو بتحبّي البامية كندة!*

هززت رأسي موافقة، وقد أُسقط في يدي.

- *ديه يا الله، جاية وجايبلك معي ضيفة.*
- *لا يكون عاروس ولك محمود*، وضحكتْ!
- يعني تستطيعين أن تقولي عروس، وضحك، وهو ينظر إليّ نظرته الماكرة من تحت النظّارة ذات الإطار الذهبيّ الرفيع.
- *مية السلامة فيك وبضيوفك حبيبي، بتريد أوصّي شي من برّه؟*
- *لا ماما، ما في حدا غريب.*

وهكذا أجلسني محمود إلى جانبه في المرسيدس، وقاد بي إلى حيّ الفرنسيسكان، وقد صارت صور غسّان، بعد هذا الأنس الذي لقيته، تمرّ أمام عينيّ أبهت، وكأنّها قادمة من زمن بعيد.

***

حين انفردت بنفسي في البيت، ظلّت تفاصيل اللقاء في بالي، وفكّرت في أنّني أتخلّص من رجل برجل آخر، وأدرك أنّها حركة خطيرة وستؤذيني بالدرجة الأولى، فلم أكن مغيّبة عن وعيي لا بالحبّ ولا بالرغبة أبداً، أنا من برج الجدي، من أولئك الذين لا يفلتون زمام العقل حتى في أبعد لحظاتهم العاطفيّة. أعترف أنّ صورة محمود ابن خالتي لم تفارق خيالي، تذكّرت كيف كان حنوناً عليّ في طفولتي، حين كنت أبيت عندهم في بيتهم القديم، أيّام انشغال أمّي بقضيّة أبي. كان يجدني مستيقظة، في غرفة الجلوس، فيأخذني من يدي إلى الغرفة المخصّصة للضيوف، ويضعني في الفراش، ويغطّيني، أو يفتح لي خزانة السكاكر ويتركها مباحة لرغباتي. باعدتْ بيننا الحياة بعد ذلك، والعمر والاهتمامات، لكنّه كان موجوداً،

وكنت أحبّ أن أسمع من خالتي أخباره، وأخبار أصدقائه، ورحلاته، وكنّا نتابع النقل المباشر لمباريات نادي الاتحاد لكرة السلّة على التلفزيون، وكان المعلّق دائماً يردّد: محمود شعبان، شعبان، شعبان... وكنت أطير من الفرح.

تذكر أمّي في لحظات إثبات الذات، أنّنا تفضّلنا عليهم فضلاً يجب ألّا ينسوه إلى الأبد، ففي الثمانينيّات حين دار الصراع بين السلطة الحاكمة وحزب الإخوان، ثمّ خضعت البلاد للعقوبات بحجّة الإرهاب، اتُّخذت في سورية سياسة شدّ الأحزمة، فمنع الاستيراد، وصارت التداولات الاقتصاديّة كلّها من قنينة زيت الطبخ إلى إسمنت البناء محصورة بمؤسّسات الدولة، وكان زمن الوقوف على الدور، والتضييق على المواطنين لضعف الموارد، وفي الوقت ذاته تأسّس مجتمع الفساد، وتعمّقت ارتباطات العسكر مع رجال المال لبناء سوق سوداء ضخمة، فيها كلّ شيء من بضائع وطنيّة ومهرّبة، يصفّي بعض أقطابها بعضهم الآخر من أجل حفنة من الدولارات. كان عمّو خليل واحداً من الذين اشتغلوا بتجارة العملة الصعبة، والتي كانت عقوبتها الإعدام، وفي واحدة من الفخاخ التي نصبت للتجّار من قبل حلفائهم، تمّ التبليغ عنه. كان آنذاك يعمل في دكّانه في سوق المدينة، في خان القطن، وهناك يصرّف العملة في مساحة لا تتجاوز ثمانية أمتار مربّعة. حين شعر بالخطر بعد أن حذّره أهل دائرته القريبة، وضع القطع الأجنبيّ في بقج، وخبّأها عند أبي في بيت مهجور لأهله في (بستان الزهرة)، اشتراه جدي لوحيده، الذي هو أبي، كي يدرس في حلب، ولا يضطرّ للعودة إلى بلدته (خان طومان) كلّ يوم. ساند أبي عديله بشجاعة، على الرغم من المواقف المتنافرة بينهما،

فلم يكنّا لبعضهما ذلك الودّ المرتجى، لا التاجر يحبّ دكتور الجامعة، ولا دكتور الجامعة راضٍ عن براغماتيّة التاجر، وخرقه للقانون، لكن حين يغيب العدل، ويصبح انتقائيّاً، يصير القانون أداة لتعذيب البشر، وهذا كان منطلق أبي حين استجاب لحاجة عديله، فلن يفّرط أبي في أسرة خالتي وأبنائها، من أجل قانون يستثني المجرمين الكبار، ويطبّق على المجرمين الأصغر. كان أبي نفسه قد تخلّص من الكتب كلّها المرتبطة بالإديولوجيا الماركسيّة، أو بالشيوعيين كما كان يُطلق عليهم. لم يكن أبي شيوعيّاً، أي لم يكن منظّماً، فهو كما كان يقول دائماً لا يبيع عقله لأحد، ولم يكن متديّناً أيضاً، لم يصلّ، لكنّه كان يصوم، والذين حاربوه من اليمينيّين في الجامعة كانوا يقولون عنه شيوعيّ ملحد. أصلاً هو لم يأخذ فرصته ليظهر انتماء ما، وكان مثله مثل الناس يتوخّى الحذر في كلّ كلمة، وقد قتلوه في أوّل فصل دراسيّ له، قبل أن يفصح عن هويته.

ساءلت نفسي مراراً: لم لا أكون قريبة، فأعود إلى دائرتي الأولى، ولم أخاف من هالة الثراء! في الحقيقية هو ليس الثراء فحسب، هناك فارق اجتماعيّ، وفارق في بنية التفكير، والارتباط بمنظومة ثقافيّة أكبر من قدراتي، فأنا أعرف أنّني لا ألبّي متطلّبات محمود التي انزرعت في عقله، إذ تربّيت بطريقة مختلفة، وأحياناً حين أجرؤ على الدخول إلى ذاتي عميقاً، أجد أنّ فكرة الضحيّة متأصّلة فيّ، على الرغم من محاولات أمّي الدؤوبة لمساعدتي على تجاوزها. عموماً محمود يريد ملكة جمال، تتفرّغ لمتابعة بريستيجه، سيّدة بيت، وابنة عائلة ثريّة، *جخّ وفخّ*، لا ابنةَ دكتورِ جامعة مقتول، وأمٌّ متزوّجة برجل آخر، مع أنّ خالتي هي التي دبّرت زيجة أمّي الثانية. سيتزوّج محمود بمقاييس محيطه، بمقاييس خالتي حياة التي أعرف كم تحبّني، لكن

كابنة أخت لا كنّة، وما عليّ سوى أن أنفض ترّهاتي التي فجّرتها الزيارة، وأن أكون أنا البعيدة كما كنت دائماً، وأن أصنع مكاني، فأسيطر على تفاصيله. لا أريد أن أكون في مكان أشعر فيه دائماً بأنّني أقلّ، وأن أبذل جهداً لإرضاء الآخرين، وإقناعهم بشخصي. أنا أفضّل أن أبقى مع موسوعاتي ودفاتري فقط، إن لم أجد رجلاً يشاركني بها، ويترك لي مساحتي الخاصّة، ولا يطالبني بمتابعة التفاصيل الصغيرة التي يجب أن يترفّع عنها أيضاً: الأثاث المغبرّ، ومدى جودة الطبخ، وإذا كان مفرش السرير مضبوطاً أم مائلاً قليلاً. نعم أولاد خالتي من هذا النوع المنتقد، أمّا أنا فأحبّ أن أقضي صباحاتي فوق في مقهى القلعة، ومستعدّة لأن أزورها كلّ يوم، فأقف على الشرفة، وأرى حلب منبسطة تحت الأسوار، وأدوّن مشاهد لحياة الناس فيها قبل قرنين من الزمان، وأفتح ممرّات بينها وبين الحاضر، وأمشي في الأسواق، وأزور المساجد، وأسهر في التكايا، وأحتاج رجلاً يشاركني ذلك كلّه، وهذا الرجل، في حقيقة الأمر، ليس سوى غسّان.

ما حدث بعد ذلك هو أنّ عمّو خليل تُوفّيَ فجأة. مات في صراعه من أجل الثروة مثلما عاش في صراع من أجل الثروة. اتّصلت بي خادمتهم التي تحفظ رقمي، إذ كانت العائلة باستثنائه قد سافرت إلى مصيفهم في صلنفة، ولا أحد يردّ على تلفون البيت هناك. وكان من المفترض أن يصل محمود في ذلك اليوم إلى حلب، لكن لا نعرف في أيّة ساعة. سارعت إلى بيتهم قبل أن يصل، فكّرت بأنّه يمكن أن يدخل وحده، ويرى أباه ممدّداً على الأريكة وميّتاً! وصلت ونظرت في دفتر الهواتف، فوجدت أرقاماً لأقربائهم، أخي عمّو خليل وأخته، اتصلت بهم، وأبلغتهم، وقبل أن يجتمعوا، وصل محمود ورأى البيت مفتوحاً، وأدرك من المشاهد

الأولى ما حدث، وانهار بين يديّ، ظلّ يرتجف بطريقة مخيفة، ولا يستطيع أن يقول كلاماً واضحاً، وخفت عليه من الشلل أو الموت. لقد ترك أباه قبل يومين بكامل عافيته، وعاد ليراه جثّة لا على البال ولا على الخاطر! تجمّع الناس، وقام أحدهم وصفعه فجأة، ورحنا نصرخ من هول المفاجأة لكنّه صحا بعد الصفعة، وأدرك أنّ ما يحدث هو أمر واقع، وانهار من البكاء والعويل، إلى آخر الليل، حيث وصلت خالتي حياة وبقيّة العائلة. من ذلك الوقت صرنا قريبين جدّاً، وصار يطلب إليّ أن أبقى بينهم، وحين أغيب كان يتّصل بي أو يأتي لاصطحابي، وبعد أشهر، وقبل أن تفكّ خالتي الحزن على زوجها، طلبني محمود للزواج.

تزوّجنا بعد السنويّة الأولى، بلا عرس، ولم أرتد بدلة بيضاء، كان احتفالاً بسيطاً لبست فيه فستان سواريه من الساتان الأزرق، وكانت أمّي أسعدَ مخلوق على الأرض، فقد شعرت بزوال همّها التاريخيّ واطمأنّت على مستقبلي ومستقبل أولادي أيضاً. خالتي حياة حسب معرفتي بها، كانت تتمنّى ظرفاً آخر، وزيجة أخرى، لكنّ القدر غلبها، وبرحيل عمّو خليل، الرأس الكبيرة، لم يعد هناك حاجة ملحّة لزيجات المال والبزنس، والأمور معي ستكون أكثر هدوءاً وأماناً من غيري. قالت لي إنّها تمنّت أن تنظّم لي عرساً تحكي عنه حلب، وأن تزفّني بفرقة السيف والترس، وتأتي بصباح فخري ليغنّي حتّى مطلع الفجر، كما فعل في عرس حازم، لكن كلّ شيء نصيب، وإن شاء الله الأيّام القادمة ستحمل لنا السعادة والهناء. ولعلّ هذا ما حصل فعلاً. كنت سعيدة مع محمود، فقد بسط حمايته عليّ، ودرّبني على فكرة أنّنا واحد ولسنا اثنين، ننام معاً وفي التوقيت ذاته، ونستيقظ معاً، وكان هذا الحدث الأغرب في حياتي، فأنا

اعتدت على أن أشتغل في اللحظة التي أريدها، وربّما في منتصف الليل، وأبقى أقرأ حتّى الصباح وأكتب، وبات ذلك مستحيلاً، فكلّما قمت لأعمل، يستيقظ محمود، ويجلس معي، ويشغّل التلفزيون أو الراديو، ويلعب بأعصابي، حتّى إنني صرت أعتقد أنّه يتقصّد تعطيلي. الالتزامات العائليّة كانت قاسية عليّ جدّاً، وكان عليّ أن أنافس خالتي، ودالية، وزوجة حازم في فنون الطبخ، والترتيب، والاستقبالات، واللبس وتصفيف الشعر، والانخراط في السهرات، والأعراس، والعزاءات، وقد ضقت ذرعاً بذلك منذ الأشهر الأولى، ليس لأنّني لا أحبّه، بل لأنّه أكبر من إمكانيّاتي، فلم أتدرّب على الطبخ، ولا على هذه الدقّة في التنظيف، وعلى الرغم من وجود خادمة يوميّة، فـ *"الخدّامة بدّا ستّ"* كما تقول خالتي، التي كانت ترقّع النقص الذي فيّ، فكنّا في الولائم التي لا تنتهي، إمّا أن تطبخ لي في بيتها، وتنقل طناجر اليبرق والقبيوات وصواني الكبب إليّ، وإمّا أن نطلب الطعام من المطاعم، أمّا دعوات محمود المتعلّقة بعمله وأصدقائه، فكنّا نقيمها في (وانيس)، أو (نادي حلب)، أو (فندق أمير). تعرّفت مع محمود، لأوّل مرّة وعن قرب، بطقوس الرجل، كيف يدير البيت، وكيف يتدخّل في تفاصيله، على الرغم من مشاغله الكثيرة، وكيف يكون حميماً في الفراش، وكيف يحلق ذقنه، وينتقي ملابسه وكيف يرتديها، هذا كان يحصل لي للمرّة الأولى في حياتي، وكنت أراقب هذه التفاصيل كلّها وذلك منعني من الانغماس فيها، ولم أكن مستمتعة بقدر ما كنت ناقدة، وكنت أشكو لأمّي تلك الحالة كلّما كلّمتني، فتقول إنّني سأتعلّم وأعتاد على ذلك سريعاً، وإنّ هذه هي الحياة الطبيعيّة لكل العائلات، وعليّ ألاّ أكون جاحدة، فالله اختار لي النصيب الأفضل، الذي

تتمنّاه كلّ بنت: مال، وجاه، وخدم، وحشم، وزوج يحبّني، كما تقول، وأنّ ما عشناه أنا وهي من قبل هو حياة مشوّهة وناقصة، وكنت أحاول أن أقتنع بكلامها، وكانت تنهيه بأنّ عليّ أن أكيّف عقلي أوّلاً، وأن أضع أولويّاتي فلا أكون مشتّتة بين رغبتي في متابعة دراستي، والعمل، والحياة الجديدة المزدحمة، وكانت تقول ما زلت عروسًا، خذي إجازة من ذلك كلّه، من أفكارك القديمة أوّلاً، وغداً سترزقين بأطفال، وسيتغيّر كلّ شيء. بعد فترة قصيرة، ربّما بعد سنة، وجدت نفسي مرهقة، وأحنّ إلى حياتي القديمة، ولاسيّما أنّ محمود طلب إليّ الاستقالة من عملي فرفضت، وذكّرته بمتابعة تحصيلي، وكنت كلّ مرّة أذكّره أنّنا اتفقنا على ذلك، وكان يسكت على مضض. كان في البداية يعيب طبخي ويسمّيه (حشو بطن)، وقلت لنتفق مع مطعم إذن، لكنّ خالتي حياة حذّرتني، فالرجل لا يربطه بالبيت شيء أكثر من أن يجد طبخة أعدتها امرأته، لذا بذلت جهدي وحسّنت نفسي في هذا الجانب سريعًا. كان ما يزعجه في عملي هو أنّه يستيقظ فلا يجد زوجته ليشرب معها القهوة ويدردش معها ويشعر بالعائلة، لأنّني أخرج باكرًا، وكنت قبل الخروج أجهّز الفطور، وأرتّب البيت ليكون رائقًا، وكلّ شيء في مكانه، وأترك أعمال التنظيف الكليّة للخادمة، وأتسلّل بهدوء، إذ عليّ أن أكون في مكتبي عند الثامنة، في حين يخرج هو من البيت في العاشرة تقريبًا وربّما بعد ذلك، ويعود في السادسة، حيث أكون عدت قبله بساعات، طبخت، وقرأت، وكتبت، وتجهّزت لاستقباله، وكثيراً ما كان يتصل قبل خروجه من المكتب، ليسأل إذا كنت أحتاج شيئًا، وممّا طبختنا، ثمّ يقول: كوني مستعدّة للقاء، وهذه العبارة في الحقيقة كانت تضعني تحت ضغط ثقيل لضيق الوقت،

لكنّ علاقتي الجسديّة به كانت تغفر لي كلّ شيء، وكنت أستمتع بقول خالتي: *عاملتيلو حجاب!* وأشعر بنشوة الانتصار في إدارة رغبات محمود بطريقة علميّة، ممّا تحصّلت عليه من قراءاتي في كتب التراث والجنس عند الشعوب، ومن دراستي العميقة للمأسسة عند ميشيل فوكو.

أسترجع الآن أيّامي الأولى مع محمود بعد أن افترقنا، لم نتطلّق، لكنّ كلًّا منّا يعيش وحده في بيت، تركت له الفيلاّ في (القبر الإنجليزي) والمزرعة وعدت إلى بيت أبي في حيّ السبيل، بعد حوالي عشرين سنة من العيش معه، لأكتشف أنّني لم أكن سعيدة، لأنّني لم أكن أولويّة نفسي. كنت للعائلة، وأعرف أنّ كلّ النساء من حولي هنّ لعائلاتهنّ، لكن كنت أحبّ لو أنّ (محمود) فكّر برغباتي كما أريد، لا كما يجب أن تكون الحياة التي اعتادها. قبل أن أطبّق السنتين، كنت قد أنجبت (خليل) وما أن فطمته حتّى حملت بأمير، وضاعت بينهما أيّامي وأُنهكتُ تمامًا، ولم يبق لي من مشاريع سوى إنشائهما، بعد أن تخلّيت عن درجة الدكتوراه، وتركت أوراقي في الأدراج، وقد أحببتهما بطريقة جنونيّة، ولم أتخيّل نفسي يومًا قادرة على الحبّ والتفاني لهذه الدرجة، كما زادت غلاوتي عند محمود وعند خالتي حياة، فقد أنجبت للعائلة صبيّين صحيحين مرتّبين دائمًا ونظيفين (بيغرفوا القلب) كما تقول خالتي، في حين كانت سلفتي أنجبت ثلاث بنات، وخالتي حياة، مثل معظم الحماوات في حلب، تموت في الصبيان، وأمّي أيضًا كانت تجد أنّني ثبّتُّ أركان حياتي بأحسن طريقة، وكنّا جميعًا نشعر بالامتنان، ونحمد الله على فضله، وعطاه، ورضاه.

كنت كلّما التقيت شلّة الجامعة ينفتح جرح الدراسات العليا الذي ظلّ ممتلئًا بالحسرات، ولاسيّما أنّ فرح شقيقة أيّامي نالت الدكتوراه،

وهي تدرّس الآن في الجامعة. نأخذ أولادنا إلى (غراند هاوس) ليلبعوا ونتغدّى هناك ونحكي أخبارنا، وسير علاقاتنا الزوجيّة، وعادات الأطفال والتربية، أو نضعهم في العربات ونمشي بهم في الحديقة العامّة. ظلّت علاقتي بفرح عامرة، وقد تزوّجت، وصار عندها ولد وبنت، وتربّي ابن زوجها الذي تركته أمّه بعد طلاقها. مارلين لديها بنت، وسلوى لديها ولدان. وهكذا توزّعت أيّامي، وقد أخذت من العمل استيداعاً حتّى أربّي الولدين، وكان محمود يراهن على أنّني سأملّ وأستقيل، وكان قد اقترح عليّ أن يفتح لي مشروعاً خاصّاً يموّله: محلّ لبيع الإكسسوارات النسائيّة مثلاً، لكنني كنت دائماً أصرّ على تمسّكي بعملي، وأقول له من الممكن أن أفتح مكتبة مع مقهى ثقافي في المستقبل، لعلّ ذلك يكون في البيت القديم الذي ورثوه عن أبيه في محيط القلعة، وأقول في نفسي سأسمّيها (غرفة حنّا دياب) وسيكون فيها حكواتيّ، بل قاصّون، وروائيّون، يقرؤون نصوصهم، وكان يقول: أنا جاهز. كبر الولدان وهما يقتاتان على عافيتي، أقرأ لهما القصص كلّ ليلة، وأطبخ لهما الطعام الصحيّ، وأتابع تعليمهما بالدقيقة والثانية، وقد قضيت أيّامي في الانتظار أمام معاهد اللغات، ومدارس الموسيقى، والصالات الرياضيّة، أجلس، وأقرأ، أو أتابع التدريبات، أو أتناول قهوتي في أيّ كوفي شوب توفّره أماكن النشاطات، ولا أملّ من الإجابة عنّ أيّ سؤال: كم الساعة؟ ما اليومُ من الأيّام؟ ما عدد نجوم مجموعة الدبّ الأكبر؟ من غير أن يكلّف أحدهم نفسه عناء النظر في ساعته أو في أوراق الرزنامة، عليّ أن أفعل كلّ شيء، وأعرف كلّ شيء. يوم الخميس نسهر خارج المنزل، ويوم الجمعة نقضيه في بيت خالتي حياة، ونقضي العطل الصيفيّة في بيت العائلة في صلنفة، أو

نسافر إلى مرسين، أو بيروت، أو إسطنبول. كان محمود يوسّع أعماله وكنت دائماً معجبة بجدّه وشطارته، وكانت العائلة كلّها تعتمد عليه، وكان يأخذني معه في كثير من رحلات عمله في أوربة. درت معه العالم، وكنت طبعاً آخذ خريطتي وأمشي، في حين يكون في اجتماعاته، وعقود آلاته، كما أنّ له متعته الخاصّة إذ يحب المطاعم والتسوّق، وأحبّ المتاحف والفنون. أخذني إلى فلورنسا، ورأيت قصورها، ومقابرها في مفارقة غريبة، وإلى فينيسيا حيث تجوّلنا في الجندولات بين البيوت، وشممت رائحة هوائها العطنة، وزرت اللوفر، وجلست في مقاهي سان جرمان، وكارتييه دي لاتان، وكنت أرى الطلبة والأساتذة حول الجامعة فتمتلئ نفسي بالحسرات وأتذكر أيامي في جامعة حلب، ونداءً بعيدًا يقول لي سأعود يوماً، وأقول لمحمود كنت أحب لو أنني درست في السوربون، فيقول لأنه يريد أن يغلق الحديث: ما صار شي يا أم خليل، ادرسي. ثمّ يتابع: لو درست في السوربون لن تكون لك الحياة التي تعيشينها الآن! وكنت أسكت لأنني لا أريد أن أجادل. كنت أسكت لأنّ الله تعالى أكرمني بولدين متفوّقين، دخل أمير كليّة الهندسة الميكانيكيّة، وكان يحبّ التخصّص لأنه كان يرافق أباه دائماً إلى المعامل، ويتعرّف إلى المهندسين ويراقب العمّال، ويعرف بخطوط الإنتاج، ويناقش في الآلات والصيانة، وكان منذ صغره يهتمّ بسيّاراتنا، يفحص زيت المحرّك، ويزيد ماء المبرّد، ويضع ماء في خزّان المسّاحات. ودخل خليل كليّة الصيدلة، وكان يريد الطبّ لكنّ مجموعه لم يؤهله لها، وكان يرجونا أن يسافر ليدرسه في الخارج، لكنّنا لم نكن موافقين، وكان محمود قد أقنعه بأنه بعد التخرّج سيرسله لدراسة الماجستير في أحسن الجامعات في

بريطانيا في إدارة المختبرات الصيدلانيّة، وسيكون له عمل في أحد مصانع الأدوية التي كان محمود شريكاً فيها.

كانت حياتي طويلة مع محمود، وقد خضعت لسيف الملل والروتين، في حين أبهجته الحياة الجديدة، مع صبيّة مرحة كما يبدو، كاهلها غير مثقل بخذلان مكتوم، فقد كنت أظهر أسفي على أشياء كثيرة في حياتي وأهمّها شهادتي التي تركتها في المراحل الأخيرة، وكنت ناقمة على من كان السبب وراء ذلك، كما أنّ شعوري بعدم القدرة على التكيّف الكامل مع حياتي في عائلة لا تشبهني، كان يسبب لي التعاسة التي بدت على ملامحي، فهرمت قبل وقتي، وظهرت طبقة سوداء رقيقة تحت عينيّ، وزاد وزني حتّى أنّ محمود قال لي مؤخّراً: يؤسفني أنّك صرت امرأة سمينة، ولا شكّ في أنّه سيراني سمينة بالنسبة لفتاته التي تقضي نهاراتها تسبح في فندق (شهبا الشام)، لتصطاد رجال الأعمال من أمثاله، وفي المساء تصرف نقودهم في حفلات نادي التورينغ، والشيراتون. يمكنني الآن، في بيت أبي، أن أتذكّر بهجتي التي كانت في حياتي القديمة من غير أن يقاطعني أحد، أو يقتحم جنّة ذكرياتي، وأن أستعيد بحريّة علاقتي بغسّان الذي عاش معي مثل نبضة قلب زائدة، موجودة لكنّها لا تظهر أيّة أعراض، ولا تلاحظ إلاّ حينما أقرّر أن أصغي إليها.

أزمة البطاريّات

في صيف 2012 دخل المسلّحون مدينة حلب، واشتبكوا مع قوّات الجيش النظاميّة في حيّ صلاح الدين جنوب غرب المدينة، ومنذ ذلك اليوم ستتغيّر حياتنا إلى الأبد، إذ لم تترك المواجهاتُ لنا فرصة للتفكير، فاستولت المعارضة، التي سمّينهاها الجيش الحرّ، اختصاراً لأسماء كثيرة تقاتل في صفوفها، على عندان، وصارت منطقة الشيخ نجّار ومنشآتها الاقتصاديّة في حوزتها، وعلى الرغم من أنّ المواجهات كانت تشير إلى انتصار الجيش النظاميّ وعدم تسليم حلب، كان محمود قد جزم أنّ كلّ شيء انتهى، وعلينا أن نفكّر بخروج يحمينا ويحمي أرزاقنا، وقد بدأ الاستيلاء على المعامل، وخطف رجال الأعمال، وطلب الفدية مقابل حياتهم المنتهية في غالب الأمر، وكنّا نسمع، في التصريحات السياسيّة أنّ هدف المقاتلين الوصول إلى قلب المدينة، وأنّ معركة حلب هي الحاسمة في إسقاط النظام، الذي كان يدافع عن مكتسباته ومناطق نفوذه باستماتة في ذلك الوقت. فقدت حلب الخدمات الأساسيّة، الماء، والكهرباء، والغاز وكان عليها أن تعود إلى القرون الوسطى، بالترافق مع عمليّات القتل والتنكيل بزعماء العشائر حول محيط المدينة، وتقدّم الجيش الحر المدعوم من تركيا، وتقدّم الألوية الكردية التي تريد أن تستقلّ بمناطق الشيخ مقصود في الشرق، وظهور لواء الأرمن الذين لديهم مشكلة تاريخية مع العثمانيين.

صرنا فجأة على خطوط القتال، لا ننام، ولا نخرج إلاّ للضرورة القصوى، وصارت الاشتباكات تحوطنا في مناطق الزهراء ودوّار شيحان والخالديّة والجامعة، أمّا مناطق حلب الشرقيّة والقلعة والأسواق القديمة فقد كانت مسرحاً لمواجهات عنيفة بين الجيش الحرّ والنظام، ونتج عنها تدميرها بطريقة وحشيّة، ولم يكن سوى قلب المدينة يحاول الاحتفاظ بأنفاسه الأخيرة، وظلّ كذلك لأربع سنوات. قرّر محمود أن يترك فيلا (القبر الإنكليزيّ) في شباط 2013، إذ صارت الضاحية منطقة مواجهات، وأن يأتي مع الولدين ليعيشوا معي في حيّ السبيل، حيث صار المقاتلون من الطرفين يهجّرون الناس من البيوت وينهبونها، أو يسكّنون فيها عائلاتهم، وطبعاً لم يسألني رأيي أبداً، وكان قد مرّ على قطيعتنا حوالي خمسة أشهر، وكنت خلالها أموت من القلق بسبب بعدي عن ولديّ. ذهب محمود قبل أن تغلق المنطقة لتفقّد المعمل والشركة، وكنت أرجوه ألاّ يفعل، وكان ذلك سبباً لعودة الحوار بيننا. كنت أريد أن أناقشه أولاً في علاقتنا، وفي خيانته، وأسأله بأيّ حق سيأتي ليعيش معي، لكن ذلك كان سيبدو تحت القصف والموت المتوقّع في كلّ لحظة سخيفاً جدا! طلب إلى مهندسيه وعمّاله الذين يعيشون قريباً من الشيخ نجّار أن يفكّكوا المعمل ويسلّموه لأحد معارفه من رجال الأعمال الأتراك، الذي كان على علاقة تجاريّة به منذ الانفتاح الاقتصاديّ في أواخر التسعينيات بين الصناعيّين الأتراك وصناعيي الشيخ نجّار، وقال إنّ البيع بثمن بخس أفضل من الخسارة المطلقة. قبض النقود بالدولار طبعاً، وكان يفكّر ليل نهار، ويقول: برقبتي عشرات العائلات، كيف سيعيش المهندسون والعمّال في هذا الوقت الصعب! هزل محمود وأصيب بالسكري، وكان

عليّ العناية به، مع قلقي على الولدين اللذين منعناهما من الذهاب إلى الجامعة، مهما كانت التطمينات. كانت أمي قد تقاعدت وتركت الإمارات هي وعمّو كمال، واشترت بيتاً في أنطاكية مع بداية الأحداث، ورجتنا للخروج من حلب والالتحاق بها، وعرضت أن تعطينا بيتاً آخر، مؤكّدة على أنّ محمود قادر برأسماله الكبير على أن ينشئ عملاً ناجحاً في تركيّا، ويستثمر فيها من أرصدته في الخارج، والأولاد سيدرسون في تركيا، مثلهم مثل الكثير من أبناء العائلات الحلبية والسوريّة، وحتّى أنا يمكنني العمل مع واحدة من منظّمات الإغاثة الدوليّة الكثيرة في أنطاكية. لم يكن لديّ أيّ رأي، أو رغبة بشيء سوى أن أخرج الولدين إلى أي مكان، وبما أنهما طالبا جامعة لن يذهبا إلى الجيش لكن لا أحد يضمن قرارات الدولة، ولا أحد يعرف متى ستنتهي المعارك أو تستمرّ، وكيف سنعيش! كان محمود يطمئنني دائماً، وكان الشرخ بيننا قد ثبت اتساعه عند حدّ معيّن بأن أوقفنا المناوشات بسبب الظرف، في حين استمرّ الطرفان في صراعهما على البلد. قرّر محمود أن يُخرج (خليل) و(أمير) إلى بيروت حيث أحد أصدقاء دراسته، قبل أن تغلق الحدود، وأنّ أحد المكاتب هناك بدأ يرتّب لهما منحاً دراسيّة في بريطانيا. سألته كيف ستدفع، قال: لا عليكِ. لم أكن أعرف كم تبلغ ثروته، لكن أعرف أنّ الليرة السورية في انهيار، وأنّنا لو استطعنا أن ندفع للسنة الأولى فلن نتمكّن من أن ندفع لاحقاً، لكن محمود قال بثقة: شباب بيدبروا حالهم، لا تاكلي همّ، ربنا بيسّر، وأنا عندي ما يكفي. لم تخن محمود شطارته، إذ قلب عمله فوراً من غير أن ينتظر أيّ ظرف ليمرّ، وشارك أحد أصدقائه في مكتب حوالات ماليّة، صار بعد قليل الوحيد في حلب، وعدنا إلى العمل

بالعملة، وكأنّه ورث خبرة والده أيّام الثمانينيّات، وحين حاولت ثنيه، قال: لا خيار، والأمر اليوم مختلف، ومعي ناس ثقال، رتّبوا لي كلّ شيء.

- شركاء من النظام؟

- لا ليسوا شركاء، *لكن يعني كالعادة بدّك تطعمي التسعة لتاكلي العشرة.*

بعد أن سافر الولدان لم أعد خائفة، اعتقدت قبلها أنّي سأموت، أو أصاب بسكتة في وداعهما، لكنّي كنت مرتاحة، كنت أريد أن يصلا إلى مكان آمن، وهذا ما لن أنساه لمحمود، سأغفر خيانته وأذاه لكونه أراح بالي، وأعادني قويّة لثقتي في أنّ ما فعلناه هو الحلّ الأفضل الذي أثبتته الأيّام. بقينا في الحرب وحدنا، وبدأ محمود يكتشفني لأوّل مرّة بعيداً عن الدلال الذي عيّشني فيه، حيث لا خادمة، ولا ناطور، ولا شوفير، أتدبّر أمري في مسألة تأمين الدواء، والخبز، والاحتياجات اليوميّة، وقد فوجئ بأنّني أعرف كيف أركّب جرّة الغاز التي كنت أحملها، وأمنعه من أن يفعل ذلك حرصاً على صحّته الرقيقة: لا تخف فأنا قويّة! ركّبتها بيسر، وقلت له المهم أنّك قادر على أن تأتي لنا بجرّة غاز، فرفع نظّارته ومسح دمعتي انكسار سقطتا على جانبي أنفه.

بقي موضوع الحوالات يقلقني، وقلت له أخشى أن يكون حراماً، قال: أنت تعرفين أنّني لا آكل حراماً، وهذا موضوع نظاميّ ومرخّص. قلت له: لكن ما فعله أبوك كان محرّماً، رفع صوته وكأنّني أدخلت مخرزاً في عينه، قال: أنت لا تعرفين شيئاً، وما الذي جاء بهذا الحديث القديم! قلت له أريد أن أتأكّد من أنّك لا تطعم الولدين مالاً حراماً، فيطلع على جلدهما. قال لي إنّ الحرام هو الذي يجري في البلد، هو عيشة

الرعب والدمار والقلّة التي يعيش فيها البشر، القصف في الجامعات، وعلى المعابر التي قسمت المدينة إلى شرقيّة وغربيّة، والأسعار التي صارت أحدّ من السكين، هذا إن توفّرت البضائع، أقسم لي وقال إنّه مال مزكّى، واحتجّ على أنّني لا أثق به! فنظرت إليه بألم وتهمكّم، وعرف بنظرتي أنّه لا يحقّ له الكلام على الثقة مجدّداً.

* * *

لم يعرف أبي حبيبي أنّه حين اشترى البيت والقبو تحته، ليكون مكتبًا له، كان يصنع لي معروفًا دهريًّا يحفظ به حياتي وكرامتي. حين اشتدّ القصف وصارت المعركة في أطراف الخالديّة، نزلنا إلى القبو، وكان شقّة صغيرة من غرفتين ومنافعهما، إلى جانب حرّاقات التدفئة للبناية، وهذا ما يجعل موقعه خطراً، لكنّي أكّدت لمحمود أنّ أحداً من السكّان لا يملك ليتر مازوت واحد في حرّاقه، ولن يكون هناك أيّ خطر من هذه الجهة، المهمّ أن نكون في ملجأ. كان البيت جاهزاً، فمنذ استقراري قبل أشهر في البيت، رتّبته بعناية، حتّى إنّ (محمود) الذي شعر بالأمان، اعترف بأنّ هذه الثروة لا تقدّر بثمن. يضمّ القبو مكتبة لبابا، وجهاز موسيقى، وأرائك يمكن النوم عليها، وبدا واسعًا، منذ أن تخلصنا من كثير من أشياء طفولتي ومتعلّقات أمي، وقبل ذلك كان مستودعًا لحقائب سفر جلديّة من أيّام جهازها، وألبومات الصور، وسجّاد قديم، ولحف، ودرّاجتي وعربتي، وبعض من ألبسة والدي للذكرى، وقراقيع أخرى، تخلّصت منها أمّي قبل زواجها الثاني بقليل، حيث أشارت إلى أنّ العثّ سيأكلها، فأنا غير مؤهّلة لكي أقوم بتنظيف القبو وتهويته كل فترة وأخرى.

وضعتُ في المطبخ بعض المونة لحاجة الاختباء: قطرميز جبن كبير، ومكدوس، وزيتون، وزيت، وعلب التونة، وأكياس البرغل والأرز، وعلب بسكويت كانت عندي منذ قبل الأحداث، وقد انتهت صلاحيّتها، لكن قلت لنفسي قد تنفع. اشترينا جرّتي غاز، ومولدة كهرباء، وأمبيرات للإضاءة، وغالونات ماء، وعلب ماء معدنيّة استطعنا الحصول عليها بمال كثير، عدا عن أدوات النظافة الشخصيّة وبعض الأدوية، وسائل الجلي. كومبيوتراتنا أيضاً أنزلناها معنا، وتكوّمنا معاً في المكان، لكنّ شيئاً بيننا كان صلباً لا يريد أن يذوب أو يتنحّى، وكلّما اقترب منّي محمود كنت أنفر منه، مع أنّه أجبرني يوماً بعد حربنا على الوصال، وقتها بكيت كثيراً من خيانته، وقال لي: امنحيني فرصة هذه المرّة، وسيعود كلّ شيء أحسن ممّا كان. أقفل من بقي من الجيران باب البناية، وكنّا منذ بداية الأحداث قد ركّبنا باباً مزدوجاً. كنّا نتابع المعركة القريبة على صفحات الفيسبوك في حال توافرها، وكان النظام يقصف مواقع المسلّحين بالبراميل المتفجّرة، ويردّ الجيش الحرّ عليه بالصواريخ، فنسمع صفير الصاروخ، وندعو الله ألاّ يكون موجّهاً علينا، وبعدها يحدث الانفجار، فنسجد شاكرين، ونحن نعلم أنّه أصاب بشراً آخرين! ومع ذلك سمعنا طرقاً شديداً على الباب، ولم نفتح، فعاد الطرق، وقام محمود ليتبيّن الأمر فرجوته ألاّ يفعل، وسمعنا هذه المرّة صوتاً قويّاً لإمرأة مع الطرق: أنا نهلة، جارتكم!

فتحنا لها، كانت الجارة التي تسكن في الطابق الرابع، دخلت مذعورة، وقالت إنها لن تتمكن من البقاء وحدها، كانت خائفة وتريد الانضمام إلينا. رحبنا بها وأدخلناها لتأخذ نفسها من نزلة الدرج، حيث لا

كهرباء حاليّاً لتشغيل المصعد. كانت نهلة أرملة ستينيّة، توفي زوجها المهندس الذي كان يعمل في معامل الدفاع منذ سنوات، ولها بنت وولد يالي وشامل، وقد سافرا إلى ألمانيا مؤخّراً، وهما طبيبان درسا في حلب، وتقدّما بطلب للهجرة إلى ألمانيا، كما فعل كثير من السوريين منذ بداية الحرب، وكانت تشكر الله على أنهما خرجا بأمان، وستلحق بهما في أوّل فرصة، حين تجهز أوراقها. كانت تشتمّ الحال بطريقتها: إن شاء الله نخلص منهم كلهم بأقلّ خسائر! عرضنا عليها طعاماً أو قهوة، فابتسمت وقالت: حين تنتهي الغارة. شعرت بونس بحضورها، وجلسنا ثلاثتنا صامتين بانتظار الفرج. قال محمود: الضرب ليس من جهتنا، لا تقلقوا، كأنّه عند ثكنة طارق، أمّا هنا فهي ملاحقة لفلول المقاتلين فحسب.

هدأت الأصوات بعد ساعتين، وقد نشف دمنا، وقلت لمحمود لنشغّل الأمبيرات قليلاً، فقال: لا داعي لأيّ نور يدلّ على وجودنا، وضعت الشمع هناك، يمكنك أن تكتفي به. قمت لأتناول الشمع من حيث أشار في رفّ مكتبة الموسيقى، التي كانت تخصّ والدي رحمه الله. كانت الأسطوانات مرتّبة في حافظاتها الكرتونيّة، وقد نظّفتها آخر مرّة واحدة واحدة، وتذكّرت مسرحيّات فيروز، ورحمانينوف، وتشايكوفسكي، وكورسكوف، وإديت بياف، وفي الرفّ الأعلى العلبة الجلديّة التي تحتوي كاسيتات القرآن الكريم، ويبدو أنّ أبي كان يحبّ الاستماع إلى صوت عبد الباسط عبد الصمد. حرّكت العلبة، كي أتناول الشمع فوقعت من يدي وأصدرت صوت قرقعة، وصاح محمود: بسيطة بسيطة، وأردت أن ألمّ الكاسيتات التي تبعثرت، فقال: لنشعل الشمعة أوّلاً، وعلى ضوء الشمعة رأيت شيئاً مختلفاً، ومثل الذي فتح الله عليه

فتحاً مبيناً، أو رماه من الواقع إلى زمان قديم، إذ رأيت بين الكاسيتات ثلاثة مختلفة، كتب عليها باللغة الروسيّة، وأغلفتها لا تشبه شرائط سوني التي تملأ الحافظة، لابدّ من أنّها أمالي أبي التي كانت غائبة، والتي بحثت عنها طويلاً، قبل ما يزيد على عشرين سنة. محمود سألني: ما بك؟ عثرت على كنز! قلت له: نعم لكن ليس في وقته، أخذت الكاسيتات الثلاثة، ووضعتها في حجري بعد أن وضعت الشمعة على الطاولة، وقلت له: لو وجدت هذه الشرائط قبل عشرين سنة لما وجدتني اليوم هنا.

- لماذا؟

لم أردّ، وقلت: المشكلة أنّها بالروسي، ولا أعرف ماذا كتب على غلافها، فقال: انتظري قليلاً، ستجدين القوّات الروسيّة تتمشّى في الحارة، عندها اطلبي منهم مساعدتك! لم أردّ، كنت منشغلة باللقيا التي وجدتها، وقد أنستني قليلاً ما نحن فيه، لكنّ ست نهلة قالت: عندما تُفرج علينا، سأقرأ لك ماذا كتب عليها، تعرفين أنّني عشت في روسيا ثماني سنوات، إذ درست الفلسفة، حيث كان زوجي يدرس الهندسة هناك، في منحة من وزارة الدفاع، وقد أنجبت أولادي في موسكو.

لو كنّا في غير وقت الحرب لقلت هذه ترتيبات القدر الذي سيفتح لي عالماً جديداً، لأنّني بعد أن غادرت محمود وعشت وحدي لأعالج جروحي، قررت إكمال دراستي للحصول على الدكتوراه، لكن الآن تحت القصف والموت تظهر الكاسيتات، وتظهر الجارة التي تعرف اللغة الروسيّة، وهي جارتنا منذ الثمانينيّات، فهذا لا معنى له. قرّبت منها الكاسيت الأوّل، والشمعة، وقلت: ماذا كتب هنا، جرّبي أن تقرئي!

نظرت في الغلاف الذي كنت أمسكه من طرفه، وأبعدت إصبعي قليلاً، وقالت: حكاية غير مدوّنة، يعرفها الأهالي.

قضينا الأيام التالية في الترجمة، نستمع إلى أبي، وأحاول تعرّفهُ من جديد، بعد ما يزيد على ثلاثين عاماً من غيابه، وأرسم له صورة حيّة يصنعها الصوت: النبرة، ومخارج الحروف، واللغة الغريبة التي لا أفهمها، والتي تكون فيها نحنحاته أو سعاله أحياناً وهو يحكي، أبلغ منها. كنت أسرح أحياناً في صوته، فيوقظني صوت نهلة، أحيانا تترك الشريط يمشي، كي تفهم معنى المقطع بكليّته حينما تعجزها الجملة والجملتان، فيتدفق صوته، فأودّ أن أقاطعه، وأنادي: بابا، لكنّ السرد يتدفق، صوت الآباء يبعث على الأمان حتّى وهم في عالم الغياب. كان التحدّي الأكبر ليس قدرة السيّدة نهلة على الترجمة، لا سيّما بوجود غوغل، وبوجود أجود المعاجم الروسيّة في المكتبة، بل كان قدرتنا على سماع التسجيلات مع الغياب الطويل للكهرباء. كان عندي راديو ومسجّل كاسيت سوني صغير الحجم، اشتريته عندما كنت في سنتي الجامعيّة الثانية ربّما، كي يكون إلى جانب سريري، وكان خفيفاً، وشكله لطيف بيضاوي ولونه أسود بتخريجات حمراء، كنت أستمع إلى برامج BBC وإذاعة القدس، كما كانت تفعل أمي حينما كنّا معاً، وأسمع نجاة، وفايزة أحمد، وكان لدي كاسيت مفضّل جمّعهُ صاحب أحد محلات التسجيلات جوار الجامعة، وهو تجميع لأشعار نزار قبّاني بصوته، تتلوها المقاطع ذاتها مغنّاة بصوت كاظم الساهر، وعبد الحليم، وماجدة الرومي. في أوّل سانحة استطعنا أن نتحرّك فيها، اشتريت ما استطعت من البطاريّات للمسجّل، كان وجودها نادراً، لكنّني لملمتها من البقّالات الأربع الأقرب

إلى البيت، وكانت تلك أقصى أمنياتي في تلك المرحلة بعد توقّف القصف وانتهاء المناوشات.

من حسن حظّي أنّ نهلة كانت مطواعة وراغبة في مساعدتي، ولم تتململ من الترجمة، بابا يحكي وهي تترجم، وأنا أكتب، تركنا مفردات كثيرة ليفسّرها السياق، أو أنها كانت تكتبها بالروسية لتبحث عنها لاحقاً. كانت تقول إنّ اللغة مثقفة جداً وغير دارجة، والمفردات لها استخدامات خاصّة، ربّما اصطلاحيّة. كبّسنا أزرار المسجّل كثيراً، بعد كلّ جملة، نشغّله ثمّ نوقفه، ثمّ نعاود التشغيل، وقد أُنهك بطريقة لم يشهدها خلال السنوات الطويلة التي عاشها معي. كان بحالة ممتازة، والشرائط أيضاً كانت رغم مرور الزمن بحالة ممتازة. لم نأخذ وقتاً طويلاً في الترجمة، كانت نهلة تتكلّم بالعامية وأنا أكتب كيفما اتفق، ووجدت أنّ بابا كان يروي حكايات كثيرة، وليست مجرّد معلومات، يرويها باطّراد ليقدّمها لأستاذته، وكأنها المسوّدة الأخيرة لمشروعه، ويجب أن تكون مضبوطة. بعد فراغنا من الترجمة، سيكون لديّ عمل كثير! سأعود إلى أوراقي المهجورة، وسأعاود تسجيل أطروحتي للدكتوراه، بعد انتهاء الحرب، فلابدّ من أن تنتهي، ولعلّي سأبحث في الأطر القانونيّة التي ستعيدني إلى صفوف الدراسة، وسأقوم بربط ما وصلت إليه في البحث مع ما استجدّ من معارف لديّ، بعد أن أحرّر الترجمة للحكايات بين يديّ، والتي أعتقد أنّها آسرة، وستشكّل فتحاً في إطار الدرس المورفولوجيّ الثقافيّ، وسأضع الترجمة كاملة في ملحق لأطروحتي، وبالعنوان ذاته الذي وضعه أبي.

الفصل الثاني

حكاية غير مدوّنة، يعرفها الأهالي

نداء الحبّ

دخلت العربتان باب أنطاكية، تتبع إحداهما الأخرى، وانعطفتا باتّجاه محلّة العقبة أقدم حيّ مأهول في العالم. كانتا مغطّاتين بإحكام، بحيث لم تميّز (فتوح) رذاذ مطر تشرين الأوّل إلاّ من نقراته على الجلد السميك للمقصورة. صهل أحد الأحصنة، فردّ عليه آخر، وكأنّهما يتشاكيان انزلاق حدواتهما على الدروب المرصوفة بالحجر الصقيل. توقف الموكب أمام دار (رجاء الدين الجوهريّ) كبير تجّار الصابون في ولاية حلب، وانبرى المرافقان من العربة الخلفيّة لمساعدة سيّدتهما على النزول، يتبعها أخوها نامق بك، فيما نزلت خلفها خادمتها حاملة حقيبة اليد، وجبّة الجوخ التي ألقتها سريعاً على كتفي (فتوح) خشية أن تلفحها الريح.

كان يفترض أن تصل في الصباح الباكر، بعد رسوّ السفينة التي أقلّتهم من إسطنبول إلى إسكندرونة، لكنّها أحجمت عن رحلة الليل، ليس خوفاً من قطّاع الطرق، أو وحوش الغاب، ذلك أنّ طريق المسافرين سالكة وآمنة، وليس للخوف مكان في ظلّ ولاية السلطان الأعظم، فدوريّات الخفارة تنتشر على طول الطريق، والكورات تعجّ باستراحات المسافرين، وتتنافس في أداء خدماتها على الوجه الذي يقدّم الراحة والمتعة. لكنّها أرادت أن ترى الطريق في ضوء النهار، فالنهار له عيون كما

يقال. تحبّ (فتوح العارفين) مشهد البسيطة خالية من العمران، كأنّ الخليقة وجدت للتوّ، ثمّ فجأة تلوح مدينة بعيدة تخرج على حين غرّة من بطن الأرض كأنّ ماردا رفعها، أو أنّها تنبجس من قعر البحر. كانت رحلتها الأخيرة التي انطلقت من ميناء إسكندرونة نحو حلب طويلة، إذ قطعوا أربعًا وعشرين ساعة في البرّ على ثلاث مراحل، بدّلوا فيها ناقلاتهم، وكان آخرها حصولهم على هاتين العربتين الفارهتين.

توقّفت العربة في (خان العسل) أمام الاستراحة الأخيرة قبل الدخول إلى المدينة، فلابدّ من تبديل الخيول المنهكة، وتناول وجبة خفيفة قبل الوصول إلى المحطّة النهائيّة التي قد يستغرق الطريق إليها ربّما ساعتين. تمتدّ بلدة خان العسل على أرض منبسطة تغطي ظهرها بساتين الجوز، والتين، والتوت، وتنتشر في العمق بيوت حجريّة حوّلها أصحابها إلى ورشات لإنتاج العسل. غَمست فتوح لقيمات من الخبز بالعسل المصفّى، مع شيء من القشطة الطازجة التي تقدّم معه، واكتفت بذلك، ثّم طلبت القهوة. لا تريد أن تأكل أكثر، فلابدّ من أنّ مائدة عامرة بالأطايب تنتظرها في بيت أبيها. أرادت أن تتمشّى قليلاً في البستان المحيط بالاستراحة، كان الجوّ عبقًا برائحة مطر وشيك، والهواء بارداً قليلاً، وصوت عصافير تنشد الدفء ينتشر في الفضاء. تمشّت في ممرّ مرصوف بالحجارة، لتخرج إلى بستان مجاور فيه قيساريّة صغيرة، توقّعت أن تكون سوقًا لمنتجات أهل البلدة التي يبيعونها للمسافرين، فكانت مجموعة غرف بأبواب مغلقة متجاورة. دفعت الباب الأوّل، لتجد غرفة خالية إلاّ من حصر مفروشة، ورائحة الخضرة تملأ فضاءها، رائحة مزعجة، ولا يوجد أثاث أو أحد. أغلقت الباب، وفتحت الغرفة الثانية،

كانت دافئة، ولها الرائحة ذاتها، وأرضها مفروشة بورق نباتات طازجة، خطت نحو الداخل، كان صوت خشخشة واضح تسمعه الأذن على خلفيّة من السكون. لاحظت ما يشبه الكرات أو القناديل البيضاء الصغيرة تتدلّى من السقف الواطئ، لكن لا تعطي ضوءاً، كانت أغصان شجر يابسة معلّقة بحبال، ومثبّتة بحلقات حديديّة إلى السقف. يمكن لها أن تمسك الكرات البيضاء مسك اليد، تناولت كرة، منها، ملمسها ناعم يثير القشعريرة، فعلق بيديها خيط حاولت أن تتخلّص منه، فخرج سائل لزج، وأدركت أنّها للتوّ قد خنقت دودة القزّ داخل شرنقتها، وأنّ تحتها على الحصيرة آلاف الديدان تقضم ورق التوت المقطّع، وبينما هي منهمكة في الخلاص ممّا علق بكفّها، كان أحدهم قد دخل ورفع صوته بغضب:

ماذا تفعلين! كيف دخلت هنا.؟ لقد خرّبت الدنيا...

ارتبكت فتوح، وأسدلت غطاءها على وجهها، وسارعت بالانسحاب، وهو ما يزال يحتجّ: الله يسامحك، خرّبت الشغل، وأرعبت فراشاتي، وأدخلت البرد إلى الحجرة...

كانت تتمتم بعبارات الاعتذار: سامحني يا أخي ظننت أنها محلات لبيع العسل والجوز...

- هذا حرير يا خانم، حرير طبيعي، ليس مثله في بلاد الصين أو الهند.. الله يستر هذا الموسم، الله يكملها على خير...
- سأدفع ثمن الحاجة التي خرّبتها، كم ثمنها؟

بدأت غضبة الرجل تتلاشى، وهو يعيد تعليق الغصن، وينظّف بواقي الشرنقة المتضرّرة...

- اذهبي يا سيّدة، لا أريد تعويضاً، سأعدّه قضاء وقدراً!

نظرت فتوح إلى الشاب الواقف أمامها، لم يتجاوز العشرين، وكان مع غضبه لطيف المحيّا، أبيض، ببشرة محمرّة، ولحية خفيفة بنيّة، وعينين لوزيّتين صغيرتين داكنتين، يلفّ على رأسه شاشاً أبيض، وليس عليه مئزر، إنّما اكتفى على ما يبدو بلباس العمل، السروال الأبيض والقميص، وصدريّة الجوخ. رفعت فتوح طرف خمارها، وكشفت وجهها محدّقة به، وقالت: سأشتري الحرير.

- أيّ حرير؟
- هذا المعلّق كلّه.
- لم يجهز بعد، ماتزال الديدان في الداخل كما رأيت.
- لا بأس، سأشتريه الآن، وأستلمه حين يصير جاهزاً. أنا مصرّة، أرجوك.

تعرف فتوح أنّها يمكنها أن تجعل أخاها نامق يبيعه حالما يصل أوّل خان في حلب. ترك عمر ما في يديه، واقترب منها:

- أنت خوجة فتوح، صح؟ المعلّمة فتوح، معلّمة أختي (نور العيون)! درّستها في مكتب جامع القيقان في العقبة!
- نعم، أنا هي.
- أنا عمر، عمر القزّاز، كنت أرافقها، أوصلها وأعود لآخذها.
- عمر، ما شاء الله! كنت صغيراً وصرت شاباً ملء العين!
- وأنت أيضاً!
- أنا ماذا؟
- أنت أيضاً شابّة، قالها بصوت متقطّع...

ضحكت فتوح، وقالت: شاطر عمر، كيف عرفتني؟ فقال في نفسه: وكيف لايعرف المرء أميرة أحلامه!

لم يكن لعمر أن يخفي ارتباكه برؤية فتوح التي طالما كان معجباً بها، وكان في السنة التي قضتها في حلب تعلّم البنات مبادئ القراءة والحساب، والدين، والسِيَر، ينتظر يوم الدرس ليطلّ من الحجرة فيراها تقرأ في كتاب، أو تراجع مع الفتيات دروسهنّ، وكان صوتها في قراءة الشعر يسحره، حتّى وهي تعلّمهنّ أصول النحو، كان يشعر بأنّ بلبلاً يغرّد، وكانت تسأله دائماً عن أحواله، وعن مسيرة دراسته، ومطالعاته، وتحثّه على متابعة العلم، ولطالما حمل لها الكتب والجلود، ونقلها معها من المكتبة إلى حجرتها في المسجد، وقد ساعدها مرّات في إيصال عدّتها إلى دار أبيها. كان عمر القزّاز مفتوناً بطلعتها، ولعلّها من النساء القلائل، من خارج محيطه اللائي رآهنّ بلا حجاب، إذ كان طفلاً واستطاع أن يتأمّل جمالها الفريد الذي لا يشبه جمال امرأة عرفها من حوله: امرأة كاملة، حلوة الطول، ممشوقة وممتلئة، زهراء البشرة، وفيها نمشات خفيفة، عسليّة العينين، رموشها طويلة داكنة، وشعرها المحمرّ قليلاً، أثيث، ومموّج، وطويل، تقسمه من المنتصف لينسدل على الجانبين، وكلما انحسر غطاء رأسها الذي لم تكن حريصة على تثبيته أمام عمر، لمعت صفحة جيدها تحت شعرها كالتماع البرق، وإذ كُشف ما تيسّر من مجلى الصدر تعلّق بصره بالنمش مثل نقش نجوم القصب على قماش الحرير الأبيض، والذي كلّما رآه في حوانيت سوق القماش، ذكّره بها. حين قالوا إنّها تزوّجت بكى، بكى كثيراً، وشعر بأنّ قلبه مكسور، وأنّ العالم في عينه أضيق من خرم إبرة!

- عمر سأدفع ثمن الحرير، كما قلت لك:
- فداك كلّ الحرير يا خانم، سامحيني كنتُ غليظاً معك، لم أعرفْك!

أصرّ على أن يثنيها عن ذلك قائلاً: لا يستحقّ أبداً.

- إذاً أنت تعمل هنا.
- لدينا كما تعلمين حوانيت في خان الحرير، نبيع ونشتري، مع أبي وإخوتي، لكن هذه المزرعة لي، اشتريتها بحرّ مالي. ذهبت إلى الحجاز، وتاجرت بالحرير، وكسبت مالاً كثيراً، ولله الحمد، أسّست عملي، ولم أتوقّف عن المذاكرة!
- ما شاء الله، كان! حججتَ إلى مكّة؟!
- الحمد لله والشكر، حججت واعتمرت ونسألُ الله القبول، وأقمت سنة وستة أشهر في مكّة، ولولا إشفاقي على أمّي التي أوصتني بالعودة السريعة، لتركت كلّ شيء واخترت جيرة البيت الحرام!

رأتْ فتوح في عينيه تلك النظرة التي عادة ما تكون سبيلاً إلى كلّ قصّة عشق تستحقّ أن ترويها الحكايات، وحين لم يحوّل نظره عنها، على غير ما هو متوقّع، ارتبكتْ، وأسدلتْ خمارَها على وجهها بحركة مباغتة، ومضت، فلم يعد عمر الولد الصغير الذي تسخّره في حاجاتها، لقد غدا رجلاً حقّاً.

دبّت الحركة في المنزل الكبير، ترحيباً بالابنة الغائبة منذ سنوات، فتجمّع الإخوة، وأزواج الأخوات في المربّع، في حين بقيت النساء في الحرملك، ذلك أنّ (نامق) ليس شقيقهنّ، بل هو أخٌ لأختهنّ فتوح من

زوجة أبيهنّ الأولى التركيّة، التي تزوّجها رجاء الدين في إحدى رحلاته إلى إسطنبول، وكانت قد اشترطت عليه البقاء هناك في بلادها، ومتابعة تجارته العامرة من عاصمة الدولة، وبعد أن صارت على ذمّته، لم يتمكّن من الوفاء بالشرط لظروف العمل المتغيّرة، والتي لا تأتي غالباً على هوى العباد، لكنّها لم تتقبّل ذلك مطلقاً، وعدّته تراجعاً منه بعد أن نالها، ونكثاً بالعهد بعد أن استأمنته على حالها، فوصلا إلى أبغض الحلال.

لقد تأثّر رجاء الدين كثيراً بهذا الطلاق، فبالنسبة له ولآل الجوهريّ فهو الحدث الأوّل في العائلة التي ترى أنّ الطلاق لأراذل الناس، ولا يليق بكبرائهم، وفي الحقيقة لقد أحبّ رجاء الدين زوجته (كلسران) بجنون، وكلسران هذه تَمُتّ بنسبها من جهة أمّها إلى أسرة آل طغرل السلطانيّة. أبوها قاضٍ ذو مقام مهيب في الدولة العليّة، من بيت علم وأدب وخلق، وهي امرأة مثقفة وحافظة لكتاب الله، تتقن العربيّة والفارسيّة إلى جانب التركيّة، وقارئة شغوفة بسير ملوك الأمم، وأخبارها، وعبرها، وآثارها الأدبيّة الخالدة، وهذا ما ورّثته لفتوح التي ولدت قبل فراق والديها بسنة، وبقيت مع أمّها في دار قاضي قضاة السلطنة، حيث ستنشأ على حبّ العلم والمعرفة، ودراسة أصول الدين، والأدب، والمنطق. بعد أن تزوّجت كلسران بأحد مستشاري السلطان، وأحد الأكابر في بلاطه، زارت معه حلب للمرّة الأولى حيث كان مبعوثاً رسميّاً إلى الوالي، وفي تلك الزيارة التقت فتوح بعائلتها. كانت آنذاك صغيرة في السادسة من عمرها، وأحبّت حيّ العقبة وناسه، والاحتفالات التي شهدتها فيه، ودلال والدها، وأعمامها، وعمّاتها، وبقيت تلك الذكريات في خاطرها، وحين شبّت وأرادت أن تثبت ذاتها وتؤكّد حريّة انتمائها، راسلت والدها وزارته في

حلب، وبقيت عنده ما يزيد على السنة، حيث كان يؤجّل السماح لها بالعودة إلى أمّها محاولاً إقناعها لتبقى معه بقيّة حياتها، حتّى يمكن أن نقول إنّه احتجزها.

في ذلك الوقت عاملها الجميع كملكة البيت، بل ملكة حيّ العقبة، إذ شعروا بأنّهم قد تشرّفوا بها سليلة للمجد العظيم، وهي بِدَوْرها بادلتهم الحبّ والعطف، وحملت إليهم الهدايا السنيّة من المجوهرات الثمينة، وأقمشة الهند، وأردية الفرو من بلاد الصقالبة. كان رجاء الدين يشفق عليها ملء جوارحه، ويشعر بأنّها أحبّ أبنائه إليه، فهي وإن كانت تترعرع في قصور السلاطين، قد عاشت دخيلة بلا عطف الأب، ومساندته، وحمايته، وبعيداً عن عزّه، فرجاء الدين ليس قليلاً، إنّه شهبندر، ويعرفه العالم بملك الصابون، وحلب ليست بحال من الأحوال أقلّ من إسطنبول. أمّا فتوح فتنتابها مشاعر متناقضة تجاه والدها: عتب كبير كبير، ومحبة الفرع للأصل، ورغبة في مجادلته ومعنادته، عقاباً له على ذلك البعد، على الرغم من يقينها بأنّه بعد قسريّ.

أحبّت فتوح حلب في هذه الزيارة أكثر، فهي الآن امرأة أكثر وعياً ومعرفة من سابق عهدها، وقد جاءت لتداوي جراحاتها بعد حادثة موجعة باغتتها في أوّل حياتها، إذ فقدت على حين غرّة الرجل الذي اختاره قلبها. حين ظهرت لها أبواب المدينة، شَغَفَها مشهدُ قبابها الرماديّة المصبوبة بالرصاص، تلمع تحت شعاع الشمس، وسط خضرة أشجار السرو، تطلّ وتغيب بين التلال ودغلات الشجر الأخضر، كأنّها تلعب مع الرائي لعبة التجلّي والاختفاء، وتمنح الشعورَ بالجلال، ورغبةً لا تقاوم بفتح مغاليقها، والوصول إلى أعمق أسرارها.

أُغرم نامق بك بالمدينة التي تَردّد عليها في رحلات تجاريّة متعدّدة، فهي بالنسبة له أهمّ من الهند وأقرب، يرافق أخته، ويسعى في تجارته، ويعقد الصفقات مع تجار البندقيّة، وبريطانيا، وهولندا من خلال القنصليّات، ويلتقيهم في خاناتهم في حلب، كأنّه التقاهم في مواطنهم الأصليّة.

كانت فتوح تحدّث نفسها بهذه الزيارة، التي لم تكن بهدف رؤية والدها فحسب، بل من أجل أعمال، ولقاءات خطّطت لها من قبل، وذلك ليس تفريطًا في حقّ الوالد ولا أنانيّة منها، إذ يمكن للمرء أن يجمع بين نيّتين، وهي بكلّ حال تَشعر في هذه البلد بحريّتها، فلا أحد يحاسبها على خروجها ودخولها، لكنّها أيضًا تلتزم بأعراف المكان بذكاء لا تثير معه حنق أحد، وهكذا تصل إلى أهدافها، وتنال محبّة الجميع، بلا صدامات، وإنّ كلمتها عند أبيها وأهل بيته لا تصير اثنتين، وكانت تقول في نفسها إذا كنت في حلب فافعل كما يفعل الحلبيّون. كانت حين تخرج تبالغ في تغطية نفسها، فتستعمل (يشمك) تسدله على وجهها، أثخنَ من ذلك الذي تستعمله في إسطنبول، حيث أمكنها هناك التخلي عنه في المرّات التي ظهرت فيها في القصور وحفلات السفارات، كما تفعل الأوربيّات، وكذلك حين تتنقّل بين أروقة قصر توبكابي ومكتباته، وهي تقوم بعملها في تدريس الأميرات الصغيرات.

وضعت فتوح في مخطّطاتها أن تتقصّى عن (حنّا دياب)، الذي سمعت به أوّل مرّة من باتريك الطبيب في زيارتها السابقة، ومن عجائب الصدف أنّها التقته مؤخّراً في رحلتها على متن السفينة، إذ فتحت نافذة الحجرة، وكانت تشعر بغثيان، تريد هواء باردًا يحسّن نفسها، راجية الله

ألاّ يعاودها الدوار، فما هي سوى سويعات ويصلون ميناء إسكندرونة، وتضع قدمها على البرّ. يصيبها الهلع كلّما فكّرت في أنّها في عرض البحر، حيث لا مفرّ من الماء إلّا إليه، ثمّ تعود فتستغفر، مؤكّدة لنفسها أنّ كلّ شيء بيد الله، أهل البرّ وأهل البحر. جاءها صوت رجل يحكي، لا يقاطعه سوى صوت تراشق الموج مع خشب المركب، وبعض طيور البحر التي لا تني تقترب من السواري ثمّ تغادر. كان الصوت منفرداً لشاب لهجته حلبيّة، استأنست بمفرداته، وبلكنته المسيحيّة بما فيها من بتر، وتفخيم لحروف عدّة، وبدا أنّه يكلّم نفسه، ثمّ خمّنت أنّ حوله جماعة تصغي، كان يحكي حكاية، حكاية أعجبتها:

"وحين أشرف معلّمي على الموت أشار لي أن أفتح صندوق الحكمة الخاصّ به، وأخرج حنجوراً صغيراً فيه سائل، وأن أصبّ في كأس مقدار إصبعين من النبيذ وفوقها ثلاث نقط فحسب من ماء الحنجور، ففعلت، وشربها، ونام من الليل إلى الصباح، فاستيقظ معافى، رمى عكّازه، واغتسل، وغيّر ملابسه وعاد أحسن ممّا كان، فقلت له: لماذا يا معلّمي تركت نفسك ليدركك الهلاك، والدواء في متناولك! فقال إنّه حين يئس من الشفاء، اضطر لاستعمال هذا السائل الذي قطّره من عشبة نادرة، بحث عنها أكثر من عشرين سنة، ليصنع هذا الإكسير الذي يدفع عن الإنسان الأعراض والأمراض، وقد دلّه عليها أحد الرهبان الذين عرفهم في دير مار فرنسيس في مدينة باريز، ذلك أنّه في عيد القديس المذكور يعطى الغفران الكامل للمعترفين، ويتناولون الأسرار المقدّسة، فصدف أن كان كاهن جالساً في كرسي الاعتراف، فسجد أمامه شابّ بهي الطلعة، طالباً الغفران، وبعد أن رشمه الكاهن بإشارة الصليب، قال

الشاب: يا أبتِ! صار لي أكثر من ستين سنة لم أعترف، فغضب الكاهن عليه، وقال: يا بني تكذب، وأنت تعترف! كيف تقول مضت عليك ستون سنة وأنت على أكثر حال في الثلاثين من العمر، أما علمت أنّه لا يجوز الهزل في مثل هذا الموقف!

فتوسّل الشاب للكاهن ليصدّقه، وقال: يا أبونا أرجوك، فلتسمع حكايتي حتى النهاية، ثمّ احكم عليّ..."

سكت الصوت الذي يحكي الحكاية، وانقبض قلب فتوح، إذ خشيت أن يتوقّف الراوي عن روايته لأيّ سبب كان، وتعالت الأصوات من تحت الطاقة: وبعدين يا حنّا، يا حنّا وبعدين...

قال حنّا: أفتكر أنّ الطبّاخ قد هيّأ لنا العشاء، نكمل بعد الأكل، فصاح أحدهم: *هات (تقلي) النبيد يا معلّم!*

وهبّت رائحة طعام لذيذة مشهّية، رائحة سمك مشويّ بالثوم والريحان، مختلطة برائحة خمرة طيّبة.

صاح حنّا: *هات خاي المايدة هون*. الحمد لله على نعمه، قتلنا الجوع في باريز! لا أريد أن أتذكّر تلك الأيّام، كدت أموت من المرض، والبرد، والوسخ، والله ما شبعنا الخبزة، ولولا القمح الذي أتى من بلادنا إلى بلاد الفرنساوية، لماتوا هم من الجوع أيضاً. مرّت شهور طوال قطعت فيها الرجاء من الحياة بسبب الحمّى، وما وجودي هنا اليوم إلاّ بسبب من عناية الله تعالى له المجد، وليس بمعرفتي أنا العبد الفقير. حتّى أكل الدير كان أحسن بكتير، على الرغم من طقوس الترهيب التي كانت ترافقه قبل الوجبة، من رواية أخبار شهداء المسيحيّة وعذاباتهم الفادحة، ورؤية جماجم الكهنة الذين قضوا في صيامهم مصفوفة على الرفوف فوق

المائدة! قال واحدهم: يا معلّم حنّا، لو خيّروك بين الدير الذي لبست فيه ثياب التجربة في طرابلس، وبين عيشتك في مدينة باريز، ماذا ستختار؟

- أختار حلب.

فضحكوا، وصاح أحدهم: معلّم!

- يا أخي، تذهب إلى باريز لتكون في بلاد المسيحيّة، فيقولون لك: راح المسلم وأجا المسلم، وتذهب إلى الدير بحثًا عن السكينة والحكمة، فتجد نفسك أقلّ من التجربة، مغلوبًا وآسفًا على نفسك الضعيفة، ولولا لطف الأب الذي وعظني قبل خروجي من الدير لكنت قضيت من الحسرة على نفسي، قال لي: يا بني، كلّ الذين خرجوا من المبتدئين، لن أقبل عودة أيّ منهم ثانية، ولكن إذا عدت أنت فسأقبلك، فشكرته، وقلت سأنظر إلى أين سيوجّهني الله، وصرت أبكي، فقال، وقد باركني: هوّن عليك يا ولدي، وامض بسلام فيمكنك أن تجد الله خارج أسوار الأديرة أيضًا! وكان معه حقّ، ففي كلّ رحلاتي كنت أجد عجائب الله في البرّ والبحر، على سطوح المراكب وعلى ظهور الدواب، في الجبال، والغابات، وقصور الملوك والسلاطين، ومرّات ومرّات رأيت رحمته رؤيا العين تعمل في مصيري، في جسدي ونفسي، ولا يمكن إلاّ لأعمى بصر وبصيرة أن ينكرها.

بقيت فتوح تنتظر فراغهم من الطعام، وقد أسرتها عباراته الأخيرة! كانت مستلقية في فراشها، تاركة النافذة مواربة خلف الستارة، وكانوا قد انتهوا من طعامهم وبدأوا بشرب القهوة، وفاحت رائحة البنّ المحروق

مع تتن الغلايين، فقال المدعو حنّا بصوته الهادئ، فلنرجع إلى ما كنّا بصدّده:

"قال الشاب للكاهن، يا أبانا، إنّي خرجت للسياحة في بلاد الله، وكان لي من العمر عشرون سنة، وسُحْتُ بعدها لستّين سنة أبحث عن الحشائش والعقاقير المرسومة في الكتب العتيقة، فوجدت تلك الحشيشة التي كانت غايتي ومرادي، وهي حشيشة الإكسير، ونجدها في كتب اليونان باسم بيروا فيلوسوفة، أي حجر الفلاسفة، فعاملت شيئاً منها كما في الوصفة التي معي، وركّبت مسحوقاً، ولمّا اكتمل، جرّبته..."، وبعدها حطّ النوم على فتوح، ولم تدرك بقيّة الحكاية.

استيقظت في الصباح، وتذكّرت ما حدث الليلة الماضية، وملأتها الحسرة على تفويتها مجريات الحكاية. نظرت من النافذة، كان بعض المسافرين يقفون على سور المركب يتأمّلون البحر، وآخرون يجلسون على الدكك والكراسي الموزّعة على السطح، ولا يوجد أثر لروّاد حلقة الليلة المنقضية، وكأنّها حلم وقد اندثر. قضت سحابة يومها مكتئبة، بعدما بحثت عن الرجل المدعوّ حنا، ولم توفّق في الاستدلال عليه، وانتظرت حلول الليل، علّ شمل تلك العصبة يلتئم من جديد، وعزمت على أن تلتقي في حلب بصاحب الحكاية ليكملها لها.

***

حين أصبح الصباح في حلب، كانت جاهزة لبدء برنامج زيارتها. ارتدت فوق ثوبها الصوفيّ البنفسجيّ جبّة الجوخ الرماديّة، وكانت قبل قد مشّطت شعرها وعقصته على شكل كعكة على تاج الرأس، وتناولت

قهوتها المعطّرة بالمسك، ثمّ أغلقت باب غرفتها بالمفتاح، إذ لا تريد لأحد أن يعبث بأغراضها، ولو على سبيل الرغبة في ترتيب الغرفة. تسلّلت خفية كيلا توقظ أحداً، وكانت إحدى الخادمات تقطّع العجين المخمّر لإعداد الخبز، رأتها من شبّاك المطبخ، فتجاهلتها. لقد أخبرت والدها منذ الليلة الماضية برغبتها في زيارة ضريح سيّدنا زكريّا باكرة، ثمّ ستذهب إلى المكتب في المدرسة الخسرويّة لتتبرّع ببعض الكتب، وتوصل رسائل تحملها من بعض الأساتذة في إسطنبول، هذا المجمّع بتكيّته العامرة هو الأحبّ إلى قلبها، فقد خطّطه المعمار الشهير سنان، الذي كان صديقاً حميماً لواحد من أجدادها في إسطنبول، كما روت لها والدتها. طلب إليها أن تكون برفقة أحد إخوتها أو خدمها، فرجته أن يتركها ترسم رحلتها بنفسها، وقالت له إنّها تعرف مماشي حلب كما تعرف كفّها، وإنّ سنوات قليلة من الغياب لا يمكنهما محو خريطة المدينة من ذاكرتها، وحتّى تحسم الموضوع، قالت: أبي، لا أحد يضيع في حلب.

فَتحتِ الباب الخشبيّ الثقيل بعزم، كأنّها تهرب من أيّ سؤال أو قيد، فطارت أمامها طيور القاق السوداء وهي تنعق، وتفرّقت في السماء تاركة الحَبّ الذي كانت تنقره على عتبة دار الجيران. تعجّبتْ من حجمها الكبير، وقالت في نفسها لابدّ من أنّ الأهالي يطعمونها بسخاء من خيراتهم. استقرّت القيقان على النوافذ وفي كوّات الجدران. أسدلت فتوح اليشمك على وجهها حين شعرت بحركة حولها، بعد أن عبّأت صدرها بهواء حلب العذب، بارداً وجافّاً، كما تحبّه، ويشفي العليل.

خرجت من العقبة، وانعطفت جنوباً، فواجهتها القلعة بسورها العتيد، وببرجيها المرمّمين حديثاً. كلّما فكّرت في أنّها تنتمي بشكل

ما إلى هذا المكان تشعر بغبطة، قد لا يعرفها المقيمون هنا، الذين اعتادوا جيرة هذه الآبدة العظيمة. فكّرت كم من الأبطال والمحاربين سقطوا على هذه الأسوار الشامخة، فأعزّ الله من شاء، وأذلّ من شاء، وكم من الجيوش مرّت بعديدها وعتادها على هذه الطرقات العتيقة، وصارت حكايات وأحاديث، وكم من عروش أحاطت بها هذه الحجارة الرماديّة الكاتمة للأسرار، ثمّ بادت!

ستذهب إلى المكتب حيث تقام حلقات دروس العلوم الشرعيّة والآداب الإسلاميّة، وستلتقي بالشيخ نبهان وجماعته، تسلّمهم الكتب والرسائل. تعرف أنّ وجودها ليس مستحبّاً هناك بوصفها امرأة، ويمكنها ارتياد حلقات الدرس في الجوامع الصغيرة بين الحارات فحسب، لكن لا بدّ لها من أن تنهي ذلك، لتنتقل بعدها إلى شمال المدينة حيث ستسلّم المخطوطات الأخرى إلى الأب يوحنّا. لم تشغلها هذه الارتباطات كلّها عن الشيء الأحلى الذي تحتفظ به في بالها، وستنتظر اللحظة المناسبة لحدوثه، فإن لم يحدث صدفة خلال يوم أو يومين، ستحدثه هي بنفسها بأيّة طريقة كانت، فهي تريد لقاء الطبيب باتريك في أسرع وقت، ففي قلبها عصفور ينقر مضطرباً، ويسأل حلاوة السلام والكلام.

* * *

في المرّة السابقة التي زارت فيها فتوح العارفين حلب مرضت مرضاً شديداً، لم يعرف الأطبّاء له دواء. رقدت في الفراش أيّاماً تعاني من حمّى شديدة، وأكثر ما كان يخيف الناس في ذلك الوقت هو الحمّى التي لا يعرف سببها. كانت تبدو في تلك النهارات الخريفيّة أفضل، وتستطيع

تناول صحن من حساء الدجاج، وتتمشّى قليلاً في الحوش لتتحرّك دورتها الدمويّة حسب أوامر الطبيب، لكن ما أن يحلّ الليل حتى يصير جسمها مثل الجمر المشتعل، وتخرج كلّ ما في جوفها مرّتين أو ثلاثًا، حتّى تستفرغ عصارة معدتها، ثمّ تتعرّق حتّى تبتلّ ثيابها، لتبدّلها لها إحدى الخادمات، ثمّ تخلد للنوم بعد أن تفقد كلّ طاقتها، ويصير جسدها مثل الخرقة. وكانت في أثناء سخونتها تهذي باسم أمّها، وكأنّها تطلبها لتكون معها في محنتها، وهذا ما كان يزيد في همّ الجوهريّ الذي أرّقته حال ابنته، وحزن عليها حزنًا شديداً وكان يخشى من أن يفقدها، ولام نفسه أشدّ اللوم على أنّه سرق الصبيّة المسكينة من أمّها، وحرمها حنانها وهي على قيد الحياة، فعذّب نفسين بريئتين، كان الأجدر بهما أن تعيشا أيّامهما في رضى وسلام، وأقسم لو أنّ الله أعاد لفتوح عافيتها لردّها إلى حضن أمّها بلا تلكّؤ، وبكلّ طيب خاطر. كان يجلس عند رأس ابنته، يضع يده على جبينها الساخن فتتنبّه لبرودة كفّه، وتمسكها بكفّها الواهنة، وتحرّكها فتمسح بها وجهها، كأنّها تبترد من لظى الحمّى، أو تحتمي بيد أبيها من شبح الموت، فيمعن الجوهريّ في عذاباته، ويدعو الله ضارعًا أن يحفظ له هذه البنت التي تعلّقت روحه بها مذ أطلّت على الدنيا، وهي الوحيدة بين أبنائه التي كان يفصح لها عن محبّته، من دون أن يشعر بانتقاص من جلالة قدره، ويخصّها بالحلوى، واللعب، والهدايا الثمينة من المصاغ واللباس.

وقتها أقبل الطبيب الإنكليزيّ من جهة حارة الجلّوم، يحمل بيده صندوق الحكمة، ويدقّ حجارة الطريق بنعل جلديّ أشقر ذي ساق طويلة، تغطّي سرواله القطنيّ الضيق، الذي ينسدل فوقه قميص من قماش

رقيق أبيض، يصل إلى تحت الركبة، يزنّره حزام من الجلد، فيه جيب واسع لحفظ النقود، وفوقه سترة طويلة من الدامسكو بلا أكمام. كان الجوهريّ قد أرسل له عربة لتقلّه، لكنّ باتريك صرف السائق لانشغاله بحالة طارئة، وتأخّر حتّى العصر، ليدخل دار الجوهريّ. قاده الخادم إلى الحرملك، فراح يمشي بخطوات وئيدة يتفرّج على سقوف الممرّات الملبّسة بالخشب المزخرف بأوراق النبات والأزهار، ملوّنة بالأخضر والأبيض، وعلى أقواس اللواوين المطعّمة بالقيشاني الأزرق. بدا أنّ فتوح لم تكن قادرة على استقباله في الحرملك، كانت الحمّى قد هدّت حيلها، فأدخلوه إلى مخدعها، وكانت ترقد على سرير من المعدن الذهبيّ، فراشه مرتفع ومغطى بشراشف من الكتّان الأبيض، ووسائد من الأطلس الورديّ، وكانت مثل زهرة ذابلة، مصفرّة اللون، ملقاة في حديقة يانعة. اقترب منها، وأمسك بيدها، فوجد تنفّسها مضطربًا، وحرارتها مرتفعة، وحين فتحت عينيها بجهد، اكتملت صورة الوجه ذي الجمال الشاحب الأخّاذ، وهمست له وهي تحاول التخلّص من الأغطية: أنقذني، أرجوك!

رفع عنها اللحاف، وترك شرشفًا خفيفًا، وطلب إخلاء المكان خشية أن يكون مرضها معديًا:

لا تخافي يا ست فتوح، أنت شابّة قويّة، والحمّى بسيطة، ويجب فقط أن نعرف مصدرها. وانتبه إلى البثرة في طرف أنفها، وعرف أنّها حبّة حلب. كانت ثؤلولة صغيرة داكنة تُخرج شيئًا من الصديد. نظر بإشفاق، ووعد نفسه بأن يفعل ما بوسعه ليحفظ هذا الجمال النادر من أيّ تشوّه.

- سنعالج هذه اللسعة الصغيرة في طرف أنفك فوراً، وستلتزمين بالدواء، وتتحسّنين.

- إن شاء الله. هذه القرصة الملعونة هي السبب؟
- ممكن. غالباً تكونين قد ذهبت إلى البساتين حول النهر.
- حبّة سنة!
- لكنّها مازالت جديدة، لن تحفر إن شاء الله.
- يا رب يا حكيم.. إن شاء الله لا تترك أثراً!

طلب باتريك فوطاً نظيفة، ومسح بها وجه فتوح المتعرّق، ووضع كمّادات خافضة للحرارة، ثمّ أخرج من صندوقه قلم نترات الفضّة ومسّ به البثرة مسّاً خفيفاً، وقال لها إنه سيمرّ بعد سبعة أيّام ليعيد الكرّة، وعليها في هذا الوقت أن تأكل طعاماً مغذّياً، وقد أوصى الخادمة بأن تطبخ لها شوربة الدجاج مع الأرز، وأن تأكل الفواكه المغسولة بشكل جيّد، وتشرب مياهاً مغليّة ومبرّدة، وتداوم على شرب العسل بالزنجبيل.

بكت فتوح على حالها، وخافت على حُسن وجهها من امتداد البثرة أو حفرها عميقاً في الجلد، وقد طمأنتها صديقتها ميسّر، واقترحت الذهاب إلى (حمّام الواسانيّ)، لتغتسل في الجرن الأسود حيث اغتسل سيّدنا إبراهيم عليه السلام، حتّى لو تحاملت على نفسها، فتبرأ سريعاً.

بعد أيّام لاحظت فتوح أنّ البثرة تغيّر قوامها، وبدأت تجفّ، وقبل أن ترسل في طلب باتريك، كان قد جاء، وأشاد بوضعها، ومرّة ثانية كوى البثرة بنترات الفضّة، وحين سألته عن ذهابها إلى الحمّام، قال لها أن تنتظر حتّى يصير الوقت مناسباً، وحينها سيذهب في إثرها ليتعرّف إلى ذلك المكان المبارك الذي لم يزره من قبل.

تباسطت فتوح مع الطبيب، وشعرت بأنّها أفضل حالاً، ولاسيّما حين دار بينهما الكلام، وراحت تحدّثه عن إسطنبول ولندرة، والأسفار،

وركوب البحر، وكان يردّ عليها بأحاديث مشابهة، وكانت تختلس النظر إلى وجهه وهو يعاينها، وتتمنّى لو أنّها تذهب معه في واحدة من الرحلات التي يحكي عنها إلى بلاد الإنجليز، وتقول في نفسها: ما أجمل أن تكون مع رجل عارف وأمين، يبعث وجوده الطمأنينة في عزّ الخوف! ففي حين كانت خجلى من بثرتها، وخائفة من حمّاها، كان يهوّن عليها الأمر، ويمتدح جمالها بكلمات عربيّة صافية تعلّمها في حلب، وقد أشادت فتوح باهتمامه باللغة، فأراد أن يريها المزيد من مهاراته فقال: أنت أجمل من الياسمين، ومن عيون النرجس! فكتمت ضحكتها وهي تحثّه على مساعدتها للقيام من السرير، ونبّهته إلى ألاّ يغامر بقول ذلك لأيّة امرأة هنا، كيلا يفقد حياته، وركّزت غطاء رأسها، وأسدلته على صدرها، لتجد نفسها أكمل ممّا كانت عليه في سابق حياتها. حدّثها باتريك عن الكتاب الذي يؤلّفه عن الأمراض في حلب، وعلاجاتها بالأدوية المصنّعة من مواد البلاد ذاتها:

- يعني ستعالجني وسأشفى؟
- سأعالجك ولو اضطررت أن آتي بالدواء من بلاد واق الواق.
- وأين تقع؟
- حاليّاً لا أعرف، لكنّ صديقي حنّا يعرفها، وهو يحكي لنا عنها في حكاياته.

ضحكت فتوح من قلبها لأوّل مرّة منذ أيّام، ثمّ صار الطبيب بعدها يزورها كل يوم، ويتحدّثان في أمور لا تخطر في بال، وقد انعقدت بينهما حبال الرفقة الطيبة، وكلّ منهما يعرف المحظور الذي ليس من عادة البلاد والعباد:

- أنت تشبهين نساء باريز ولندن، كأنّك قادمة من صالونات الملوك!
- لو عرفت إسطنبول لما ذكرت مدينة غيرها أبداً.
- نزلت بها ليلتين، من ميناء ليفربول إلى ميناء إسكودار، حيث رستْ بنا السفينة، ثم ركبنا سفينة أخرى إلى إسكندرون، وبعدها جئت إلى حلب. في نيّتي أن أمكث فيها عند عودتي، هذا إن غادرت حلب أصلاً!
- تحبّها؟
- كلّ من أقام بها أحبّها، أرسطو المعلّم الأوّل، كان قد رافق الإسكندر في رحلته لمحاربة دارا ملك الفرس، ولمّا وصل حلب، وكانوا يسمّونها بيرويا، أدرك حال تربتها، وصحة هوائها، فاستأذن الإسكندر في المقام فيها، وقال له: إن بي مرضاً باطناً، وهواء هذه البلدة موافق لشفائي، فأقام بها، فزال مرضه!

ردّت فتوح: والسهروردي شهاب الدين، الذي أقام هنا قريباً من (باب النصر)، قال له الناس: إنهم يريدون قتلك، فاخرج من حلب، فقال: حتى آكل بطيخها وأخرج!

- نعم حكوا لي حكايته، لكن لم أذهب للتعرّف إلى مقامه. تعرفين هو في المسجد حيث لا يمكنني الدخول.
- صحيح، في إسطنبول يستطيع الكتابيّون الدخول إلى باحات المساجد.

قال الطبيب جادّاً وهو ينسحب:

- كيف تركك زوجك تسافرين وحدك إلى حلب؟ لو كنت مكانه لما فعلت.

ابتسمت فتوح بخفر، وقالت: ليس لي زوج بعد!

***

بعد أن استعادت فتوح عافيتها، كان على الجوهريّ أن يبرّ بيمنيه، ويسألها في شأن رغبتها في العودة إلى إسطنبول. كانت قد اعتادت حياتها الجديدة في حلب، ولاسيّما أنّها وجدت رفيقة ارتاحت لها نفسها وأخذت تستمتع بصحبتها، وقد شغفت حقًّا بالدراسة، وعلّمت الأطفال الصغار في المكاتب، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها. لكنّ حنينها إلى أمها كان يزداد مع كلّ رسالة تصلها ممهورة بالدمع والأشواق، وقد استذكرت في نفسها أبّهة عاصمة الإمبراطوريّة، وبحرها، ورياضها، واستذكرت القصور الباذخة بحدائقها الفاتنة التي مشت على مدارجها، فاتّخذت قرارها في السفر، وهي تمنّي نفسها بالدراسة في مدارس العاصمة، وتوسيع دائرة علمها باللغات، والدين، والتاريخ، ووعدت أباها بالعودة في زمن قادم ولن يكون الفراق طويلاً. وهكذا رافقها اثنان من أبناء الجوهريّ في رحلة تجاريّة، تتضمّن إبرام عقود جديدة لتصدير الملح إلى شمال الإمبراطوريّة، واستيراد الخشب من البلقان.

حين غادرت فتوح العارفين حلب، وقَعت صديقتها ميسّر في حزن شديد، وشعرت بأنّ الدنيا لا تكفّ عن خذلانها، وأنّ عليها أن تواجه غربتها وحدها من جديد، فكلٌّ يؤوب إلى أهله وأحبّته، وهي تبقى بلا أهل ولا وطن. كانت فتوح قد أوصت أباها بميسّر ليساعدها في متابعة

دروسها في المكتب، ويمنحها من النعم بأزيد من كفاية عيشها في بيت الدبّاغ.

عاشت فتوح في قصر المستشار مع إخوتها من أمّها، مثل الأميرات، وتعلّمت على أيدي أحسن معلّمي عصرها كما كانت ترغب، فتأدّبت بالآداب الأجنبيّة، وانفتحت لها دروب المعارف الدنيويّة، وأرادات أن تتفوّق على نسختها التي عاشت في حلب، في أن تستثمر ذلك الانفتاح الثقافيّ والاجتماعيّ الذي كانت تنعم به عاصمة السلطنة، إذ تجمع بين علوم أوربة الحديثة وفنونها، وطرق العيش فيها، وبين حكمة الشرق، وآدابه، وعلومه الشرعيّة، ولا شكّ في أنّ حريّة الحركة والاختلاط المتاحة في إسطنبول، لا تشبه طريقة الحياة المنغلقة في حلب، فمجتمع القناصل، والجنرالات، والمدارس الذي اعتادته فتوح في غَلَطة، وبيرا، ليس كمثله شيء سوى بلاطات فيينا، وباريس، وسانبترسبرغ، ومع ذلك فقد وجدت العلماء في إسطنبول يحدّثونها عن حلب أخرى لا تعرفها، ولم تكتشف عظمتها إلاّ حين ابتعدت عنها، فأدركت مدى جهلها وتقصيرها في التعرّف إلى الأوابد، والمكتبات، والتحف التي تزخر بها المدينة، التي لم تنقطع حركة الحياة فيها منذ بدء الخليقة، وراحت تقرأ عنها في المخطوطات والكتب، ويا للأسف كانت تعيش في قلبها، ولم تمش في دروبها أو تدخل أديرتها وجوامعها، حيث لكلّ خطوة حكاية، ومن نكد الدنيا على المرء أنّه لا يدرك سرّ الأشياء إلاّ بعد فواتها، وانسرابها من بين يديه! وعلى الرغم من أنّها كانت تجد نفسها محظوظة بالعيش في قلب هذه الأبّهة، حيث تسنحُ الفرص لتعرف العالم الحديث، كانت تجد أنّ جوهر الأشياء يكمن هناك في حلب بعيداً عن المظاهر والادّعاء، حيث

العلم الحقيقيّ المجرّد من سفاسف الأمور، وأنّ أصل اللغة هناك، والدين، والتسامح، والمحبّة التي تضيء أفعال الناس وظواهر الدنيا بنور الحقيقة. كانت تحدس بأنّها ستصل هناك ثانية، وتلمس بيديها ذلك الجوهر الذي كانت تشعر به لكن من غير أن تعيه، حينئذ لن تفوّت فرصة الاستمتاع به، وتعرّف مفردات الوجود من حولها، والناس البسطاء، والدراويش، وأهل العلم، والمتصوّفة قيد أنملة.

تعرّفت (فتوح العارفين) بالشيخ موسى في إسطنبول، كانت ترتاد مدرسة سنان باشا للعلوم الدينيّة، التي تبعد عن منزلها حوالي عشر دقائق مشياً. تصعد من دارة أمّها الفخمة على أسوار توبكابي نحو السليمانيّة، ثمّ تنعطف يساراً برشاقة لطلوع ثان، فيطلّ البوسفور عن يمينها وتجتاح زرقته الحجارة الرماديّة لبيوت التجار حول ميدان بايزيد، وتتسلّل من بين حوانيتهم الضيّقة التي تفتح أبوابها مع طلوع الشمس. حين أنهى الشيخ قاسم الذي كان يلقّب بنور الزمان شرحه آيات من (سورة الرحمن) خرجت فتوح من الحجرة المخصّصة للنساء نحو باحة المدرسة، واتجهت نحو سبيل الماء وسطها، تتأمّل الصنابير النحاسيّة الجديدة التي تحيط به، والتي تصدّقت بها منذ أيّام عائشة خانم صديقة والدتها، وزوجة وكيل تجارة القِرفة في السلطنة، وقد نقش على المرمر فوقها: "وسقاهم ربّهم شرابًا طهورا". دعت فتوح للمحسنة الكبيرة بالبركة بعد أن غسلت وجهها بالماء البارد، وارتشفت منه بكفّها ما روى عطشها وزاد.

شعرت بمرح طفوليّ، ورمت حذاءها إلى جانب قصيّ من الليوانات المتّصلة، حيث يتلقّى الطلبة علومهم في الهواء الطلق، ومضت تمشي بخفّة أمام حجرات الدرس، وكان أحد الأبواب مواربًا، وظهر في عمقه فرش بلون

أزرق. دفعت الباب، فبدا الداخل مهيباً وفي غاية الهدوء والترتيب، ووراء الطاولة الخشبيّة الواطئة والكبيرة جلس شابّ منكبّاً على عمل بين يديه، ومن غير أن يرفع رأسه قال: السلام عليكم، فأعادت السلام، عندها رفع رأسه، ووقال لها بثبات: تفضّلي، وكأنّ وجود امرأة على باب حجرته ليس شيئاً ذا بال. اجتازت العتبة، واقتربت تختلس النظر إلى حيث موضعه، فعرفت أنّه خطّاط، وتمكّنت من تفحّص الرقعة أمامه، ووجدته يكتب بالخطّ السلطانيّ آيات من القرآن الكريم. عرّفها بنفسه قائلاً إنّه الشيخ موسى، يقوم مع فريقه بنسخ المصاحف، وأحياناً يزخرف على الرقاع آيات من الذكر الحكيم أو الحديث الشريف، ينتقي لها إطارات فخمة، ويبيعها لمن يرغب بشرائها لتزيين جدران الدور والقصور. كان موسى في جلسته متوسّط الطول والعرض، بشعر بنيّ، وعينين خضراوين، تلمعان مثل الزمرد، له مبسم صغير يحيط به شارب رفيع عسليّ متّصل بلحيته الصغيرة، خمّنت أنّه من أصول يونانيّة. عرفت فيما بعد أنّ لهذا الخطّاط الذي يظهر متواضعاً شأناً كبيراً في القصر، فهو يعلّم أبناء السلطان، وكبار الحاشية الخطّ الإسلاميّ والزخرفة، وإنّ أولاد السلطان يتداعون لتقبيل يديه المباركتين في كلّ دخول وخروج، وإنّ كلمته عندهم لها وزن، كما تستشيره السلطانات في أمور تزيين القاعات، والحجرات والنقش على الحجر الكريم، وتطريز الملابس بالحروف ذات السطوة، والكلمات ذات المنعة والسلطان. وهو مدرك تماماً لقوّة الحَرْفِ، ونفاذ الكلمات، يَصْدق الصغار قبل الكبار، ويخشى الله عزّ وجلّ ويعرف حقّ قدرته بـ (كن فيكون)، ويساهم في تطريز ثوب الكعبة الذي ينقل من إسطنبول إلى مكّة، لكنّه في تلك الحجرة يتجرّد من أبهة السلاطين ليغدو ذلك الشاب المنار بنور الله.

جمعهما كلّ من الشباب وحبّ العلم، وترددت فتوح عليه مراراً، وكانت جدران الحجرة مزيّنة بقطع فنيّة من صنعه، تضمّ آيات الله مرسومة على ورق البرديّ، أو الصينيّ المصفرّ، أو المذهّب.

تقف فتوح لتتأمّل حركة يديه، ولتحزر الآية التي يخطّها قلمه، فيرشدها سريعًا إليها حفظُها كثيرًا من أجزاء القرآن، وإنصاتها الدائم إلى الختمة التي يقرؤها المقرئون في القصر المجاور يوميًّا، وهي تجلس في الحديقة الخارجيّة تستمع إلى تلاوتهم. أعجب الشيخ بمنطقها الذي بدا في حوارات دارت بينهما حول طريقة تدريس العلوم في المدارس، والتركيز على معارف دون غيرها، لاسيّما فيما يخصّ تعليم النساء، وقد حكت له عن شغفها في اقتفاء الآثار المعمارية والتبحّر في علومها، وكان من المستبعد ألاّ يقع في حبها، فطلبها للزواج، وصارت له.

سكنت في جناح في قصر والدتها، رتّبه الشيخ على هواها، ولم تكن تعلم أنّ هذا الملاك القادم من عالم الحرف والجلالة هو خزّان من الشهوة لا ينضب، يطلبها في النهار كما في الليل بلا هوادة، وقد مرّت سنتان على ذلك الزواج، ولم ترهقه فترة أو يقعد به اتصالهما المستمرّ، وكانت تظنّ أنّ ما تسمعه في خلواتها مع الجواري في الحريم يحدث فقط مع الرجال الأشدّاء في البلاد التي جئن منها، أو في الرحلات التي قضينها مع القراصنة، والنخّاسين، والانكشاريّة في الطريق إلى القصور، لكنّ الشيخ موسى كان فَحلًا، وممتعًا، وعاشقًا، خبّأ لها كلّ خيالاته الجامحة، ورغباته المكبوتة، ومكنونات جسده، وكان يقاربها بتؤدة تستثيرها، ويعبث بسلسلة ظهرها ساعات فيرهقها، ويحكي لها نكتًا، فيضحكها، ويمتّعها بكلماته، فيريها جمالها، ويجعلها تعشق صورتها، حتّى إذا ما تعبت وأرادت النوم، أشعلها

من جديد. لم يكن في بال فتوح وقتها أنّ عمر السرور قصير، وأنّ تلك سنّة البشريّة التي يتغاضى عنها العاقل قبل الجاهل، ففي إحدى الليالي داهمت الشيخ موسى حمّى شديدة، واستمّرت أياماً لا تبارحه، ولا تتراجعُ ضراوتها، وعجز حتّى طبيب السلطان نفسه عن إيجاد علاج ناجع له، وعرفت فتوح أنّ الأيّام الحلوة توشك على نهاياتها. قال الشيوخ إنّ المرض ناتج عن مروره بأضرحة أولياء الله الصالحين وهو على جنابة، وتذكّرت فتوح أنّه خرج ذلك اليوم إلى المدرسة مسرعاً لتلبية نداء أحد الأساتذة الكبار، من غير اغتسال، حيث تصطفّ إلى يمين المدخل تلك القبور الرخاميّة الجليلة للأساتذة والفقهاء إلى جانب قبور الأولياء في حديقة غنّاء، وقد انضمّ إليها ضريح موسى في عزّ شبابه. حين زارت فتوح المدرسة أوّل مرة بعد انقضاء عدّتها، وضعت الرياحين على قبر زوجها، ولم تصدّق أنّ تلك الأصابع البيضاء السويّة المنحوتة كأنّها أصابع دمى، والتي كانت تحوّل الحروف إلى نور في لحظات التبتّل، قد أصبحت طعاماً لدود الأرض، وحين دخلت حجرته الزرقاء، وجدت عدّته حارّة ومتناثرة كأنه تركها هنيهة لبعض شأنه، وهو لا بدّ عائد إليها، ووجدت آخر ما خطّه على رقعة جعلها على شكل ورقة شجر صفراء محمرّة كأوراق الخريف، وقد كتب عليها: "وما من ورقة تسقط إلاّ يعلمها".

ظلّت فتوح تحنّ إلى حلب وأهلها مثلما تحنّ قطرة الماء إلى ديم السماء، وبعد أن فقدت زوجها، وبعده بسنة فقدت أمّها، عادت في تلك الرحلة مع أخيها نامق بك إلى حلب، وذلك بعد غياب زاد على خمس سنوات، قد يظنّه المرء دهراً لكثرة ما أصابتها فيه أحداث جسام.

* * *

استدعت الخادمة سيّدتها فتوح، كان حسن القزّاز قد ربط حصانه إلى جانب درج الخدمة في ساحة الدار، حيث يمكن فقط للمقرّبين الدخول، وبدأ يُفرّغ من الخُرج المجلّدات التي طلبتها فتوح من الشيخ أسعد. وفيها كتاب (تاج العروس) للزبيديّ، و(الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ مملكة حلب) لابن خطيب الناصريّة.

- أنت بنفسك أحضرتها يا حسن! لمَ لمْ ترسلها مع أحد الشغّيلة.
- كيف لي أن أفوّت فرصة خدمتك يا معلّمتي، وهل يليق بغيري أن يحمل أشرف بضاعة إلى أشرف الناس؟

كانت فتوح متخفّفة من حجابها، في ثوب بيتي من الجوخ اللطيف السكّري، مطرّزاً بالقصب الذهبي، وقد وضعت على رأسها غطاء أبيض على عجل، وبدأت تتناول الكتب من يد حسن، نظرت في يديه الحنطيّتين، كانتا يابستين قليلاً، عروقهما نافرة بشعر خفيف داكن عند لقاء الكفّ بالمعصم، أظافرهما قصيرة، أقصر من الحدّ المفترض، وفكّرت لوهلة يبدو أنّه ما زال يأكل أظافره، تلك العادة كانت تلازمه مذ عرفته صغيراً. رفع طرفي كميه وهو يحاول إمساك رسن حصانه الذي رمح فجأة وشبّ، فهدّأه وأخرج من قلب الخرج لفافة صغيرة، وقدّمها إلى فتوح: هذه لك يا خانم.

- ما هذه؟ قالت فتوح بغبطة، وهي تدرك أنّها هدية حسن، وأنّ وراءها كلّ ما توقّعته، وما لا تريد أن تدخل نفسها فيه.
- هديّتي لك، حين تفتحينها ستجدين قطعة من الحرير ذاته، الذي رأيت ولادة خيوطه في معملي في (خان العسل)، طلبتُ إليهم أن يحوكوا لك هذا الشال، سيبقى معك، بينما تذهب بقيّة

البضاعة إلى ليكورنا، حيث ستتحلّى بمثله أميرات إيطاليا.

تناولت الهديّة من يده وأرادت أن تفتحها، فأوقفها بأن قبض بكفّيه على كفيها بحيث لن تتمكن من تحريرهما: فتوح، سيكلّم والدي والدك في أمر زواجنا!

تراخت فتوح، إذ خارت قواها، وارتعش بدنها، وحاولت أن تضبط نفسها من وقع المفاجأة السريعة، سحبت يديها ووقع الشال على الأرض:

- آمان حسن، آمان! ما الذي تقوله، لقد حملتك صغيراً بين ذراعيّ، أنا أكبر منك بكثير، أنا تزوّجت وأنت بعد لم تجرّب حظّك مع امرأة! وأنا كنت مع رجل آخر، وعشت معه سعيدة، ولا أفكّر في الزواج ثانية الآن، و... قاطعها:
- هذا لا يغيّر شيئًا، كلّ ما تقولينه أعرفه. لقد كنت أمانة عنده، وقد استعدت أمانتي. كنت أعرف أنّه سيلاقي وجه ربّه وستصيرين لي، فكّرت في كلّ شيء، ومنذ زمن طويل، فكّرت مذ رأيتك أوّل مرّة في المكتب بأنّك لن تكوني سوى لي. لقد تعلّقت بأستار الكعبة، ودعوت الله أن أستعيدك، ولن تقدري على تغيير مشيئة الله!
- دعوت الله أن يموت زوجي! أنت تخيفني يا حسن...
- لا، لا! دعوت الله أن تعيشي سعيدة، وأن يرزقني حبك، ولا نستطيع أن نرسم بمعارفنا المحدودة شكل الاستجابة الإلهيّة، لكن ما أفصحت عنه الأقدار الصمدانيّة أنّ سعادتك معي، وهنا في حلب، بين أهلك وعزوتك. ثمّ تذكّري يا معلّمتي أنّ أشرف

الخلق محمّدًا، صلى الله عليه وسلّم، قد تزوّج بسيّدة النساء خديجة رضي الله عنها، وكانت تكبره بخمسة عشر عامـًا، فهل نرغب عن سنتّه عليه السلام، ثـمّ نطلب منه المدد والشفاعة! هل أذكّرك بفضائل السنّة النبويّة، وبالدروس التي كنت تلقينها على مسامع طالباتك في المسجد.

حاولت فتوح مناورة ضحكتها، إذ ملأها السرور بحديث حسن، وبحججه الماكرة، وفوق هذا وذاك كانت وسامته أكبر من أن تقاوم!

- لا عدمتُ ضحكتكِ يا من ملكتِ القلب والروح! سأعدّها وعداً بالقبول.

قبل أن تضيف المزيد، كان حسن قد حرّر رسن حصانه من الحلقة المثبّتة عل الجدار، وامتطاه برشاقة الفرسان، ومضى!

أمضت فتوح سحابة يومها وهي تحاول أن تتخلّص من أثر لقائها بحسن، لا تريد أن تتزوّجه، ولا ترى فيه الرجل الذي ترغب في أن يأخذها، وتقضي معه أيامها. فَرَدَتِ المجلّدات التي وصلتها، وبدأت تتفحّصها، وكان فيها مجلّد مخطوط من كتاب (الفتوحات المكيّة)، فتناولته وراحت تقلّب أوراقه على مهل، إلى أن وصلت إلى الورقة الأخيرة، وأدهشها التغليق المرسوم الذي يقول فيه الإمام ابن عربيّ: "سمّعت هذه المجلّدة على أهلي مريم بنت محمّد بن عبدون البجائيّة وفّقها الله، وأذنت لها أن تحدّث بها عنّي، وبجميع تواليفي ورواياتي". اغتبطت فتوح بما قرأت، وشعرت أنّها وجدت لها أستاذة، لديها إجازة في الرواية عن ابن عربي. تناولت الكتاب الثاني، فكان تفسير القرآن العظيم للإمام الماورديّ، وزاد في حيرتها ما وجدته في المفتتح من إشارة إلى أنّه

وَقْفٌ من إحدى بنات آخر خلفاء بني العبّاس (عبد الله بن المستعصم بالله العباسيّ) على مدرسة في ظاهر شارع ابن رزق الله بالجانب الغربيّ من مدينة السلام سنة 652 لهجرة النبيّ الكريم، عليه أفضل الصلاة، وأتمّ التسليم، فأدركت أنّ الشيخ أسعد أراد لها أن تتعرّف جهودَ النساء في حفظ الكتب والمكتبات ونمائها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحزان الحكواتي

استدّلت فتوح بلا جهد على حنّا الذي كان معروفاً برواية الحكايات، وأكثر من ذلك كان جاراً لأعزّ صديقاتها، هيلين بنت القنصل. خرجتْ مع ميسّر من البيت بعد العصر بقليل، حَسِبتا أنّهما ستصلان إلى خان العلبيّة قبل أن تحلّ العتمة، كان قلبها يسبقهاعلى الطرقات، يقفز مثل عصافير الدوري متنقّلاً من بلاطة إلى أخرى، وكانت حقّاً في شوق وترقّب، وأعصابها كلّها مستنفرة، ولا سبيل، كما يبدو، لتهدّئ من روعها، سوى أن تجد نفسها أمام باب الخان، وذلك منذ أن عرفت أنّ باتريك الطبيب يسهر في دار حنّا كلّ ليلة، ويستمع إلى حكاياته. تعثّرت في الطريق مرّة بل مرّتين، في حين كانت ميسّر تستوقفها لتلحق بخطواتها السريعة، فلم يكن ردفاها الممتلئان مثل جرار السمن العربيّ يساعدانها على المشي بخفّة. خرجتا من العقبة إلى الطريق نحو سوق المدينة الكبير، تجاوزتا سوق السَقطيّة، حيث كانت معظم المحلّات تجهّز وجبات الشواء الأخيرة لهذا اليوم، والفضاء من حولهما عابق بروائح العجّة المقليّة، والكباب المشويّ، وحينًا تهبّ روائح أحشاء الخراف النيّئة. مرّ شاب يلقي على كتفيه خروفين مذبوحين، كادت الذبيحة تلامس ميسّر، فتجنّبتها ملتصقة بصاحبتها، ودفعتها نحو سلال أمام حانوت إلى يمينها، وكادت توقعها فوقها: يقرف عمرك، قالت ميسّر هامسة، وتعني الرجل!

انعطفتا نحو سوق الحبال مهرولتين قبل أن تغلق البوّابات، لتدخلا في أزقّة السوق المسقوفة، والمعقودة بالقباب، حيث تصطفّ على جانبيه الحوانيت الصغيرة التي لا تتّسع سوى لوقوف صاحبها خلف عارضة خشبيّة، يرفعها عند الإغلاق، ويبسطها عند مباشرة العمل، وهي العارضة ذاتها التي يفرد عليها بضاعته ليتفحّصها الزبون، في حين تتكدّس البضائع على الرفوف الخشبيّة المستندة إلى الجدران الثلاثة، أو المحفورة بالحجر ذاته: أقمشة من بلاد الهند، والجوخ الإنكليزي القادم من ليفربول، والبروكار المحليّ، وأقمشة الحرير المستورد من السنْد، وبعضها محليّ، ستجده أغلى ثمنًا، على عكس المتوقّع، لأنّه منتج لجهات خاصّة بنقوش محدّدة، وبمواصفات شخصيّة، ولا يباع للعامّة، كأن يطرّز عليه أسماء بعض الأفراد، أو أبيات من الشعر، أو أختام تخصّ أحد المسؤولين أو رجال الدولة. تتوقّف ميسّر أمام حانوت في سوق العطّارين تسأل البائع عن دريرة بلديّة لتنثرها بين الثياب في صندوقها، تستعجلها فتوح: ليس هذا وقته، سنعود لاحقًا.. لي مشوار طويل في السوق، لأشتري حاجاتي، لكن على ضوء النهار ليس الآن.

كانت رائحة التوابل ممتزجة بالعطور تكتم نفسها، لا يحتمل صدرها الروائح القويّة، مذ كانت صغيرة تعاني من ضيق التنفّس، عند تعرّضها لروائح البهارات. لقد اعتادت روائح الأزهار اللطيفة في حدائق قصر توبكابي، والدور الفارهة حوله، حتّى روائح البضائع في أسواق إسطنبول يفرج عنها نحو الفضاء الواسع الذي يسرح فيه الهواء، ويرميها في البوسفور، فقلّما يضيق صدرها بالروائح هناك، ولعلّ ذلك الشعور بضيق النفس نتيجة لتسارع خفقان قلبها بسبب الحبّ. سمّته الحبّ

تجاوزاً، فهي ليست متأكّدة من أنّ هذا الشوق الذي تحمله للاقتراب من مكان يحتمل فيه وجود باتريك هو دليل قاطع على الحبّ، أو على شيء أقلّ مثل الإعجاب!

خرجتا من سوق الجوخ، وكان أصحاب المحلّات على عجلة من أمرهم، ينزلون البضائع المعلّقة من على الحيطان، أثواب الجوخ الرجّاليّة المخيطة، وفوقها السترات المزنّرة بخيوط القصب، أو الإبريم الحرير، وكانت حركة المارّة والزبائن تشير إلى القفول إلى الدُّورِ قبل إغلاق بوّابات السوق، حين صاح المؤذّن لصلاة المغرب: الله أكبر!

تنفّست فتوح ملء صدرها حين استقبلت أمامها الخان الكبير. وجدته بهيّاً كما لم تجده من قبل، وقد عظم في عينها ببوّابته الفخمة المقنطرة ذات الحجارة الرخاميّة البيضاء والسوداء بالتناوب، وبجدرانه السميكة كأنّها جدارن قلعة لحسن تحصينها، بيضاء نظيفة، تحفّه الأشجار الكثيفة الخضراء، والورود التي سقاها مطر الليلة الفائتة، حتّى إنّ الرطوبة تعبق في الفضاء من حوله، وتحمل الريحُ الباردة روائحَ الليمون والنارنج. كانت قافلة من الجمال وصلت للتوّ، بعضها أناخ والآخر يدخل عبر البوّابات، وعمّال الخان يساعدون أصحابها على الدخول، وحمل أمتعتهم. اغتنمت الفتاتان فرصة الانشغال ودخلتا من الباب الصغير، متجاوزتين الحرس. كانت الحياة تضجّ في الداخل، أطفال يلعبون على الرغم من البرد حول البركة التي تتوسّط الحوش الكبير، وبعض الرجال يفترشون مصاطب الإيوان المفروشة بالبسط الحمراء يدخّنون نراجيلهم، وأمامهم نار عظيمة في منقل من النحاس، وخدم يروحون ويجيئون وهم

يسوقون رؤوس الخيل الخاصّة بالمسافرين إلى الإصطبلات. كانت الدكاكين في الطابق السفليّ قد أغلقت، وحلّ الظلام في الجهة التي تقود إلى الأدراج، حيث تسكن بضع عائلات في الأجنحة الشرقيّة، يقوم بعضها بخدمة المسافرين، الذين يقيمون في غرف تحتلّ مساحة الطابق الثاني، أو يشتغلون بأعمال التجارة الخاصة بالخان ذاته، في حين تسكن هيلين في منزل ملحق بالبناء الرئيس، على دورين، الدور الأرضيّ للاستقبال والسلاملك، والأعمال اليوميّة، والدور الفوقانيّ للحرملك وحجرات النوم.

ولدت هيلين ابنة القنصل الإيطاليّ في حلب، ونشأت فيها حتّى صارت صبيّة لذيذة في السادسة عشرة من عمرها. لم تزر بلادها فلورنسا سوى مرّة واحدة قبل سنتين، والذي لا يعرفها سيظنّ أنّها واحدة من بنات الأسر الحلبيّة أبًا عن جدّ، لهجتها، وحركاتها، وردود أفعالها، حتّى مظهرها المحافظ، فهي، كما تقول فتوح، لا تشبه بنات الدبلوماسيّين الذين تعرفهم في إسطنبول، فهنّ متحرّرات في الملابس والعلاقات والأسفار، يعشن كأنّهن في بلادهنّ، يرتدن النوادي، ويحضرن الحفلات في القصور حتّى منتصف الليل، من دون رفقة عائلاتهنّ أحيانًا، وقد اهتمّ ذووهنّ بتثقيفهنّ على أحسن صورة بالطبع، لكنّهم اقتصروا على الثقافة الأوربيّة، لغاتها، وآدابها، وحسن التصرّف، وفاقًا لتقاليدها، في حين درست هيلين إلى جانب الآداب اللاتينيّة القديمة والإيطاليّة، اللغة العربيّة، وهي تقرأ القرآن الكريم، والنصوص العربيّة القديمة والجديدة، مثلها مثل أيّة بنت حلبيّة تلقّت أحسن تعليم، وعلى الرغم من أنّها كاثوليكيّة، فإنّها تستطيع قراءة آيات الإنجيل والتراتيل بكلّ من السريانيّة

والعربيّة. كانت شخصيّتها آسرة، إذ أحبّها الجميع فقد عرفوها وليدة، وكبرت بين عائلات القناصل في حلب، ومن ارتبط بهم من أسر الولاة، ورجال الدولة، والتجّار، ومن ينتمي إلى الدائرة القريبة من الدبلوماسيّين.

كانت هيلين تشبه أميرات إيطاليا اللواتي ذاع صيتهنّ في الشرق، بشرتها بيضاء لكنّه بياض لا يشبه بياض الحلبيّات المائل إلى الصفار، بعينين سوداوين واسعتين فضوليّتين كعينيّ غزالة قلقة من صيّاد محتمل. شعرها أسود أثيث، حينما تلفّه على تاج رأسها لن يُعرف له بداية أو نهاية، متوسّطة الطول، رقيقة القدّ، ومع ذلك لها صدر كبير لافت بالنسبة لنحول جسدها، وحين ترتدي أثوابها المصمّمة على الطريقة الإيطاليّة، التي تكشف الرقبة والصدر، يبدو الفجّ بين نهديها مثل واد سحيق، يسبّب النظر إليه دواراً لذيذاً.

عرّجت الفتاتان بخفّة إلى الباب المفضي إلى دار القنصل، وقبل أن تدخلا الباب المقنطر الذي يرتفع أمامه هيكل دالية يعرّش عليها قليل من أغصان النباتات المتسلّقة، توقّفت فتوح للحظة، رفعت رأسها مستطلعة غرف الطابق العلويّ. كانت دار القنصل متكاتفة مع دار أخرى، تشكّل إحدى حجرات الأخيرة زاوية قائمة مع زاوية حجرة مخزن دار القنصل، بحيث يمكن للناظر من نافذة إحدى الحجرتين أي يرى جزءاً صغيراً من عمق الأخرى. كانت تلك غرفة حنّا دياب، التي يجتمع فيها بأصحابه معظم مساءات الشتاء، وحين وجدتها فتوح مضاءة في عتمة المساء، سرى النور في قلبها كأنّ شعاعاً سحريّاً مسّه، فجمعت رداءها بيدها، وانطلقت تقفز الدرج اثنتين اثنتين، وخلفها ميسّر تمشي على أقلّ من مهلها.

استقبلتهما هيلين بحفاوة في الحرملك، الذي لا يشبه بحال حرملك الدور الحلبيّة الأخرى، فهو قطعة من صالونات البيوت الأوربيّة الباذخة، فالكراسي من طراز ريجنسي باللون الخمريّ، ونجفات الكريستال ذات الشموع الطويلة تتدلّى من السقوف العاليّة، وتكاد كراتها الشفافة تلامس رؤوس الواقفين تحتها، وقد علّقت على الجدران البيضاء لوحات الكوبلان التي تصوّر الطبيعة الفاتنة لبلاد الفرنجة في فصل الربيع، حيث تستلقي النساء قرب نبع ماء، وفي أخرى يجلسن حول شابّ يعزف بالناي، وفي ثالثة يجلسن في حديقة مشّذّبة ويتناولن الشاي في فناجين فاخرة. يغطّي السجّاد العجميّ أرضيّات الرخام في دار القنصل، وتتوزّع تماثيل المرمر والبرونز ليسوع المسيح، وأخرى لرجال ونساء من الأزمنة الغابرة، على طاولات الخشب الفاخر والكونسولات ذات الأسطح الرخاميّة. جاءت لهنّ هيلين بالقهوة ومعها بعض الحلوى الإيطاليّة اللذيذة، كانت عين فتوح على الشبّاك، علّها تستطيع التقاط أيّة إشارة من الجهة المقابلة، لكن الغرفة التي هنّ فيها لا تكاد تُري من اتجاه بيت الجيران سوى نورٍ كليلٍ لمصباح بعيد. وقبل أن تحاول الاقتراب من النافذة قالت هيلين:

إذا أردتن قضاء سهرة ممتعة، فعليكن احتمال البرد والكركبة في غرفة المخزن، وأنا أعدكما بأنّكما لن تندما أبداً!

لم تكن غرفة المخزن بالسوء الذي حذّرت منه ابنة القنصل. كانت مفروشة بالسجّاد، وفوقه دكك من الخشب تغطّيها البسط الكرديّة بألوانها الأحمر، والأسود، والأبيض، وفي الزاوية يقف سجّاد ملفوف ومستند إلى الجدار، وعلى جدار مقابل خزانة خشبيّة برفوف تتكدّس عليها الكتب،

وعلى الأرض صناديق خشبيّة مجمّعة بعضها فوق بعضها الآخر، تسند عدّة بندقيّات للصيد، وصولجانات للعب الكرة على الخيول. أشارت إليهنّ هيلين بالاقتراب من النافذة، وأطفأت السرج التي كانت في المشكاة، وعلى طاولة في منتصف الحجرة، وغطّ المكان بالظلام، وحين نظرت فتوح من النافذة فوجئت بمدى قربها من نافذة بيت الجيران بحيث لو مدّ أحد يده لأمسك بيد الآخر الممدودة من النافذة المجاورة. كانت غرفة حنّا دياب مضاءة بحيث أنّ النور الأصفر يتوهّج في ثناياها، وفي صدرها موقد كبير من القرميد مشتعل بأحجار الفحم، لذلك فإنّ درفة نافذتها مفتوحة، على الرغم من البرد، إذ صدر فرمان سلطانيّ منذ أيّام بعدم ترك مواقد الفحم في الغرف مشتعلة من غير منفذ يخرج منه الهواء المفعم بالمواد السامة، وذلك بعد أن اختنق ستّة أفراد من عائلة واحدة، لأنهم ناموا وموقدهم مشتعل في غرفة بلا تهوية.

تحلّق شباب خمسة في نصف دائرة حول الموقد، أمامهم مائدة تصطفّ عليه صحون متنوّعة من المازا، وكؤوس الشراب. حملت الريح رائحة عرق حادّة ومعها رائحة لحم مشويّ. تسلّم أحدهم من الباب بضعة أرغفة من الخبز، ووزعها على الجالسين، وبدأ قرع الكؤوس، وتعالى الصخب والضحكات. وقف باتريك بقامته الفارعة وتقدّم نحو النافذة، فأسند رأسه إلى ضلع الجدار الذي يحتويها، وراح يتأمّل الأفق المظلم بعيداً نحو منائر القلعة المضاءة كأنّها شهب من ذهب.

لم تحوّل فتوح من جهتها نظرها عنه، كان قلبها يذوب لمرآه، مكتمل الرجولة، قويّاً بعينين بنيّتين حادّتي النظرة، وبشرة بيضاء، ولحية داكنة مجعّدة، وشعر كثيف وطويل يعقصه إلى الخلف، ويجمعه بربطة

من القماش، وكان يتدثّر بعباءة من الجوخ البنيّ مبطّنة بالفرو الأبيض مثل عباءات البدو. كانت فتوح تسأل نفسها، بماذا يفكّر الطبيب؟ ولم لا تظهر عليه علائم السرور مثل بقيّة صحبه، أتراه عاشقًا أم خاليًا؟ من هي حبيبته؟ هنا أم هناك في بلاده إنكلترة؟ أتراه يفكّر بها أم أنّ له شأنًا آخر؟ العمل مثلاً أو القنصليّة؟ لم تكن فتوح تعلم أنّ الرجل الذي وقعت في حبّه سيقع بعد قليل في حبّ المرأة التي تجلس إلى يمينها، تضحك وتلهو وتنتظر الحكاية، ولا يهمّها شيء، إذ سلّمت نفسها لِركاب الدنيا فتنطلق بها حيثما شاءت.

أحضرت خادمة فناجين القهوة في صينيّة من النحاس، فأضاء فانوسها الصغير العتمة التي وضعن أنفسهنّ داخلها، وأشعلت لهنّ الغلايين، تشاكلت فتوح وميسّر على (أمزك) العقيق الأحمر، كلّ منهما تريد التدخين به، فطلبت هيلين من الخادمة إحضار أمزك عقيق آخر، وقالت لهما، هاتان هديّتان منّي لكما، وكلّ منكما تحضره معها لكلّ جلسة *(بدون ما تنزعوا كيفنا)*. فرحت الصبيّتان بهديتيهما الثمينتين، وبدأتا تنفثان الدخان بشدّة جوار النافذة، وقد رغبت كلّ منهنّ في أن تُشعر من هم في الدار المقابلة بوجود مستمعين ينتظرون الحكاية، وقد خُيّل لفتوح أنّ عين باتريك وقعت على عينها، فسرت في صدرها نشوة، وكنّ تنتظرن بلهفة أن يعلن المضيف بداية الجلسة، وهذا ما حدث، فقد بدأ حنّا بقوله: هذا وكان يا سادة يا كرام "أنّ أبا الحسن ابن الخواجا لمّا دخل عليه أصحابه الحمّام، وفكّوا حزنه، نسي وصيّة أبيه، وذهل لكثرة المال وظنّ أنّ الدهر يبقى معه على حال، وأنّ المال ليس له زوال، فأكل وشرب، ولذّ وطرب، وخلع ووهب، وجاد بالذهب، ولازم أكل الدجاج، وفضّ ختام الزجاج، وقهقهة القناني واستماع الأغاني،

ولم يزل على هذه الحال إلى أن نفد المال وقعد الحال، وذهب ما كان لديه وسقط في يديه، ولم يبق له بعد أن أتلف ما أتلف، غير وصيفة خلّفها له والده من جملة ماخلّف، وكانت الوصيفة هذه ليس لها نظير في الحسن والجمال، والبهاء والكمال، والقدّ والاعتدال..."

بعد أن انفضّ مجلس السمر بقي حنّا يلملم بقايا ما تركه الضيوف، دخلت ربّما خادمة لتأخذ عنه المهمّة، في حين طفق يطفئ النار في الموقد المشتعل، ليعلو صوت نسائيّ متهدّج لامرأة عجوز، كانت أمّه كما أشارت هيلين، وكانت تعاتبه بحدّة:

إلى متى هذه السهرات يا ابني؟ السبت، والأحد، والتنين، والتلاتا، ليس لك شغلة ولا عملة سوى استضافة هذه الصحبة، وقصّ القصص. كلّهم عندهم عمل محترم يأكلون منه الخبز، وأنت الوحيد العاطل من العمل، وبعدين يا ابني مع هذه الحالة!

يسكت حنّا، ثمّ يهمّ بالدفاع عن نفسه، ولكن بلا حماس كما يبدو: يا إمّي، أليس الجلوس هنا أحسن من الجلوس في المقهى؟ ثمّ ماذا أعمل! ترينني أتحدّث مع شباب يتمنّى كلّ بيت في حلب أن يدخلوه: معلّم جانو أحسن من يصنع الطرابيش في سوق القاوقجيّة، والشمّاس المسكين يوسف الذي يأتي ليملأ بطنه ببضع لقيمات، ونكسب من ورائه أجراً كبيراً، والدكتور باتريك الذي عالجك من الداء الذي أقعدك أشهراً ولولاه، بعد ربّنا تقدّس اسمه، لكنت ما زلت طريحة الفراش، ولا حيل لك لتوبّخيني، و... قاطعته: أعرفهم، ولا أعترض عليهم، إنّما على حالك الواقف، اعملْ في الصباح مثلهم، واسهر في الليل معهم، وقتها سأفتح لك السلاملك، وسأعدّ لك طعاماً لكلّ يوم.

- لن أعمل أجيراً. يكفي يا أمي، أريد أن أكون معلّماً، لا أجيراً تحت إمرة أخي، وفي دكّانه. ثمّ إنّني سأفتح الدكّان بنقودي، وليس منّة من أحد أو دينًا.
- يا ابني: إخوتك يريدون مصلحتك، تعلّم أصول الصنعة، وجمّع مالك، لتبدأ المصلحة بقوّة، ما معك لا يكفي لدفع ضريبة العصملّي...
- أنا حرّ بمالي، سأبدأ بتجارتي على قدّي، أنا لست غرّاً يا أمّي، لقد جلست مع أكابر التجار في مصر، وتونس، وليكورنة، وإسطنبول. وصلت وحدي إلى أقاصي الدنيا، ماذا رأيتم أنتم منها! أخي الذي صدّعت راسي به، إن خرج من (باب انطاكية) سيضيع، صدّقيني يا أمّي. أنا عشت في باريس، ورأيت في رحلاتي العجب العجاب، ودخلت على الإمبراطور، سلطان فرنسا، وتحدّثت معه، وقابلت البابا! وبدلاً من أن تقبّلي يدي هذه التي أمسكت بيد البابا، تسمعينني هذا الكلام!
- أقبّل يدك يا حنّا! عشنا وشفنا.. خير ما منّك، دخّانك بيعمي...
- أنا يا أمّي! قالها بعتب. سأرحل وأخلّصكم منّي ومن دخاني.

وتتهدّل شفته السفلى وتتجمّع الدموع في مآقيه، ويخرج صوته من حنكه متراخيًا:

- يا يوم أنا تعبت من تصغيركم لي، هذا الذي جعلني أترك لكم ليس حلب فحسب، بل السلطنة كلّها...

تهدّئ الأمّ من لهجتها قليلاً، وتعيد لفّ غطاء رأسها الأزرق، وتضع يدها على ركبتيها لتجلس على الأريكة الواطئة، يساعدها حنّا، وقد خنقته

عبراته مثل طفل صغير، ينقلب في لحظة من مقاتل شرس إلى ضحيّة تستجدي التعاطف والمؤازرة.

- قلنا يا حنّا، لا نريد أن تبقى داشراً، خلينا نزوّجك ونفرح بك ونرى عيالك، الزواج يربط الرجل، يصحّح مساره، يشعره بالمسؤوليّة، يربطه بصنعته...
- الدكّان أوّلاً ثمّ الزواج، أريد أن أرتبط بملكي، لا بملك الناس، وإلاّ أحمل نفسي وأسوح في البلاد، أو أعود إلى الدير، ولن تروا وجهي بعدها.

سكتت الأمّ، ففي كلّ مرة تطلب فيها منه الانضمام إلى إخوته للعمل في محل بيع الجوخ، ينتهي بهما الكلام إلى العبارة ذاتها، السياحة أو الرهبنة. ولا تجد أمامها كي لا تغيظ ابنها سوى أن تقول: خير إن شاء الله يا ابني.. خير إن شاء الله! الله يهديك ويحرسك... ثمّ يأخذها من يدها إلى غرفتها لتنام، يفرك قدميها، ويسألها عن حجرة العقيق التي وصفها لها معلّمه الخواجه لوكاس فحسّنت مزاجها، فتريه إيّاها معلّقة في خيط في رقبتها، فيطمئن.

- دي نامي يامو.. تصبحي على خير. ويظلّ يفرك قدميها، وحين أراد أن يقوم استوقفته:
- حنّا، احكي لي حكاية.
- أيّة حكاية يامو؟
- حكايتك مع البابا، كيف رأيته يا ولدي، ربنا يعزّك؟
- هذا يا أمّي، "لمّا خرج موكب البابا في (زياح كنيسة العذرا) احتفالاً بـ (عيد الجسد)، مثل عنا يامو، يطوفون بالأشياء

المقدّسة الموجودة في الكنيسة. مرّ الزياح من حارتي في باريز عند جسر مار مخايل، وكان فيه البابا محفوفاً بالأبّهة، بالذهب، والأيقونات، والذخائر العظيمة، ووقفت أتفرّج على الموكب من الشبّاك، فوجدت فيه أكثر من خمسمئة كاهن وشمّاس في أبهى الحلل، ثمّ وصلتْ خيمة عظيمة باثني عشر عموداً مجللة بالمخمل الأحمر، ويجلس فيها البابا، وهو يمسك الشعاع المقدّس الموجود فيه جسد ملك الملوك يسوع: "فلمّا تفرّست في ذلك الشعاع، رأيت كأنّه الشمس، لا يستطيع الإنسان أن يحدّق فيه من كثرة الجواهر المرصّعة فيه من ألماس، وياقوت، وزمرّد، وغيرها من أحجار ثمينة، شيء يخطف النظر! وفيما أنا غارق فيما أرى دخل معلمي، ونبّهني إلى الكتابة العربيّة على الشراشف الحمر التي تجلّل خيمة البابا، فقلت له متعجّباً: هذه شهادة المسلمين! فقال لي إنّه أراد أن يتأكّد منّي، وإنّ عليّ أن أُخْطِر البابا بذلك، فكيف يمشي موكبه بشهادتَي المسلمين! وأضاف معلّمي بأنّ البابا سيكافئني ببخشيش وافر على إخلاصي. وهكذا، بعد ساعات، مضيتُ إلى السرايا، فمنعني الحجّاب، وبقيت أتجادل معهم إلى أن رافقني أحدهم إلى محلّ حضرة البابا، فأصعدني إلى حجرة، ولمّا دخلت رأيت رجلاً مهيباً جالساً على كرسيّ، وكان سكرتير البابا، فتفرّس فيّ وسألني: من تكون أنت، ومن أيّ البلاد؟ فأجبته: أنا من بلاد سوريا من مدينة حلب. فسألني بلسان عربيّ فصيح: من أيّ طائفة تكون؟ فأجبته: أنا من طائفة الموارنة، فرحّب بي كثيراً،

وقال: السلامة بابن بلادي، وعرّفني بنفسه وقال: أنا من بيت زمريّا، وأخي الكبير هو باولو جلبي، والآخر يوسف، والأخ الأكبر للجميع هو زمريّا وكيل القدس في إسطنبول، فأجبته بأنّي أعرف خواجه باولو وخواجه يوسف في حلب، وأنّ اسمهم مشهور عند الجميع بحسن الصيت والسمعة. ثمّ حكيت له قضيّة الشراشف الحمر، وأنّي أريد الدخول على البابا. فقال إنّ عليه التثبّت من الأمر، وإن كان هناك حاجة لدخولي على حضرة البابا فسيدخلني. في اليوم التالي، قال لي إنّه حكى القضيّة لحضرة سيّدنا، فأجرى تحقيقاً، وعرفنا أنّ هذه الشراشف هي بيارق قديمة للمغاربة أخذت منهم أثناء الحرب معهم، وهي موضوعة في خزانة الكنيسة من أيّام ملوك فرنسا المحاربين، الذين كانوا يحتفظون بها دليلاً على انتصاراتهم، وقد وجدها الكاهن الذي أعدّ الخيمة صدفة، فغطّى بها الهيكل، وقد أمر سيّدنا بإحراقها، ثمّ قال لي إنّه لاحاجة لدخولي على حضرة البابا".

- نمتِ يامو؟

- يعني لم تدخل على سيّدنا يا حنّا، ولم تقبّل يده؟

قال حنّا بانكسار: لا يا أمّي لم يدخلوني، ابن زمريّا بحيلته صدّني عن الدخول. لكنّني دخلت على الملك ورأيته، والله دخلت على ملك فرنسا، وهو في مخدعه، كان جالساً على كرسي وأمامه شمعتان، وفي يده كتاب، وأمامه على سرير مجلّل بالديباج والذهب الوهّاج أميرة متّكئة، لم تر عيني أجمل منها في كلّ ما رأيت من عجائب الدنيا...

ليالي العاشقين

حاولت ميسّر إقناع فتوح بالزواج من حسن القزّاز، بعد أن حكت لها عن الصدفة التي جمعتها به في خان العسل، ثمّ ما دار بينهما من حديث حين أحضر لها الكتب، وقالت لها ميسّر إنّها تَصدُقها النصيحة، لأنّ حسن من أحسن الرجال في العقبة، بل في حلب، ولن تجد أكمل منه دينًا، وعلمًا، ورجولة، لكنّ فتوح نفرت من ذلك الحديث، وكانت طلبت إلى ميسّر أن تكلّم حسن ليكفّ عن التوسّل لأبيها، فيرسل أباه وعمّه للتوسّط لديهم لإتمام الخطبة، وذلك لأنّ ميسّر تدرّس أخته (نور العيون) وتراه باستمرار حين يوصلها إلى مكتب الدرس في الجامع:

- كيف لي أن أتزوّج به؟ لا أتخيّله سوى ذلك الولد الصغير الذي حضرت حفلة طهوره!

نظرت إليها ميسّر بتشكّك، وكانتا تجلسان في حرملك دار الجوهريّ:

- هل تفكّرين بالزواج من الطبيب الإنجليزيّ؟

وقع قلب فتوح من السؤال المباغت، واستنكرته، وهي تلعن في داخلها حدس صاحبتها الرهيب.

- ماذا تقولين، أكيد فقدت عقلك!

أقول ربّما، فقد رأيتك تأكلينه بعينيك، حين كنّا نستمع إلى الحكاية في غرفة حنّا.

- أنت مخطئة، كيف سأتزوّج من نصرانيّ وإفرنجيّ؟
- يقولون إنّه أسلم منذ زمن!
- إنّه رجل كبير في السنّ، وصديق لوالدي، لا هو من ثوبي، ولا أنا من ثوبه، ثمّ إنّي أخاف دخول عتبة بيت القزّار، عندهم ربيبة مجذوبة، أموت رعباً منها، *راكبها جان*، وهي قريبة لأمّه، يطلقونها في الحوش أحياناً، تنظر في الأرض، وتلعب بمجموعة من الدبابيس، وتتمتم طوال الوقت، فكيف سأعيش معها في بيت واحد! لا دخل للطبيب في الأمر مطلقاً، وليس في بالي.
- إيه، سمعت أيضاً منذ مدّة أنّه سيتزوّج بدوقة إنجليزيّة، قد حلّت ضيفة على قنصلهم منذ أشهر. تعرفين أنّني أصدقك النصيحة، تزوّجي بحَسن القزّاز وانستري، واطلبي منه السكن في قصر الوالي، وسيلبّي...

وقع كلام ميسّر حول ارتباط باتريك على رأس فتوح مثل حجرة ثقيلة، بدّدت أملها، وإن كانت تعرف في دخيلتها أنّ رغبتها بالقرب من الإنجليزيّ هي مجرّد أمنياتٍ لا مستقبل لها، لكنّها استفزّتها وأرادت أن تصرخ في وجهها، وقد صرخت فعلاً: قولي للقزّاز في أوّل فرصة إنّ المعلّمة جاءت إلى حلب، لأنّها ستتزوّج رجلاً من أقربائها من حيّ البيّاضة، ولا ترى فيك سوى أخ صغير تحبّ أن يعيش حياته بعيداً عنها، وإن عاود إحراجي بطلبي مرّة أخرى، سيرى ما لا يحبّه.

- بل قولي له أنتِ ذلك، فلا يمكنّني أن أكون بهذه القسوة! أخبريه بالحقيقة، ولن يزعجك ثانية، سيذهب. أنا أعرف حسن جيّداً،

إنّه مثل الذئاب الجريحة، تنأى بنفسها بعيداً حيث لا تراها العين لتداوي جراحها أو تموت.

***

وصل ردّ فتوح العارفين إلى حسن، فغاب عن أهله خمسة أيّام بلياليها، لم يعرفوا له فيها خبراً. كان قد هجر الحيّ، ولم يطلع إلى خان العسل، وترك رزقه وشغّيلته، وغادر الحيّ ليلاً يجرجر قدميه نحو شمال المدينة باتّجاه (باب الفرج)، قلبه ثقيل، والدنيا مسودّة في عينه، ولم يعد له فيها أمل، بعد أن أدركه اليأس من حبّ فتوح. إنّها لن تكون له للمرّة الثانية، وهو لا يعترض على حكم الله، لكنّ للقلب أحكامه، ومن حقّه أن يحزن، ويبكي، ويسأل لماذا لم يطابق هواه هواها.

كان مستعداً ليبذل لها كلّ نفيس، يضع شبابه، وماله، وقلبه بين يديها، بل تحت قدميها لترضى. سيفوتها الكثير من السعادة، سعادة لم تكن لتخطر في بالها أو تراها في أحلامها، سعادة من تلك التي يحكي عنها حنّا دياب الذي خرّب عقلها بحكاياته، كما يعتقد. يخطو على الحجارة المرصوفة هائماً، وصورتها بين عينيه، وهي تنحني لتتناول منه الكتب، فينفرد شعرها البنيّ ويلامس ظهر كفّه فتسري في بدنه رعدة لطيفة لم يعرفها من قبل. يكاد يقع من الوجد، فيسند يده إلى الجدار، وينظر نحو السماء يناجي ربّه، ويدعوه أن يغيّر حاله بحال تجمعه بفتوح، فيرى القمر بازغاً يضيء ليل حلب، وكلّ شيء في مكانه، الشجر والبشر والحوانيت والدروب، وقطط الشوارع، إلاّ قلبه المخلوع من الخيبة. الكائنات من حوله قادرة على أن تعيش أيّامها راضية، وهو قد انقلبت حياته إلى تعاسة

وليس إلى استعادة طمأنينته سبيل. تنهمر دموعه على الفقد، وكأنّه واجه موتاً، لكن ما الفرق بين غياب فتوح وموتها، حين لاسبيل إلى التلاقي. كان نباح الكلاب القادم من الشمال حيث المزارع حول مجرى النهر يقلق سكون الليل، لكنّ (حسن) كان مشغولاً بما يضجّ في نفسه.

قطع تحت ضوء القمر البستان الصغير المشجّر بأشجار الرمّان والقراصية، ثمّ عبر القنطرة فوق خندق الماء، ودخل زاوية الدراويش في جامع السهروورديّ. كانوا قد بدأوا جلستهم بعد العشاء، وانخرطوا في الذكر والابتهال، فكفكف دموعه، وتوضّأ وصلّى ركعتين، وأراد أن يطلب من الله أن يقتلع حبّ فتوح من قلبه، لكنّه بدّل الدعاء وقال: اللهم ارزقني حبّها يا الله، اجمع بيني وبينها بالحلال يا كريم، يا مقلّب القلوب! وطفق يبكي من جديد، وحنّت لبكائه شجرة التوت في باحة الجامع حيث كان يصلّي، وشعر بأغصانها تدنو منه، كأنّها تطبطب عليه: يا رب، حتّى الشجر رقّ لحالي، فما الحكمة من التجافي، وما الحكمة في ألّا تكون المرأة التي عشقتها لي، إذ أعرف أنّ كلّ من طلب من صحبي حبيباً، نالَهُ، وأنا العبد لله المحروم.

كان أهل الحلقة قد اشتدّ بهم الوجد وبدأوا بنشيد صاحب المقام:

أبداً تحنّ إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والرّاح

فتصبّر، وقال في نفسه: إن لم تكن لي في الدنيا، فلعلّ لقاء بعد الممات يكون! ولمّا هدأ حال الجماعة وانفضّ مجلسهم، فغادر من غادر، وعاد من عاد إلى صلاته، وخلد آخرون لقيلولة قبل قيام الليل، بقي حسن جالساً إلى جوار الضريح وقد غارت عيناه، واحتقن جلد وجهه الجميل، فاقترب منه شيخ يتوكّأ على عصاه، وعبّأ له الطاس من الزير تحت الشجرة، وقدّم له الماء، فلملم حسن شعثه، وتناول منه الإناء وشكره:

- بلّ حلقَك يا ولدي، لقد جفّ من البكاء! صدّقني لو كانت الدموع تعيد الراحلين لقلت لك: ابكِ، ولبكينا جميعاً معك. رحم الله من فقدت يا ابني.

انتفض حسن: بعد عمر طويل يا مولانا!

- لا بأس، الرحمة تجوز على الطيّب والميّت.. كلّ ما عدا فقد الأحبّة هيّن يا ولدي.

عادت الدموع لتتجمّع في مآقي حسن: هو ذا يا مولانا.

سكت الشيخ برهة، ثمّ قال: ليس موتاً إذن هجر حبيب لحبيب. هيّنة يا...

- حسن.
- هيّنة يا حسن، ومقدور عليها.
- كيف؟
- بالتسليم يا حسن، لو كان فيها الخير، لكانت لك، أو لبقيت معك.
- لم تكن لي يوماً وهذا ما يؤلمني، دعوت الله، وضعت يدي بباب بيته، وحين مات زوجها، قلت هاهي الإجابة قد حصلت، وخطبتها فلم توافق. قدّمت لها كلّ ما يخطر، وما لايخطر ببال عارف، ورفضت، وستتزوّج برجل آخر. لعلّني أخطأت ولم أستغفر يا شيخي، فلم يقبل دعائي! أريد أن أراها بين يديّ لليلة واحدة ثمّ أموت.
- لا تقل ذلك يا ولدي، لقد قدّر الله لك الحياة، وستعيش عمراً طويلاً، وستسعد مع غيرها، ربّما ألف مرّة أكثر، وستكون لك

ذريّة صالحة تقرّ بها عينك، أنت ترى الظاهر، ارفعه عنك يا حسن لترى الباطن، عندها ستدرك شكل الاستجابة الإلهيّة.

سكت حسن، وتنهّد الشيخ تنهيدة عميقة، وقال: تعلم يا ولدي يا حسن، الخير في الإعراض عمّا هو زائل، الله يحبّك، ويريدك منزّهاً عن التعلّق بالبشر، فالتعلّق بهم عبوديّة، حتّى لو كانوا أحبّة.

- لا، لا يا شيخي لست أعبد سوى الواحد الأحد، هو يعلم ذلك، ولم تُمنع عنّي لهذا السبب، هناك حكمة أبعد من دون شكّ.

أراد الشيخ أن يسلّيه مرة أخرى: أحياناً رؤية الحبيب مباشرة لا تحتمل، تقتل، أو تذهب بالعقل، ولعلّك نجوت من الموت والغواية معاً، وكتبت لك حياة جديدة.

مسح الشاب وجهه بكفّيه القويّتين، وقد نفرت عروقهما الزرقاء بشدّة، ثمّ فردهما على قماش الضريح:

- ما نفع الحياة الجديدة بلا أحبّة!
- وبعدين يا حسن، كلّما فتحت لك باب السلوان أغلقته، صلّ عالنبي يا ولدي...
- اللهمّ صلّ على سيّدنا محمّد، لا عليك يا شيخي، أعرف أنّ الله سيرأف بحالي، لكن أردت أن أنفّس عن كربي بالبكاء قليلاً.. وأراد أن يقوم...
- لا تذهب يا ولدي، ابق هنا الليلة، بل ابق حتّى تنزل عليك السكينة.

حين عاد حسن من خلوته، وجد المدينة لا ضياء فيها ولا روح، قلبها قاس مثل هذه الحجارة الكتيمة، بل أشدّ قسوة، وقرّر بما لا رجعة

فيه، أنّه سيهجر كلّ مكان يذكّره بفتوح، فلو كان لديه أمل بقدر حبّة خردل لأضاءت الدنيا في وجهه. كيف يمكن لشخص واحد في هذه الدنيا، شخص غريب، ربّما ليس من لحمنا ودمنا أن يجعل الدنيا جنّة واسعة لا حدود لجمالها، وتصبح بلحظة حين نفقده أوحشَ من ظلمات القبور!

كان حسن يسأل نفسه: لماذا عادت، وما الحكمةُ من عودتها أرملةً، وكان يقول في نفسه إنّه لن يطمئنّ عليها مع رجل آخر، فلا أحد يستحقّ فتوح العارفين، ومن يستحقها ليس ابنًا لهذه الحياة، لم يخلق بعد، ولن يكون.

عاد حسن بعد أيّام إلى المقام، وجلس إلى الشيخ في خلوته تحت الشجرة، وقال: جئت لأودّعك! ثمّ أعطاه وثيقة:

- وقفت جزءاً من الخان على الدراويش من زوّار المقام، وجعلتك أمينًا على الوقف، وخصصت لك جراية. سأذهب إلى مكّة، هي المكان الوحيد الذي يمكن أن أسلو فيه حزني وأغسل همومي، وليس في نيّتي العودة، والله أعلم. حينها ملأ صوت أحد الدراويش الفضاء منشداً:

أقصروا الهجر أو أقلّوا جفاكم/ ففؤادي وحقّكم ما سلاكمْ

يا بُدوراً محلّها في فؤادي/ كيف أختارُ في الأنامِ سواكم

فبكى حسن، وبكى الشيخ معه...

لم تأبه فتوح لحال حسن، وما ذلك ذنبها، فالقلوب بين يدي الرحمن، وليس لأحد حقّ على أحد في قلبه، وقد كانت تعاني هي الأخرى من الوجد بطريقتها، ومن اليأس الذي أخذت تتدرّب عليه، وتلهي نفسها عنه بالتفكير في عملها بالنسخ والتدريس.

* * *

حفيدة تيمورلنك

استطاعت ميسّر بإمكانات عالمها الأكثر محدوديّة أن تلمّ بشيء من علوم العربيّة، ومهاراتها، كالنحو، والخطّ، ودرست التاريخ، إلى جانب تمكّنها من القراءة بالفارسيّة والتركيّة، وحين عادت فتوح إلى حلب، وجدت ميسّر وقد تابعت تردّدها إلى مكتب (المدرسة الخسرويّة) مقابل القلعة لمدّة سنتين، وختمت العلم الذي كان بالإمكان أن يقدّم لها، وانتقلت إلى تعليم الأطفالِ الصغار، والبناتِ الأكبر سنّاً القراءةَ، والكتابة، ومبادئ الحساب، لكنّها لم تنقطع عن خطّ الكتب، ونسخها، كلّما كان يطلب إليها ذلك من التجّار وأصحاب المكتبات الخاصّة، وقد تدرّبت على الخطّ بأكثر من قلم: القلم النسخيّ، والفارسيّ، والديوانيّ، والمشجّر، وكانت من النساء النوادر في ذلك المجال، وكانت حلب آنذاك سوقاً كبيرة لبيع الكتب، إذ أبدى علماؤها وأغنياؤها شغفاً باقتناء الكتب والمخطوطات، وكانوا يبذلون أموالاً طائلة في استنساخها، وكان المرء يجد في كثير من الدور خزائن عامرة بأنفس الكتب المخطوطة، يتباهى بها أصحابها، ويرون أن اقتناء الكتب يورث الغنى، هذا فضلاً عن خزائن الكتب في مكتبات الأوقاف في المدارس العامّة والمساجد، كمكتبة المدرسة السلطانيّة، والمدرسة الشعبانيّة، ومدرسة جامع القرناصيّة، والمدرسة البهائيّة. كان في حلب أضعاف ذلك العدد من المكتبات، تحوي

مخطوطات تعود إلى عصر الإسلام الأوّل، لكنّها فنيت بحرائق تيمورلنك الذي أشعلها قبل خروجه من المدينة، وذلك قبل ما يزيد على أربعمئة سنة على وصول ميسّر إليها، وكانت فتوح تستفزّ ميسّر بقولها: ديون جدّك السفّاح في رقبتك، وعليك أن تقضي عمرك في خطّ الكتب مجّانًا تعويضًا عن تلك التي أحرقها، وكانت ميسّر تبتسم لتلك المناكفة، لكنّها في قرارة نفسها ترى أنّ الرجل الذي جاءت من سلالته بطل عظيم قد أخضع العالم لسلطانه. كانت المعلّمات في البيوت والمدارس يغبطن ميسّر على معرفتها بأسرار الخط، وبالقدرة على القراءة بأكثر من لغة، وكانت إحدى المعلّمات وهي زوجة لقاضٍ من آل المغاربة تقول لها: حسن الخطّ مزية كبيرة، وباب عظيم من أبواب الرزق. أمّا فتوح فقد تحصّلت على صلتها بالخطّ وأسرار الحرف من علاقتها بالشيخ موسى، وقد شاركته معارفه في تلك السنوات القلائل، التي انقضت سريعًا كما تنقضي المنامات العذاب. كانت ميسّر قد خطّت نسختين من القرآن الكريم بقلم النسخ، وبالقلم الفارسيّ النادر، ووهبتهما إلى جامع العادليّة، كما باعت نسخة خطّتها من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير، ونسخة من (النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي وقد أحبّت الكتب التي خطّتها إذ عرفتها بأسرار الخليقة من خلق العرش، والكرسيّ، والسموات والأرضين، إلى قصص النبيّين، وأخبار الفتن، والملاحم في الزمنين البعيد والقريب، وقد جعلتها تلك المعرفة تدرك ذاتها، وتحاول استنباط الجدوى من قدرها، فتحتمل عذابات القطيعة عن الوالدين، والعائلة، والوطن، وأهل اللسان. وكانت تقول في نفسها بين حين وآخر: لعلّ الله جلّ وعلا أرادني أن أكون أقرب إلى مواقع الفضل والبركة، ثمّ لا أحد يعيش غريبًا في حلب!

كان أمام بوابة الجامع الكبير مصلّون يخرجون ويدخلون بين صلاتي العصر والمغرب. يجلس في الساحة متسوّلون عميان، أو مقعدون، تصدح أصواتهم ببعض سور القرآن أو الأدعية، يضع الواحد منهم أمامه خرقة، نثر فوقها بضعة فلوس، علّها تلفت نظر المحسنين فيزيدونها، في حين تجد في الساحة الداخليّة للجامع المحترفين منهم، الذين يرتّلون الكتاب على أجود ما يكون، وتستطيع أن تستأجرهم لغاية ما: نَذْر، أو مأتم، أو كتب كتاب، أو طهور، وقد حجزوا أماكنهم منذ زمن في البُقعة ذاتها، بحيث لا يجرؤ أحد على منازعتهم المكان خشية الضرر المتوقّع من الأرض أو من السماء. ستجد أيضاً بائعي البسطة خارج الحوانيت، الذين ينقذونك في اللحظات الأخيرة وأنت خارج من السوق الداخليّ، إذ تتذكر أنّك بحاجة إلى مشط، أو عدّة خياطة صغيرة مجموعة في كيس من الخيش، وهُمْ يحملون بضاعتهم في صناديق خشبيّة مستلقية أمامهم، ويمكنهم حملها معلّقة على رقابهم بحزام جلديّ. ستجد معهم علْكَ البطم، وأحجاراً مزيّفة تحاكي الحجر الكريم من عقيق وفيروز، ستلقي ميسّر نظرة سريعة على هذا المهرجان كلّه، وتدخل إلى الصحن الواسع حيث الشيخ (مُحبّ) الذي يجلس في محلّه كلّ يوم من الضحى إلى صلاة المغرب، يقرأ القرآن لأصحاب الحاجات على نيّة الفرج، أو الشفاء، أو ردّ الغائب، أو تحرير المحبوس، أو حمل النساء، وكانت ميسّر قد جاءت له بأرغفة الخبز الطازج الذي صنعته في بيتها، مع علبتين من الخشب لحفظ الطعام:

- شيخ محب، السلام عليكم.. أتيت لك بدبس وطحينة
- وعليكم السلام يا ابنتي يا ميسّر، أما من مرق! لحم بالمرق!

- المرّة القادمة إن شاء الله.

كان دائمـًا يمازحها قائلاً: يا ميسّر لماذا أمرك معسّر!

وكانت تقول له: تريده مزاحـًا يا شيخي، لكنّها الحقيقة، ولا أعرف الحكمة وراءها!

- الصبر يا ابنتي، الصبر.

يقبل الشيخ محبّ الأعمى، على الطعام بنهم. يلقي عصاه، ويطلب من ميسّر أن تفتح له السفرطاس، وهي متربّعة أمامه، وتسأله الدعاء:

- ادع لي يا شيخي الله يجمعني برضا! طالت يا شيخي ولا يبين لها آخر.
- توكّلي بالله يا ميسّر... ومدّ يده وغطّ لقمة الخبز بالطحينة، ثمّ غطّها بالدبس وهو يقول: عودته قريبة، إن شاء الله، أراه على الدرب يا ابنتي قادم لا محالة!
- كيف تراه يا شيخي وأنت أعمى! فيضحكان... صار لك ثلاث سنوات تقول لي الكلام ذاته، أليس لهذه الطريق نهاية.
- قلنا الصبر يا ابنتي، نعم أراه في الداخل في رأسي وليس بعينيّ الكليلتين، كنت سابقـًا أراه في أرض بيضاء، مغطّاة بالثلوج، محاطة بالجبال، وخالية من البشر، أمّا الآن فأراه في حقول خضراء بهيجة تجري فيها أنهار، وفيها صبايا جميلات، وشباب حسان، لقد اقترب من البلاد إذن...
- حقول خضراء وأنهار، وصبايا، أخاف أن يكون قد صار في الجنّة يا شيخي، ونسي الدنيا ومن فيها. *الله يسامحك على هالرؤيا!*

وتقوم ميسّر متثاقلة، مهدودة من الهمّ والأشواق، وتتفقّد بضعة عميان من الجالسين في صحن المسجد تستجدي منهم الدعاء، وتمنحهم من خبزها أرغفة طازجة، فتتعالى أدعيتهم لها بالفرج وتحقيق المراد.

سيق رضا بعد زواجهما بشهر فقط إلى الجنديّة. كانت هدايا العرس ما زالت في علبها حين دخلوا عليه واقتادوه إلى مركز التجنيد، ليدفعوا به إلى كلّز حيث مركز الفرز، ومن هناك إلى البلقان. لم تعرف عنه شيئاً منذ ذلك الوقت! لو امتلكت عشر ذهبات عصمليّة تدفعها بدلاً لتفكّه من الجنديّة، أو على الأقل لتعيينه في الضابطة المحليّة، لكانت تتقلّب الآن في أحضانه، ولربما كان طفلها الأوّل في حجرها، لكن لم تكن الليرات كلّها بحوزتها، وقد وصل رضا إلى نقطة الفرز قبل أن تتمكّن وأهله من تأمين بقيّة الذهبات، وهكذا ما كادت النار التي أوقدها الرجل فيها تشتعل حتّى انطفأت، وتركها رضا في أوّل الطريق وحيدة، ونصف عذراء. ولمّا طال بها الأمد تركت بيت زوجها وعادت إلى بيت أهلها على رجاء. وحين عادت فتوح إلى حلب قررت مساعدة صديقة طفولتها، فطلبت إليها أن ترافقها وتعمل معها في المدرسة، ووقفت عليها ريع واحد من الدكاكين التي تملكها إلى حين عودة زوجها.

تقف ميسّر خلف مشربيّة المربّع في الدار التي تربّت فيها، كان أهلها قد رحّبوا بها بعطف بعد مغادرة رضا إلى الجنديّة، لم يكونوا أثرياء مقارنة بآل الجوهريّ، لكنّهم ميسورون، كان والدها دبّاغاً للجلود، يمتلك مدبغة في الفلاة التي تقع خارج باب أنطاكية، وتحت يديه مجموعة من العمّال، ويورّد بضائعه مع القوافل المتّجهة إلى أسواق الشام وبيروت، وكان رضا ابناً يتيماً لأحد عملائه، وكانت فيه سوسة تستهجنها عائلات

الأكابر في الرجال، وهي هواية الخيالاتيّة. وبعد وفاة الدبّاغ وزوجته خطب رضا ميسّر، وكان قد وقع في حبّها منذ زمن، ليس لأنّه رأى امرأة من غير حريم بيتهم للمرّة الأولى فحسب، بل لأنّ فيها مواصفات أغرب من تلك التي تحكي عنها النساء، ويرغبنَ في أن تكون في زوجات أبنائهنّ. كانت عنيدة لا تستسلم، تفرض رأيها حتى لو كان ضدّ مصلحتها، وكانت تمتلك لغة بليغة التعبير، تدفعها روح ساخرة، تواجه بها حتّى أدقّ الأحداث من حولها وأصعبها. أمّا جمالها فلم يكن على مقاييس أهل حلب، كانت باهتة اللون، بعينين داكنتين ضيّقتين بامتدادين مستقيمين على وجهها المدوّر بخدّين عاليين، يكلّله شعر أسود مسترسل، وكانت طويلة بجذع صغير، وبردفين كبيرين لافتين، وبعد زاوجها بشهر فحسب زاد حجمها ضعفًا، وكلّ يقول إنّ ذلك من فرط الهناءة، فكانت تفطر مع رضا مرّتين، وتتغدّى مرّتين، وتتعشّى مرّتين، وكانت تجلس معه إلى المائدة ويطعمها بيديه قائلاً: صحّة وهنا يا ميسّر، إن شاء الله سِمن وحسن! حتى سمنت فعلاً، وتجلّى فيها ذلك الحسن الذي يصيب الزوجات المبتدئات، حالما يرتوين بماء الذكورة.

كانت فتوح تحبّ جمال ميسّر، وتجده فريداً. تتأمّل شفتيها الممتلئتين اللتين تطبقان على أسنان بيضاء أنيقة، وبشرتها المصفرّة الصافية مثل قشر السفرجل، وكتفيها الضيّقين، ونهديها الصغيرين، وخصرها النحيل قياسًا إلى عرض الردفين، والفخذين اللذين لا يمكن سوى لساقين غليظتين وقويّتين أن تحملهما. لا تشبع فتوح من النظر إلى تفاصيل صاحبتها، ولا تملّ من سماع حديثها، فميسّر هي التي تقدّم لها المعرفة الحقيقيّة بالعالم، وناسه العاديّين، وتفاصيل حياتهم، أكلهم،

وشربهم، وحزنهم، وفرحهم بلا أقنعة، ولا تحفّظات، ذلك العالم الذي حجبت أسوار القصور كثيراً من تفاصيله عنها. تشعر تجاهها بالذنب في أنّها على الرغم من علاقات عائلتها الواسعة، من طرف أمّها وأبيها على حدّ سواء، ورغم ثرائها كلّه، لم تستطع أن تساعدها في تخليص زوجها من الجنديّة. شعرت بالعجز، كان يمكن أن تفعل ذلك بطريقة ما، كأن تدفع عنها الذهبات، لكنّها تأخّرت في الوصول، وفي الإجراء. ميسّر أيضاً لم تتوقّع أن تكون السعادة شيئاً أشبه بمطر الصيف، يصيب ولا يروي. كانت سعادتها قصيرة، وهي تعرف من سلبها إيّاها، إنّهم بشر مثلها، يعيشون في حلب قريباً من بيتها، يأكلون مثلها، ويشربون، ويمشون في الأسواق، ويتزوّجون، لكنّهم قادرون، ويمكنهم بأمر واحد أن ينفوا عنها الطمأنينة والحب، ويأخذوا رضا إلى أقاصي الأرض، وربّما لا يعيدونه. كان يمكن لذلك كلّه أن يمرّ لو تغاضى أحد عن اسمه في السجلاّت، أيّ أحد: المختار، أو المسجّل، أو الحاكمدار، ولو أنّ أحداً ساعده على تسجيل اسمه في مدرسة ما، كما يفعل أبناء المتنفّذين الذين لم يقرأوا حرفاً، لما كان خضع للقرعة. أيّة صدفة كان يمكنها أن تمنع استدعاءه، لكنّها لم تحدث.

اقتربت منها فتوح وهي تنظر باتّجاه القلعة، وسألت: إلام تنظرين؟

أشارت لها إلى البعيد نحو السرايا التي تواجه القلعة: هناك يعيش المسؤولون عن بؤسنا، بيني وبينهم خطوات. يظنون أنّ هذه الدولة العظيمة التي لا يعرف أوّلها من آخرها ستنتظر رضا ليحمي وجودها، ويدافع عنها ضدّ الأعداء. رضا الذي أسمع طقطقة أضلاعه بمجرّد أن أعتليه، ولا يستحمل في جفائي كلمتين فيصير مثل العجين، ماذا يمكن أن

يقدّم من بطولات للدفاع عن بلاد لا يعرف ألسنة أهلها، ولا عاداتهم، ولا أحوالهم، لا يعرف في هذه الحرب مَن ضدّ مَن، ومَن مع مَن!

أنا لا أعشّم نفسي بعودته، لذلك لم أعد خائفة عليه. لقد مات، قتله أحدهم على الجبهة، أو أكلته الذئاب في البراري، لكنّني حزينة عليه، على ذلك المصير الذي لقيه! ما ذنبه؟ شابّ في عمر الورد، ممتلئ بالأحلام، يريد أن يعيش طويلاً، وأن يصير له ملكُه الخاصّ، وينجب أولاداً كثراً يحسن تربيتهم ويكفيهم. لم يطمع لا بمال ليس من حقّه، ولا بسلطان على غير عياله، وفي غمضة عين يندثر ذلك كلّه، يأتي بَشَرٌ أشدّاء، لا نعرفهم ولا يعرفوننا، يقتحمون البيت، ويأخذونه من حضني، ويغيب إلى الأبد.

- سيعود إن شاء الله، لن يغيب طويلاً.
- سيعود لكن لن يكون هو، أنت لا تعرفين شيئًا عن الذين يعودون من هناك، من اليونان، أو البلقان، أو بلاد الروس، يعودون أنصاف آدميّين، يعودون ليموتوا فحسب. أحد أقربائنا من بيت الدبّاغ حكى لنا قصصًا تشيب لها الولدان! كان شابًّا أخته تعشقه، كاملاً مكمّلاً، تزوّج بنتًا ذات حسن ودلال من قريبات أمّه... المهم، ساقوه في ليلة ما فيها ضوء قمر إلى الجبهة إلى سالونيك، ليحارب اليونانيين، وبعد أن قطعوا بلاداً وبراري وبحوراً، قرّر وثلاثة من أصحابه الفرار، والعودة إلى حلب، وركبوا قافلة تعبر الصحراء، فجاءت زوبعة عظيمة حملتهم بعيداً عن القافلة، وانقطعوا وحيدين في مكان مجهول، لا إنس فيه، ولا جنّ ولا حيوانَ، حتّى طيرُ السماء كان يأبى

التحليقَ فوقَه. كان يعدّ الأيام حتى اختلط عليه عددها. رمتهم الزوبعة قرب بئر، فاستبشروا لعلّ قافلةً ما تمرّ، لكن مرّت أيّام ولم يقبل أحد، وكان واحد منهم جريحاً قد شارف على الموت، وهم ثلاثة ما زالوا أصحّاء، لكنّ قواهم خائرة، وقد استبدّ بهم الجوع الذي بينه وبين الموت شعرة، فقرّروا بصلادة العسكر أن يذبحوا الجريح ويأكلوا كبده حتّى يقتاتوا للمضيّ في الطريق. ذبحوا صاحبهم، وشووا كبده، وأكلوه وتابعوا الطريق، وقد نجا صاحبنا ووصل حلب، وحدّث أهله بحديثه، ففرّوا منه هاربين. امتلأت زوجته منه رعباً واشمئزازاً، وخافت على أولادها من أن يأكلهم، فهربت بهم، ولا أحد يعلم إلى أين. بعد شهر قتل الرجل نفسه بسلاح الجنديّة الذي كان معه، ودفن من غير أن يصلي أحد عليه.

- يا لطيف يا ميسّر، ما هذا، ما هذا البؤس!
- هذا ما يحصل للعائدين من الحروب.
- والله حكاياتك أغرب من حكايات حنّا دياب!
- هه، ومن أين يأتي حنّا بحكاياته! من الظلم، والقسوة، والحيف الذي نراه هنا كلّ يوم، ليست الحرب فحسب، اذهبي إلى الدكاكين، وانظري أحوال البيّاعين، أقول البيّاعين الصغار لا التجّار البناديق، الجوهريّ أبوك ليس مقياساً. تجّار المفرّق المرزوق منهم يستطيع إطعام أهله الخبز. لم تبقِ الحكومة ذهبة واحدة في يد تاجر، الضرائب تأكلُ من لحم الناس، وتشرب دمهم، أنت تظنّين التجّار كلهم مثلكم، لأنّك منهم يا فتوح،

المتماثلون يتقابلون، لكنكم قلّة، غيركم هم السواد الأعظم الذين لا يجدون القوت.

- أنا لست منهم. أبي تعب في ماله، وأنت تعرفين ذلك، لكنّه يعرف كيف يدير الأمور، وكيف يحمي صناعته وملكه. هل تعتقدين أنّ مال أبي حرام!
- لا أريد أن أتكلّم في ذلك، لأننا سنخسر بعضنا، وهذا ما لا أريده حقّاً.
- هل تعرفين شيئاً لا أعرفه بهذا الخصوص.
- لا.

* * *

قد يمتلك الجوهري هيبة لا يمتلكها رجل في حلب. إنّه ليس مجرّد تاجر بل هو رجل علاقات وإدارة، لم يقبل أن يعيّن في أيّ منصب حكوميّ، إذ طالما آمن أنّ النفوذ أهمّ من السلطة، فالسلطة تروح وتجيء، تتغيّر بتغيّر الوالي أو حتّى السلطان نفسه، لكنّ النفوذ يقوى مع الزمن، تربّيه كما تربّي أولادك، وتتوسّع دائرته باتّساع ثروتك، ويصحّ العكس أيضاً، وهذه هي المعادلة التي أمسك الجوهريّ بطرفيها. إنّه يعرف كيف يستفيد من السلطة ويفيدها، فهو مَدخل الأهالي إلى السرايا، يخدمهم ولا يقصّر معهم، ويلبّي مطالب التجّار، ويساعد المحتاجين، وأصحاب الغايات من المقيمين، والمسافرين، والوافدين إلى حلب. يسوّي المخالفات التي لا تؤذي عباد الله، ويساهم في تخفيض الضرائب عن أهل الصنعة، ويحمي أصحاب الحرف والمصالح من الجور، وفي الوقت

ذاته، يكون عوناً للوالي على النصّابين والمتكسّبين، وقبضايات السوق، ويقف مع السرايا ضدّ أيّة قوّة أهليّة ضاربة قد يكوّنها المستفيدون باسم السوق وتجّاره. ويمكن للجوهريّ عند الحاجة أن يضرب بسيف الوالي من غير سؤال. تعرف النساء سطوته أكثر من الرجال، لكنّه لم يكن محبوباً من قبلهنّ، أو أنّه لا يحسن الاختيار، إذ يقتربن منه لطمع فيه، وليس لمحبّة، ولاسيّما أنّه بات شيخاً، وأحفاده يملؤون الدار. وعلى الرغم من أنّ زوجته تعبد الأرض التي يمشي عليها، فلم يحبّها بالطريقة التي يتمنّى فيها رجل أن يكون مع امرأة. أمّا النساء الأخريات اللواتي تزوّج بهنّ، فلم تعمّر علاقته بهنّ، كنّ صغيرات، وغير جديرات بحفظ أسراره، وكان يخشى من فورة شهواتهنّ أن تودي به إلى ما لا يحبّ من فضيحة بعد ستر.

* * *

ثارت ميسّر على الوالي، وكانت وحدها أشجع من أيّ تنظيم معارض لسلطة القصر. بدأت الحكاية بعد أن ساقوا رضا إلى الجنديّة، وعرفت أنّها لن تستعيده أبداً. شعرت وقتها بيأسها وضآلتها، وأغلقت أبواب الأمل في وجهها، واستوت عندها الحياة مع الموت، ليس لأنّها أحبّت رضا، بل لأنّها أرادت أن تكون امرأة مثل كلّ النساء، لها بيت هي سلطانته، وزوج يمنحها الستر، وأولاد يشغلون أيّامها ويحملون كبرتها، لكن ما أن قبضت على الحلم حتّى سُرق منها، وآلَ وضعُها إلى الأسوأ، لا معلّقة ولا مطلّقة. في صباح يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل، وقد صادف يوم الخميس، انطلق الموكب الذي يسير فيه الوالي وحاشيته من السرايا إلى الجامع الكبير لإحياء

ذكرى المولد النبويّ الشريف، وكانت الحكومة معطّلة في ذلك اليوم، والأسواق ممتلئة بالناس الذين يقضون حوائجهم، وكانت ميسّر كعادتها بعد صلاة الظهر، تطوف في باحة المسجد حاملة ما فيه النصيب لإطعام المحتاجين وخدم الجامع، وتهديهم صرر الملبّس احتفالاً بمولد المصطفى عليه السلام، وحين خرجت قبل العصر بقليل، كان موكب الوالي يشقّ الطرقات، إلى حيث سيستمع الناس إلى قصّة المولد، ويُسقون الشراب الطهور، ويُنثر عليهم اللوز والحلوى، فوقفت تتفرّج مع المتفرّجين في الشارع الرئيس المنحدر من القلعة باتجاه الأسواق، حيث اجتمع الناس على الجنبات يهتفون باسم الوالي، ويهللون ويكبّرون، وينثرون السكاكر، محاطين بكلٍّ من الحرس المحليّ والانكشاريّة. وحين مرّ الموكب المبهرج بخيول مطهّمة تسرق أبّهتُها الأنظار، تسير بإيقاع واحد على قرع الطبول، غلى قلب ميسّر، وصار يقول (حق بق)، وفار الدم في عروقها، فما كان منها إلاّ أن صاحت من بين الناس: الله ينتقم منّك يا كافر، يا ظالم، ورمت مرآة، كانت اشترتها قبل قليل من بسطة أمام الجامع، على الموكب فجفل حصان الوالي، وراح يشبّ على رجليه، وكاد يردي من عليه لولا سترُ الله، وتصايح الناس الذين جَروا باتجاه الموكب، فمنعهم الجند وطوّقوا موقع الحادث، وحصلت فوضى كبيرة. ومع أنّ بعضاً من المجتمعين حاولوا حماية ميسّر وتهريبها، تمكّن الحرس من إلقاء القبض عليها، وساقوها إلى السراي، وهدّأوا الأهالي المحتجّين على اعتقالها، وتابع الموكب طريقه إلى الجامع الكبير.

لم تكن ميسّر نادمة على ما فعلت، إذ كانت تشعر بأنّها على حقّ، وأنّ ما ستلاقيه ليس أكثر ممّا رأته سابقاً، على الأقلّ في رحلة سَوْقها من

بلادها إلى حلب، لكن حين وصلت السراي، واحتجزت وحدها في غرفة صغيرة أشبه بسجن، خافت، وفكّرت بأهلها للمرّة الأولى. صحيح أنّ زوجها غائب، لكن كان عليها أن تحسب حساب الناس الطيّبين الذين عاشت بينهم، كأنّها واحدة منهم.

وصل خبر احتجاز ميسر إلى حيّ العقبة بتكتّم تامّ، إذ لم يعتد الناس في حلب على أن تساق النساء إلى السراي، ولم يُسمع عن امرأة خلوقة ومستورة، تقوم بأعمال شغب، فما فعلته ميسّر كان سابقة في ذلك الزمان، وقد أوقعت من حولها في حيص بيص، فما كان من فتوح إلاّ أن طلبت من والدها، واثقة بحكمته وعلاقاته، أن يتولّى الأمر. لم يدّخر الجوهري أيّ جهد لفكّ أسر ميسّر، وأخبر القاضي المناوب في المجلس الكبير أنّ البنت درويشة، وعقلها على قدّها، وهي تعاني من مرض نفسانيّ، وكان القاضي غاضبًا، فدخل مع الجوهريّ على الرغم من أنّه صديقه في جدال، محتجًّا على أنّ الحريم صار لها ألسنة طويلة، وهذا شيء غريب، وبما أنّها مجنونة فيجب ألا تطلق في الطريق، لقد كادت تتسبّب بمشكلة كبيرة، فماذا لو وقع الوالي عن الحصان! وقد شاع أنّه يشعر بألم شديد في ظهره، وفي فخذيه، وساقيه، وذراعيه وذلك لشدّة تمسّكه بجسد حصانه خشية الوقوع. حين أظهر القاضي تمنّعًا، خطر للجوهري أن يطلب إليه استدعاء الطبيب الإنجليزيّ، ليحدّد حالة المرأة المنكودة. وهكذا عُرضت ميسّر على باتريك الذي أكّد للقاضي أنّها ليست في عقلها، وأنّها تعاني من الداء السوداوي، وقد تقتل نفسها، أو من حولها، واقترح أن تبقى تحت رعايته في البيمارستان.

لم تكن ميسّر تريد أن تحكي لصديقتها أنّ أباها الجوهريّ حاول إغواءها، وحين تمنّعت عنه، طلبها للزراج وهي في عمر ابنته، وهو يعرف

العلاقة التي تربط البنتين، وتعرف أنّه بات يكرهها كرهاً شديداً، لأنّها قد تكون أوّل امرأة تطعن كبرياءه. كانت تجده سمِجاً، ومتحذلقاً، وكبيراً في السنّ، وقد قبلت بالزواج من رضا الخيالاتي لتهرب منه، بعد أن مات الأبوان اللذان قاما بتربيتها، فوجد أولادهم أنّ ميسر ليست أختاً لهم، وإنّما مجرّد ربيبة لا ترث، ولا حقّ لها في المكوث في البيت الموروث الذي يريدون بيعه، واقتسام ثمنه. وهكذا ستغدو ميسّر في الطريق، بلا أهل، أو في بيت الجوهريّ الذي تجد الموت أهون من أن تدخله. كانت هناك دعاوى كثيرة ضدّ رضا الذي كان يقيم كلّ خميس عرضاً مسرحيّاً يُلعِّبُ فيه الدمى في واحد من مقاهي حيّ العقبة. يجتمع الناس هناك بعد خروجهم من أعمالهم ليروه وهو يحرّك الخرق التي يخيطها بيديه، ويستمعون إلى الحوارات المضحكة التي يؤلّفها على لسان الوالي وحاشيته ونسائه، بل حتّى على السلطان نفسه، ولم تتمكّن الشرطة من إلقاء القبض عليه لأنّ عناصرها بأنفسهم كانوا يحبّون الاستماع إلى حكاياته، ويضحكون عليها حتّى ينقلبوا على أقفيتهم، ويلوذون بها من جور قادتهم، ومن العسف الذي يرونه على أيديهم، مثلهم مثل بقيّة الخلق البسطاء في أرجاء السلطنة. كانت أسهل طريقة للتخلّص من رضا هي إرساله إلى الجنديّة، وكانت ميسّر تفكّر أحياناً أنّ للجوهريّ يداً في ذلك، إذ له مصلحتان في الخلاص من رضا، أن يُريَ الوالي إخلاصه وحرصه على خدمته، وأن يستطيع استعادة ميسّر، وكسر رأسها بطريقته الخسيسة، التي تبديه كمن يريد مساندتها واحتواءها. كان ذلك تحليلها لمجريات الأمور، لكنّ الله وحده يعلم بما حصل فعلاً، وما دعاها إلى الشكّ هو أنّ الجوهريّ قال لابنته يوماً: إذا ذهب رضا إلى الحرب قد يعود يوماً، لكنّه

لو ذهب للسجن سيموت هناك، ولن يخرجه أحد حتّى أنا، إذا اتُّهمَ بقدح الوالي. لم تكن ميسّر تريد أن تحاسب أحداً أو تدخل في جدل مع فتوح أو غيرها. كانت الدنيا قد خرجت من عينها، ولم يعد يهمّها أن ترضي أحداً أو تغضبه. وعلى الرغم من أنّها الأقلّ حظًّا في كلّ شيء من صاحباتها، كانت فتوح تغبطها على أنّها تستطيع أن تقول (لا) في أيّ وقت ولأيّ أحد، ممّا يجعلها الأجمل، والأنضج، والأكثر أحقيّة بالفرح، والحظّ، والعيش. إنّها معجونة بالحياة بجدّها وعبثها، ولا تجلس في عرش، وتتأمّل من فوق، كما تجد نفسها أحيانًا.

تحبّ ميسّر أن تستمع لحكايات حنّا لسبب آخر، إنّها تشبه الحكايات التي كانت تحكيها لها أمّها في بيتهم هناك وراء النهر، في واحد من أجمل أرباض بخارى. بيت واسع من دورين يقع في قلب بستان مزروع بأشجار الجوز، والتفّاح، والبرقوق، وتمتدّ حتّى بوّابته الخشبيّة البعيدة دوالي العنب الأحمر والأبيض، والتي تبلغ حبّتها في أواسط الصيف حجم بيضة الحمام لشدة ما رويت تربتها من القنوات الممتدّة من نهر زرفشان إلى داخل أسوار بخارى. وصلت ميسّر حلب أواخر أحد الأصياف مع قافلة قادمة من العراق، كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، وقد قطعت رحلة طويلة بلغت ستّة أشهر، رأت فيها مشاهد من العذاب الذي لا يمكن أن تمحى من الذاكرة حتّى الموت. كان الصراع عنيفًا في بلاد ما وراء نهر جيحون على التوسّع الجغرافيّ بين أحفاد الأستراخان من أسرة جنيد، وبين شاه إيران الأفشاريّ الذي أخذ السلطة من الصفويّين، بعد أن أنهكهم الصراع مع الموسكوب، وهم يوسّعون النفوذ الروسيّ في بحر قزوين في منافسة مع الإمبراطوريّة العثمانيّة. اجتاح

جيش الشاه خانيّة بخارى، وعاث بأبنيتها الملبّسة بالقاشانيّ الأزرق والأبيض، وهدّم مدارسها التي كانت مقصد طلبة العلم من أقطاب العالم الإسلاميّ كلّه، وأحرق مكتبتها التي لم يكن لها مثيل في العالم، والتي أنشأها عبد العزيز خان الشيبانيّ منذ القرن السادس عشر، وقد حوت نفائس المخطوطات في الطبّ والعلوم والفنون، بما فيها من بدائع المنمنمات الفريدة التي جادت بها أيادي أشهر الفنّانين على مرّ التاريخ. هجّر الناس من بيوتهم، وفشت الوشايات على أكابر العلماء والسياسيّين، ولاسيّما أولئك الذين يتمتّعون بمكانة لدى الخان، فاعتقل الطبيب رحيم، واستولى أنصار الشاه من أهالي بخارى على داره، وهجّروا عائلته، فخرجت زوجته عائشة جلنار الفقيهة مع أولادها الثلاثة، وأكبرهم ميسّر، مع بعض من أهالي الحيّ، متّجهين نحو الأرياف، لكنّهم واجهوا خارج السور فرقة عسكريّة من جيش الشاه، هاجمت المدينة، وفرّقت جمعهم، وفي خضمّ المواجهة فقدت ميسّر عائلتها، ووجدت نفسها وحيدة في طريق منحرفة عن البساتين التي صارت أبعد ما تكون عن نظرها. كانت تلمع في الاتّجاه الآخر قباب بيضاء يصطفّ بعضها إلى جانب بعضها الآخر، في أراض ممتدّة مكشوفة، أرادت الوصول إليها قبل أن يحلّ الظلام، مشت وهي تأمل أن تكون نائمة، وأنّ ما مرّ بها في الساعات الماضية كان من أضغاث الأحلام، وما عليها سوى أن تستعيذ بالله منه، دعت الله كثيراً أن تجد في هذه الخيام من يمكن أن يعيدها إلى عائلتها، كأن يكون مخيّماً لجند الخان أو لبعض الأهالي الذين ينتظرون نهاية الحرب ليعودوا إلى مدينتهم. سارت مهتدية بلهب النيران الذي كان يتصاعد من بين الخيام، فوجدت جماعة من الغجر، آووها، وأطعموها،

وعلمت منهم أنّ العودة إلى بخارى مستحيلة في هذه الأيّام، وأنّهم سيطوون خيامهم ويغادرون عند الفجر، وليس أمامها سوى أن ترحل معهم.

كان هذا جزء من حكاية ميسّر التي ستحكي تتمّتها لاحقاً، وذلك كلّما وجدت نفسها قادرة على أن تواجه ذاكرتها المثقلة بحوادث سوداء، لا تعتقد أنّ بشراً في حلب قد تعرّض لمثلها منذ أيّام تيمورلنك، الذي كانت ميسّر تنحدر من سلالته.

حين وصلت ميسّر إلى حيّ العقبة في حلب كانت طريدة هاربة من الموت مرّات، منكمشة، وقذرة، وشعثاء، ومفزوعة، لكنّها كانت بصحّة جيّدة، وكانت عيناها الداكنتان تلمعان مثل زيتونتين سوداوين، ونظرتها باردة مستسلمة، وقد هجرتها الطفولة على حين غرّة. لم تترك زوجة الدبّاغ أحداً يرى البنت التي اقتنتها من بلاد التتار على هيئتها البائسة. اهتمّت بها، ونظّفتها، وأطعمتها، وضمّتها إلى قسم الخدمة الصغير الذي على قدّ موقع زوجها. لقد جاءتها بلا ثمن، هديّة من إخوتها الذين كانوا قد أمّنوا القافلة التي حملت ميسّر وغيرها من سبايا الطريق، وذلك في دخولها من الموصل نحو حلب.

في ضحى اليوم التالي لوصول ميسّر إلى بيت الدبّاغ، وصل بكرهم عائداً من الجنديّة بعد غياب سنوات ثلاث، كانوا خلالها قد قطعوا الرجاء من عودته، فالذي يذهب مع العصملّي لا يعود إلاّ بمعجزة، وبذلك تفاءلت صاحبة الدار بوجه البنت الجديدة، ووَقَرتْ محبّتها في قلبها، وقرّرت أن تربّيها مثل واحدة من بناتها الثلاث اللواتي كنّ على أبواب الزواج، وانتقلت ميسّر إلى صفوف العائلة، بعد أن أدركت الأخيرة فطنتها، وأدبها، وورعها.

وممّا أبهر أصحاب البيت قدرتها على القراءة والكتابة بكلّ من الفارسيّة والعربيّة، وقد كلّمتهم بلسانها حين اطمأنّت، بعدما أحجمت شهراً عن الكلام، حتّى ظنّوا أنّها بكماء، واستطاعوا أن يدركوا أنّ أمّها كانت مدرّسة أو خوجة متقدّمة في العلم، وأنّ والدها كان واحداً من أطبّاء الخان، لكنّ جنايات الحرب التي يعرفها أهل حلب جيّداً، فرّقت شملهم بدداً. كانت فتوح أوّل شخص رأته ميسّر خارج إطار بيت الدبّاغ، ووجدتها ميسّر بنتاً جميلة مثل الأميرات اللواتي كانت أمها تحكي لها عنهنّ في حكايات الشاهنامة. كانت فتوح تحبّ زيارة بنات الدبّاغ، فتتفرّج على جهاز العرائس الذي كنّ يعددنه لزيجات قريبة: أثواب الحرير المقصّبة، وشالات الكشمير المطرّزة بألوان حارّة، وتلك القطع الصغيرة من الملابس الداخليّة التي تبدي أكثر ممّا تخفي، والمرايا المفضّضة، والمكاحل النحاسيّة، وعلب الموزاييك التي تغلق على أقراط الجوهر، وأساور الذهب. كانت تعطف على الصغيرة الوافدة، وتأتي لها بالحلوى، وأحياناً بثياب ممّا أمكنها الاستغناء عنه، ويوماً إثر يوم صارت علاقتهما أوثق. وكانت تجدها عجبة بين البنات من حولها، إذ تقرأ بعربيّة مفخّمة تكتنفها لهجة غريبة، لن تغادر لسان ميسّر على الرغم من كلّ السنوات التي ستمضيها في حلب. كانت فتوح تدرس مثل كثير من بنات الأكابر على يد معلّمات الدين، واللغة، والحساب، اللواتي يحضرن إلى منزل الجوهريّ، وقد انضمّت ميسّر إلى هذه المدرسة بشكل يوميّ، ووجد الجوهريّ في ذلك صحبة ضروريّة تلهي ابنته عن غياب أمّها، وتؤنس أيّامها بعد أن اطمأنّ من آل الدبّاغ إلى أرومة البنت وعاداتها، ووجد في ذلك فرصة لكفالتها العلميّة مثلما يفعل التجّار، والأثرياء، وأصحاب الأوقاف في المدينة العامرة بكثير من الأعراف الطيّبة.

عاشت الصبيّتان، وهما في عمر متقارب، صديقتين حميمتين، وعلى الرغم من أنّ ميسّر غريبة، ووافدة، وأسيرة في بلاد ليس لها أهل فيها، فإنّ فتوح كانت أيضاً غريبة في ديار أبيها، تركت أمّها، وبيتها، وعائلتها الكبيرة في إسطنبول، لتعيش مع أسرة تحاول أن تعتاد حياتها وطباعها يوماً فيوم، مع أب غائب في أعمال التجارة، ومتطلّبات النفوذ، وزوجة أب مشغولة بأبناء كثيرين، ودارة واسعة، وضيوف كثر، وغير ذلك من مستلزمات الحياة الصاخبة لكبار التجّار في حلب. حين تقارن فتوح وضعها بوضع ميسّر، تحمد الله على نعمة العائلة وإن كانت ناقصة، لكن هناك في الداخل مرارة تجمع البنتين، مرارة الاقتلاع من أرض الوجود الأولى، ومن الكمال الذي يولد فيه الإنسان، ومن الهواء الأوّل الذي يدخل صدره، والتراب الذي تلفيه أولى خطواته، أمّا حضن الأمّ فهو حكاية أخرى، تبقى من غيره الحياة ناقصة، مهما حاولت نعم الدنيا الأخرى إتمامها. وإذ تدرك فتوح حقيقة أنّها الأقوى، فقد أولت ميسّر عنايتها مثل أمّ رؤوم، فلم تسمح لأحد أن ينتقص منها سواء في أثناء اللعب في الحارة، أمام الأبواب، والذي انقضى سريعاً بسبب من نموّ الأجساد، أو خلال جلسات النساء حين تدور ذكريات وأحاديث شتّى، أو خلال المذاكرة ومتابعة أعمال المنزل التي تكلّف بها ميسّر غالباً في بيت الدبّاغ، في حين تكون فتوح متحرّرة منها في دارتهم، حيث الخدم يفوق عددهم عدد أهل البيت، فكانت فتوح تقضي جلّ وقتها في بيت الدبّاغ، تساعد ميسّر في الأعمال التي تطلب منها: سقي الزريعة، تحريك لبن الشيشبرك كي لا يفقس، تقريص العجين لصناعة الفطائر... كانت ميسّر شاطرة في أعمال الطبخ تحديداً، إذ تعلّمت في بيتهم في بخارى الكثير، وكانت تساعد أمّها في

المطبخ، ونقلت إليهم أشكالاً جديدة من الطبخات، وكانت زوجة الدبّاغ، أمّها الجديدة، تشكر منها كثيراً. علمتهم القازان كباب باللحم بدلاً من الدجاج، وعجينة الفطائر بزيت السمسم، وآشيه صوفي الذي ظلّت تطبخه في المناسبات، وهو أرز بكثير من الجزر والبصل مع قطع من لحم الضأن، ويسمّى طعام المتصوّفين، الذين يوزّع عليهم من المتبرّعين في الخانقاهات. حين كانت فتوح تذهب مع أبيها الجوهريّ للنزهة في بيتهم في البساتين شمال حلب في الربيع، كانت تطلب اصطحاب ميسّر، ولم يكن أحد يمانع في ذلك. كان للجوهريّ قصر في طريق (عين جاره)، فيه حدائق غنّاء، وفي ليل نيسان البارد، تجلس ميسّر وفتوح أمام كانون النار، وتتبادلان الذكريات: هذه تحكي عن بخارى، والأخرى تحكي عن إسطنبول، بعيداً عن صراع القوى العظمى الذي لا يخطر في بال من يديره أنّه يصنع حياة فتاتين حزينين في حلب، ضمن ما يرسم من حدود الدول وامتداد الملك، وهو في آخر الأمر ملك الله عزّ وجلّ.

- لعلّ أحاديث الأصدقاء تولّد من الحزن الدفين لحظات أنس، تشبه حبّات الندى التي تستقرّ في الخارج على أغصان الحور!

هذا ما قالته فتوح لصاحبتها.

ردّت ميسّر:

- لدينا هذا الشجر ذاته، فالحور يسوّر بخارى حول القهندز!

تقصد ميسّر بذلك القلعة، وظلّت تحبّ أن تسمّي قلعة حلب باسم القهندز، كأنّ اللفظة ناقوس تذكّر به نفسها بأنّ عليها العودة يومًا ما إلى ديارها. وحين يضعان طبق التين المجفّف، تفتح ميسّر التينة، وتحشوها بالجوز، وتدسّها في فم فتوح، وتقول لها: يؤكل هناك بهذه الطريقة،

فتستلذه فتوح، وتتمنّى أن تصاحب صديقتها يوماً إلى بلادها حيث تصفها ميسّر بالجنّة، وتقول: حين ظهرت لي حلب أوّل مرّة لم أستحسنها، جئت من مدينة لها السهم الأوفر من البهاء، فحين تلوح لكِ من بعيد، تظنّين أنّ الله ألقى حجارة من الفيروز والزمرّد على أرضه ليصنعها بعنايته، وحين تدخلينها تجدين القاشاني اللامع يكسو كلّ شيء: المآذن، والجدران، والحمّامات، وواجهات البيوت، والمدارس، كلّها مكسوّة بالميناء الأزرق والأبيض والأخضر، وإذا دخلت بيتاً وجدت البلاط النجميّ ممتداً على الأرض مثل سجّادة ثمينة، وعلى الجدران آيات من فنون الخطّ المزخرفة بأشكال الزهور والأغصان، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، أمّا المكتبات وفيها حلقات الدرس، فلم أر مثلها هنا، ولا أظنّ أنّ بلداً من بلاد الأرض تحويها. لم أكن في وعيي خلال الرحلة، كنت ألاحظ الكورات والبلاد من بعيد، كانوا يتركوننا مع القافلة في خانات خارج المدينة، ويدخل التجار فقط مع عبيدهم لينقلوا بضائعهم، ولم تكن في بالي المدائن حسنها من قبيحها، كنت أريد أن أعرف مستقرّي بعد أن قطعت الرجاء من العودة إلى دياري في هذه المرحلة على الأقل. كان يمكن أن يَحطّ بي الرحال في أيّة بلدة أخرى، لكن لم يرغب أحد باقتنائي، حتّى استلَمنا بعد رحلة طويلة أولئك العرب، وكنت أسمع مَنْ حولي يقولون إنّنا سنذهب إلى حلب، (حلب أورادا) أي حلب هناك، و(جادّه حلب) أي الطريق إلى حلب، وكلما رأيت أطلالاً عن بعد كنت أقول هي حلب، ولم أكن قد سمعت بها من قبل، حتى أشرفنا على مدينة عظيمة مسكوبة من صخر رماديّ قديم، بلون ريش الحمام الداجن، لم تستحسنها عيني، فلا شجر يبهج الروح، ولا ماء

يروي النظر قبل الشفاه، لكنّ هالات من الجلال كانت تحيط بقبابها ومآذنها العالية، وتنبئ بأنّنا ندخل مدينة عظيمة قد خصّت بأسرار إلهيّة لا تنكشف لكلّ بشر.

كانت فتوح تستمع لوصف صاحبتها، وقد أدهشتها قدرتها على نقل مكنونات نفسها، وتصوّراتها، بلغة أكابر أهل المعرفة، ولعلّها ورثتها عن أمّها الفقيهة المعروفة في بلادها، التي تحدّث، وتفسّر الشريعة على المذهب الشافعيّ، أو عن والدها الطبيب من آل برهان، من طاقم الخان، وقد درس في مدرسة ابن سينا للطبّ، وقد وجدتها أجدر ما يمكن بأن تسلك دروب العلم، حتّى غبطتها على نشأتها وطيب أرومتها، وحفظها ثلثي كتاب الله. حدّثتها عن أنّها لا تريد أن تعمل في بيت الدبّاغ، بل أن تَنْذر نفسها للعلم مثل أمّها التي درست الفتيا على والدها، ومثل أخوالها، وكان واحدهم حين يجلس للقضاء والفتيا، تجلس أمّها خلف بابه، وإن أخطأ تردّه بقرع الباب. كانت في بقيّة بستانهم دار تقيم بها المنكودات من النساء على حساب والديها، المطلّقات أو اللواتي فقدن المعيل مع أطفالهنّ إن وُجدوا، حيث يتدارسن الكتاب، ويقمن بالأعمال الحرفيّة من صناعة البسط والمؤن المنزليّة، لإعالة أنفسهنّ، وحفظ كرامتهنّ وعفافهنّ. قالت فتوح: لعلّ الله قد أكرمك بالوصول إلى حلب وعند هؤلاء الناس الطيّبين، وحفظك من شرور الطريق، بسبب عمل والديك، وأرجو رب العباد بكل جوارحي أن يجمعك بأهلك جميعاً، في يوم قريب، وليس ذلك عليه ببعيد!

كان مع ميسّر حقيبة داكنة من جلد الماعز، لم تتخلّ عنها رغم أهوال الطريق، كأنّها دليل حيّ على تاريخها، وذكرياتها مع أهلها في البلاد البعيدة، فيها أشياؤها التي لم ترغب في أن تريها لأيّ شخص سوى فتوح:

صدار من المخمل الأحمر المطرّز بالقصب الذهبيّ، ترتديه الفتيات في الاحتفالات المهمّة، وسلسلة فضيّة علّقت عليها مسكوكات برسم بروج السماء، قالت إنّ اسمها (قِران)، وكتاب صغير بغلاف من جلد بنيّ مسودّ صقيل ولامع، وكتب في صفحاته الصفراء باللغة العربيّة، وبخط فارسيّ بديع، وبحبر أسود، ويحصر المتن حواش محدّدة على شكل أقواس مذهّبة. حين أمسكت فتوح الكتاب بحذر كما طلبت إليها ميسّر، قرأت في الصفحة الأولى: (رسالة في ماهيّة العشق) للشيخ الرئيس، أبي عليّ الحسين ابن سينا، وهي آخر ما خطّته عائشة جلنار، والدة ميسّر، وكانت تنوي وضع هذه النسخة الجديدة في المكتبة العامّة قبل خراب المدينة.

سألت ميسّر: هل تعرفين ابن سينا؟

- سمعت به، طبيب شهير من خراسان.

- بل من بخارى.. طبيب وفيلسوف، ومؤلّف هذا الكتاب.

قلّبت فتوح صفحات الكتاب برفق، وتأمّلت الكلمات المخطوطة بعين العارف المعتاد على تداول المخطوطات والأسفار، فوقعت عينها على عبارة ردّدتها لتحفظها: "لكل واحد من الموجودات المدبرة توقانًا طبيعيًا وعشقًا غريزيًا، ويلزم ضرورةً أن يكون العشق في هذه الأشياء سببًا للوجود لها".

- قد أكون فهمت شيئًا، لكن هل هذا الكلام مباح؟

- أعتقد، وإلاّ ما قاله الشيخ الرئيس، ولا كتبته أمّي.

تمنّت كلّ منهما أن تدرس، وتتعمّق في درب المعرفة والتحصيل، كي تصبح من القلّة من العارفات اللواتي تفتح لهنّ مغاليق الحكمة، وتكشف أمام بصائرهنّ أسرار الملكوت.

شاه مات

بعد حادثتها مع الوالي، احتجبت ميسّر عن العالم في البيمارستان، فقد تبدّد القلق كلّه الذي عاشته في مكتب القاضي، وتحوّلت رغبتها في أن تكون نسيًا منسيًّا، إلى برد أشبه ببرد الاستسلام. تشعر الآن بالانتصار، وبأنّها لم تعد بحاجة إلى أحد، إذ سيتولى الطبيب الذي يثق به الجميع أمرها، وهي تثق به أكثر منهم جميعًا. ستطلب إليه أن يمتنع عن إجابة أيّ أحد يسأل عن حالها، بل أن يمنع أيّ أحد من أن يأتي على ذكرها. تريد أن ترتاح من هذا العالم الظالم المبنيّ على المصالح، وهي في هذه اللحظة ليس لها أيّة مصلحة سوى مع هذا الذي تغذّ الخطا خلف قدميه، مثلها مثل المجانين، والمرضى، والمجذومين، ممنوعة من الاحتكاك بأيّ شخص، خلا القائمين على أمر البيمارستان، لكنّها حين اقتربت من المكان أصيبت برعب جديد ممّا يهدّد أمان جسدها، ووجودها، فكيف ستقيم مع المرضى والمجانين؟ وهي لا تعرف إذا ما كانوا أصلاً يقيمون معًا في المبنى ذاته، أم لا، فهي لم تدخل البيمارستان ولا مرّة في حياتها، لكنّها تسمع عنه حكايات مهولة! فالتهديدات التي يطلقها الكبار تجاه الصغار كانت تتعلّق بالبيمارستان، أكثر ممّا تتعلّق بالشرطة.

ودّت الآن لو أنّ فتوح تتصرّف لتخلّصها وتعيدها إلى بيتها، أو تهرّبها إلى بيت البستان خارج السور، أو تسافر بها إلى إسطنبول، فما الذي يؤخّر

فتوح عن أن تفعل ذلك! لن تسيء الظنّ بها، لكنّها تعرف أنّ فتوح ليست على عجلة من أمرها، ليس بسبب سوء طويّتها إطلاقًا، بل بسبب دلالها، وانعدام إحساسها بالشعور بالخطر، فهي دائمًا في حماية أحد ما، ومثل الأميرات وربيبات السلاطين كلّهنّ، لا شيء يدفعها لتستجيب سريعًا لأيّ طلب، فالاستجابة السريعة للعبيد وليست للسادة، وكلّ ما تفعله من سعيها للكتب والدرس والتحصيل هو من قبيل الأبّهة أو العادة، وليست خصالاً أصيلة أو مدرَكة فيها. ظلّت ميسّر طوال الطريق نهبًا لأفكارها، مختبئة في ملحفتها البنيّة المرقّشة بأزهار زرقاء، وكانت قد أخرجتها معها في جهازها الذي لم تهنأ به، حتّى إنّها لم تنتبه إلى معالم الطريق. لم يقيّدها أحد أو يرافقها، إنّها فقط تتبع خطوات صاحب الجزمة الجلديّة المحمرّة أمامها، وهو يدقّ الحجر بنعله ذي العقب الحديديّ إلى أن وصلا إلى بوّابة في الحيّ ذاته، تمرّ بها معظم أيّامها في غدوّها إلى السوق أو رواحها، ولم تفكّر يومًا في أنّها ستدخلها لهذا السبب الغريب أو غيره. كانت مجموعة من الرجال والنساء تصطفّ إلى الجدار الخارجيّ الضخم للبيمارستان إلى يمين الباب، كي توسّع الطريق الضيّقة للعابرين فلا تعوق حركتهم، وكان الحرس بالمرصاد لكلّ من يخالف دوره في الدخول، يحملون كرابيجهم، ولا ينون عن استعمالها. دخل باتريك، وقبل أن يقطع العتبة الأولى، التفت إليها لأوّل مرة طوال الطريق، وقال: من هنا يا خانم. طالعها وجهه الأبيض، المتورّد بلون العافية، وشارباه الرفيعان المتّصلان بلحية داكنة تخالطها شعرات بيضاء، والشعرُ الكثُّ المجموع إلى الخلف، تظهر نهاياته من تحت العمامة التي يلفّ بها رأسه، كما يفعل أهل حلب، فقرّت وساوسها، ولاسيّما حين تجاوز بها مكان

دخول المرضى والمراجعين نحو ممرّ صغير إلى اليمين، يفضي إلى حجرة صغيرة معتمة وفارغة، ثمّ إلى درجتين نزولاً، ثمّ إلى باب خشبيّ دفعه بيده، فانتشر نورٌ باغت عينيها، لينفتح الباب على حوش صغير، تلمع أرضيّته الرخاميّة بلون رماديّ مثل الفضّة، تحيط بها جدران حجريّة كحلاء وعاليّة كجدران القلاع العتيقة. في الوسط حوض لشجيرات خضراء يانعة، تعرّش على دوالي القصب، ويملؤها النَّور الأصفر لنبات المَضْعَف، الذي تفوح رائحته في الفضاء، وتحته شتلات النعناع، والريحان، وبعض النباتات العطريّة، ربّما الكافور وإكليل الجبل إذ تلحظ زهراته الأرجوانيّة الصغيرة. ثمّة ليوان صغير إلى يسارها يتوسّط الجدار، بسيط، بسقف أنيق لطيف العقد، وعلى جانبيه عمودان بتاجين بزخارف نباتيّة، كالأعمدة التي في المسجد الكبير، وتصطفّ على الجهات الأخرى عدّة أبواب خشبيّة يعلو كلٌّ منها درجتين من الرخام الوردي، وثمّة درج بإفريز يفضي إلى دور فوقيّ مثل معظم بيوت حيّ العقبة. يبدو المكان معزولاً ليس فقط عن الجهة الأخرى من البيمارستان، بل عن حلب كلّها، وليس سوى حسّ البلابل على أغصان الشجيرات تستجمّ في ضوء الشمس الذي بدا لميسّر أكثر دفئاً من أيّ وقت آخر.

انفردت ميسّر في الحجرة التي خصّصت لها، وكانت سعيدة بالعالم الجديد الذي بدأت تتعرّفه. شعرت كأنّها في رحلة إلى بلد بعيد، رغم أنّ دارها على بعد نصف فرسخ من موقعها هذا، وأنّها ليست محتجزة في بيمارستان مع المرضى والمجانين. وهكذا اكتشفت أنّ الطبيب يقيم هنا، فهذا منزله المعزول عن مكان العمل، والقريب منه في الوقت ذاته، كي يخدم الحالات الطارئة في أيّ وقت. لا يقيم معه أحد سوى خادمة تهتمّ

بشؤون النظافة والترتيب، وهو لا يستقبل أحداً. لديه حجرة ينام فيها، وحجرة لمكتبة كبيرة، وأخرى فيها مقتنيات كثيرة، كأنّها مستودع لذخائره، وفاجأها أن ترى في الدار حمّاماً خاصّاً يكون عادة في الدور العظام فحسب، ولا يمكن توقّعه في هذه الدار المتواضعة بالنسبة لدور حلب التي عرفتها. لم يوجّه باتريك لميسّر أيّة ملاحظة، وكان لديها أسئلة كثيرة تتعلّق بمصيرها، لكنّها فضّلت تأجيلها مخافة أن تُسفر عن إجابات تكرهها، فالسكوت عن الأسئلة قد يغلق باباً من أبواب الشرّ، كما كانت تقول لنفسها. قادتها الخادمة التي تبدو (حبشيّة) إلى حجرة متطرّفة بدت حجرة للضيوف، وكانت باردة جدّاً حين دخولها، رائحتها حياديّة وكأن لم يسكنها أحد منذ وقت طويل، فيها نوافذ عالية مغلقة بزجاج ملوّن معشّق مثل ذلك الذي تزيّن به الكنائس، وليس لها نافذة على الحوش مثل باقي الغرف، وقد فُرشت أرضها بسجّادة من الصوف، في وسطها بركة بتصاوير الورود، بدت قديمة، لكنّها نظيفة، وكانت ألوانها الحمراء، والخضراء، والسوداء قد أبهَتَها طول العهد. في الغرفة مصطبة واحدة منضودة ببساط ملوّن، وفوقه فراش، ووسائد محشوّة في تلبيسات من وبر الجمل الملوّن قد تبعث على الدفء مع خشونتها، وقد بدا أنّها للجلوس والنوم معاً، وفي الزاوية صندوقان من الخشب للملابس، تأكّدت من أنّهما فارغان، وأحدهما قد كسر قفله وأكله الصدأ، وفي الجدار حفرت كُتُبيّةٌ صغيرة مقنطرة، مبطّنة بالخشب الذي حال طلاؤه وضعت على أحد رفوفها الثلاثة فوانيس الزيت التي لم تستعمل منذ وقت طويل. قالت ميسّر في نفسها لا بأس في أن تحتمل هذا المكان، وستطلب الأنس في الحوش، إذ تعتقد أنّ الطبيب سيغيب طوال اليوم في عمله، وستكون حرّة

في التنقّل، إن سمح لها بذلك. كانت الخادمة تعاملها كسيّدة وكأنّها تلقّت أوامر بذلك. جيء لها ببقجة أغراضها، ووضعتها جانباً، ولم ترّتبها في الصندوق، لكنّ الطبيب قال لها إنّ إقامتها قد تطول، ولها أن تتصرّف في البيت بحريّتها، وإنّ الخادمة ستساعدها في حال احتاجت شيئاً، والطعام متاح في المطبخ، إن شاءت، وإنّ الجوهري قد أوصاه بها كثيراً، كأنّها واحدة من أفراد أسرته. شكرت ميسّر في سرّها الجوهريّ الذي تشعر تجاهه لأول مرة بشعور إيجابيّ، وهي تعرف تماماً سبب هذا الاهتمام والتوصية، وأكنّت لباتريك مشاعر الامتنان، والأبوّة، وقد رأت مكتبته التي ذكّرتها بمكتبة أبيها.

دعتها الخادمة لتناول الطعام في المطبخ، كان واسعاً، وفي صدره وجاق النار المقنطر، الذي يمكن أن يشوي عجلاً صغيرًا، ومصاطب لإعداد الطعام تصطفّ عليها بعض القطرميزات الصغيرة للمربيات، وعلب خشبيّة فيها بعض الجوز واللوز، وشعريّة للاحتفاظ بالطعام، وتتدلّى من السقوف قرب جلديّة لحفظ السمن، والزبدة، واللبن، وأخرى من الخام الأبيض، والشاش للحوم المقدّدة، وكانت جرار المؤن فارغة، كما اكتشفت لاحقاً، ما عدا جرّة فيها قليل من المخلل، وأخرى لزيت الزيتون، وتصطفّ في خزانة الشراب بعض الزجاجات الملوّنة، تتدلّى منها بطاقات مربوطة بحبال من الكتّان، خطّت عليها كلمات بالإنجليزيّة، وخوان واطئ وواسع من الخشب، حوله كراسٍ صغيرة خشبيّة مقشّشة. سحبت الخادمة رغيفاً من الخبز من تحت قطعة من الخام الأبيض، كان مخمّراً مثل خبز الإفرنج، ووضعت أمامها نوعين من الجبن، أبيض وآخر داكنًا رائحته عفنة، فانزعجت ميسّر لأنّها عاملتها كالشحاذين، إذ وضعت

لها طعاماً فاسداً، لكنّ الخادمة أفهمتها انّ هذا الجبن هو الذي يأكله الطبيب وهو ليس بقايا طعام. تركت ميسّر الطعام، وظلّت في مكانها تبكي، لقد تأثّرت كثيراً وفطنت إلى أنها مجرّد متسوّلة، وحين دخل باتريك على صوت جدالها مع الخادمة قالت له: أنا لست متسوّلة، أنا بنت ناس! حدّثها باتريك بجديّة مطلقة، وبمنتهى التبجيل، كأنّه يكلّم سيّدة من بلاط صاحب الجلالة، وقد سرّها أنّه لم يستخفّ بها، وراح يقنعها بأنّ الجبن من أفخر الأنواع، وإنّها فقط غير معتادة عليه، وشرح لها كيف أنّ جبن الأوربيّين مختلف بسبب عوامل الجوّ وشروط الحفظ، وإنهم يقولون إنّ القمر مصنوع من جبنة خضراء، وفوجئت بأن وجدته يدافع عن الجبن كأنه يدافع عن شرفه، وقد كان فخوراً وهو يشرح لها، وابتسم وهو يقول إنّنا نقدّمه فقط لضيوفنا الأعزّاء. تساءلت ميسّر إذا ما كان الرجال عادة يفعلون ذلك، أو أنّ الإنجليز كلهم كذلك، أم هو وحده الذي يختصّ بهذا اللطف! لكن من أين لها أن تعرف الرجال، ثم ما همّه إن اقتنعت أم لا، وإن رضيت أم انكسر خاطرها، لعلّها توصية الجوهريّ بها، أولعلّها تستحق هذا الخطاب حقّاً!

حين كان الطبيب يحدّثها كانت قد تحرّرت بتلقائيّة من حجابها، فكشفت وجهها، وتركت غطاء الرأس منسدلاً على شعرها، كما تفعل نساء بخارى عادة، وقد نظرت في عينيه أكثر من مرّة، وكأنّ الغريب حرّرها من التقاليد التي اكتسبتها في حلب، أو أنّها شعرت به واحداً من أفراد أسرتها المقرّبين، أو واحداً من الأوصياء على حياتها، وهذا ما كان يوحي به باتريك بجلاله، ونزاهته المتعارف عليها. كان في أربعينيّاته مكتهلاً، لكنّه أكثر شباباً من كلّ من أبيها ومن الجوهريّ على حدّ السواء. حين خرجت من غرفتها

بعد العصر، رأته من خلف زجاج النافذة المقنطرة لغرفة مكتبه، وقد أكبّ على سِفْرٍ يدوّن فيه بجدّ من غير أن يشعر بالعالم من حوله، فتأمّلت جذعه الأيمن، وحركة ريشته السريعة، وأناقة قميصه الإفرنجيّ الأبيض، وشعره الكثيف الداكن الملموم إلى الخلف في شريطة سوداء، وبياض صفحة خدّه، والانسكاب الأنيق لرقبته، كان مهيباً في انشغاله، وكأنّه يؤدّي مهمّة رسوليّة نذر لها نفسه. لم يلتقيا لأيّام بعد حديث الجبن، وعرفت أنّه كان يطمئنّ على أحوالها من الخادمة، ممّا كان يشعرها بالغبطة.

في الليلة الأولى لها في منزل باتريك، شعرت بحالة غريبة من القلق، إذ سمعت حركة الطبيب وهو يخرج من البيت بعد العشاء. كانت ليلة باردة وممطرة، وكان صوت الرعد أشبه بمدافع تدكّ حجارة البيوت العتيقة، فتهتزّ الأخيرة من عزم الصوت، لتنسكب بعدها مياه المطر الغزيز من الأسطح والأدراج، وتدفُقُ في المزاريب إلى أرض الحوش، مثل شلال لا يمكن إيقافه. كانت ميسّر تهجر كلّ حين دفء فراشها، وهي تشدّ أوتار جسدها في حركة دفاعية تتوقّى فيها ضراوة برد آذار المتوقّع في حلب، التي يقول أهلها: "خبّي فحماتك الكبار لعمّك آذار"، جسدها يرتجف، وتكاد لا تشعر بأرنبة أنفها وبكفيها المتجمّدتين، في حين أنّها قد دسّت قدميها في جوربين صوفيّين حاكتهما بيديها. كانت قلقة على باتريك، لقد تأخّر في عودته في هذا الجوّ القاسي، حيث الظلام يكسو كلّ شيء، ولا يمكن للريح وماء المطر من أن تُبقيا منارة مضاءة أو قنديلاً مشتعلاً في الدروب، وبدأت الأفكار تأخذها وتأتي بها، فماذا لو حصل له حادث، أن يتزحلق حصانه تحت المطر، ويقع وتدقّ عنقه، أو أن يتعرّض إلى شرّ، فيخطفه أحد اللصوص الذين يستغلّون غياب العاملين على

حراسة الأحياء بسبب المطر، وماذا لو كان خارج السور في البساتين وضربَتْه صاعقة، ماذا سيحلّ بها لو أصابه مكروه، هل سيطلقونها؟ أم سيقيّدونها بالسلاسل كما تسمع عمّا يحصل مع بعض المجانين! ثمّ راحت تسأل نفسها عن سرّ هذا القلق، فلماذا لا تسلم بدنها للنوم، وحين تستيقظ تكون قد عرفت ما غاب عنها! شعرت ميسّر، خلال فوضى مخاوفها، بأنّها تريد أن تحميه أكثر من أن يحميها، أن تحميه من المطر والبرد، وأن تشعل له مدفأة الحطب، وتجفّف ثيابه، وتدثّره بغطاء وثير، وتصنع له حساء دافئًا وتطعمه بيديها، لكن أين هو؟ ولماذا تأخّر، هل يزور مريضًا، أم يسهر مع أصدقائه، في دار قنصل الإنجليز، أو في خان العلبيّة عند حنّا! وساوس كثيرة منعتها من النوم حتّى تعبت من القيام والقعود، فاستلقت في فراشها، وسحبت الأغطية حتّى دثّرت بها رأسها، واستغرقت في دعاء عريض. وبين الوسن والصحو، سمعت صوت خطوات تقرع أرض الحوش، خطوات حرّة، ذكوريّة وواثقة لم يوهنها طول الليل وبرده. قفزت من فراشها، حلّت قفل الباب على مهل، سحبته بتؤدة متجنّبة إصدار أيّ صوت، أخرجت رأسها غير آبهة بالريح الباردة الرطبة، تصفع صفحة خدّها وأذنها، تأكّدت من شبح باتريك يتقدّم نحو حجرته في الظلام، وقد أعطاها ظهره، بقيت تتابع خطواته حتّى دخل وأغلق الباب وراءه، عندها طارت إلى فراشها، وقد قرّت بلابلها، وشعرت بالدفء يسري نحو قلبها، وخلال لحظات كانت قد أسلمت نفسها إلى نوم عميق لم تذق ألذّ منه مذ كانت في حضن والديها.

في الأيّام التالية كان لديها عمل كثير لتفكّك أسرار المنزل، وأسرار صاحبه الذي صار قريبًا، على الرغم من الصمت الذي يلعب لعبته

بينهما. دخلت المكتب بلا وجل، فلم يمنعها أحد أو يصدر تعليماته إليها. تفحّصت المكتبة الكبيرة التي تشبه خزائن الكتب في المساجد برفوفها الكثيرة والواسعة. معظم الكتب كانت بالإنجليزيّة والفرنسيّة وربّما الإيطاليّة، ولم تجد بالعربيّة سوى المصحف الشريف، ونسخة من ألف ليلة وليلة، كانت مهترئة لكثرة ما تعاورتها الأيدي على ما يبدو، وقد لاحظت ميسّر أنّ حجمها هزيل بالنسبة للنسخة التي تعرفها في دار الجوهريّ، وكأنّها ناقصة. اقتربت ميسّر من المكتب، فوجدت السفر الذي يكتب فيه باتريك مغلقاً، ومؤشّراً بقطعة من الجلد على آخر صفحة خطّها حبره. فتحته، وراحت تتأمّل أناقة انتظام الحروف، وإيقاع حركتها بين فوق وتحت، وجودة الحبر الذي كتبت به، وثبات لونه المزرقّ، وتلاحق تفاصيل باتريك في بقايا أوراقه وعدّته، وتبغه المحترق الذي ترك رائحة نفّاذة في صحن نحاسيّ منقوش بحروف عربيّة، وفوقه غليونه من خشب القيقب المسودّ. وتساءلت عن فحوى الرسالة الطويلة التي يكتبها الطبيب بشكل يوميّ لأكثر من ساعتين، وإذا ما كانت كتاباً في الطبّ، أو في اليوميّات التي تعرف أنّ كثيراً من الأوربيّين أنتجوها خلال إقامتهم في حلب. انتقلت ميسّر باتّجاه النافذة الأخرى، نحو طاولة صغيرة مدوّرة ومرتفعة من الخشب، سطحها رقعة شطرنج مطعّمة بالصدف اللامع، بحيث تتناوب المربّعات بين لون الخشب البنيّ، ولون عروق اللؤلؤ، وعلى الجانبين المتقابلين درج صغير لحفظ الأحجار، حولها كرسيّان من تصميم مشابه، وقد تبعثرت على الرقعه أحجار الأبنوس السوداء والعاج البيضاء التي تُركت في فوضاها بعد لعبة بدت لها طويلة وصعبة. جلست ميسّر على أحد الكرسيّين، وبدأت تصفّ الأحجار، وتمتّع أصابعها

بملمسها الفخم الصقيل. صفّت الرخّ الأسود، فالحصان، ثمّ فيل الملكة، وعلى حين غرّة دخل الطبيب، وفوجئ بها جالسة بثوبها البيتيّ من الصوف الأزرق، يبدي جسدها أصغر من تصوّراته، وأكثر شباباً، ولم يصدّق أنّ امرأة لها هذا الحسن الغريب في مكتبه، وشالها الأبيض قد انسدل على جانبي رأسها، فترك جزءاً من شعرها الأسود حرّاً، وترك عيني باتريك تتفحّصان باهتمام عروق عنقها الخضراء النافرة من تحت جلدها المصفرّ، وقد أصابه المشهد بسهم من السحر قذفه قروناً إلى الوراء. كان واحداً من المشاهد التي رآها في مخطوطات تعود إلى قديم الزمان، عن نساء سلبن ألباب ملوك فرنسا وإسبانيا بنقلات الحجر بين أصابعهنّ الأنيقة. لم ترتبك كما يتوقّع من امرأة حيّة باغتها رجل غريب، كان ما فعلته فقط أن عدّلت غطاء رأسها قليلاً، ونظرت في عينيه وابتسمت بهدوء. اقترب باتريك من الطاولة، وهو يشغل نفسه بخلع مئزره، طرحه على المصطبة، ورمى فوقه الشال، وجلس أمام الرقعة، ونظر إلى ميسّر كأنّه ينظر إلى رفيق قديم، وقال: جاهزة؟

فعدّلت جلستها أمامه بهدوء، وخرج صوتها متحدّياً رغم خفوته: جاهزة.

تقابلا، وكان الصمت ثالثهما، وكاد قلب ميسّر يفرّ من بين ضلوعها من النشوة، لقد تحقّق لها بلا أيّ جهد القرب من رجل كانت تراه الأعزّ في هذا العالم، وكانت بحاجة إلى أن تهدأ وتفكّر جيّداً لتغلبه في هذه اللعبة، فتضع علامتها على ذاكرته. إنّها تعرف أنّ الرجال لا ينسون من يغلبهم، حتّى ولو في لعبة شطرنج. تتالت نقلات الحجر بين أيديهما تترى، وفي لحظة من اللحظات حدثت لمسة طائشة بين الأصابع، فاحمرّ وجه ميسّر

غبطةً، واضطرب هدوء الطبيب، وسرت في بدنه رعشة سريعة كالبرق إثر ملمس الجلد الناعم الدافئ، وكأنّه لم يلمس من قبل جلود مئات من البشر الذين أسلموه أجسادهم كرهًا أو طوعًا، وفي تلك السانحة حرّكت ميسّر حصانها بتؤدة، وقالت بصوت واثق رزين: شاه مات.

صار الطبيب يغيّر مواعيد التزاماته اليوميّة، فيطلّ على البيت من البيمارستان منتصف النهار، وما أن يفتح الباب حتى تملأ أنفه روائح الطعام اللذيذ، ويرى الأبخرة تتصاعد من الوجاق، والمطبخ يفيض حرارة، والليوان الصغير يعبق برائحة البهارات والأطعمة: الكمّون، والفلفل، والكزبرة والثوم، والملوخيّة، والمجدّرة، والدولما، وكان باتريك يقول في نفسه: إنّها رائحة امرأة! صارت ميسّر هي من يقبل عليه، فيناولها المئزر، ثمّ يقرفص عند حوض الزرع ويتناول الصابون لتصبّ الماء على يديه، وفي المساء صار باتريك يعود إلى داره أبكر من المعتاد، بعد أن ينهي جولته المسائيّة في أسواق المدينة، أو لقاءاته السريعة مع بعض الأصدقاء في أحد الخانات. يعود متشوّقًا ليقابل ميسّر ويلعبا جولة شطرنج، وميسّر لم يعد يهمها الربح أو الخسارة، فالمهم أن تجد منه اهتمامًا يبشّر بأنّه سيحتفظ بها في بيته آمنة لأيّام أخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صراع الجبابرة

كان مضمار الخيل في البساتين شرق حلب، على طريق قرية (باب الله)، معدّاً لنزهة السير جورج القنصل الإنجليزيّ وضيوفه في ذلك اليوم الرائق من أيّام شهر نيسان، حيث صلّى القنصل كيلا تفاجئهم السماء بمطر الربيع، حتّى يقضي الضيوف وقتهم على أحسن ما يكون، مستمتعين بالشمس التي تظهر خجلى، ثم تصير حارقة وقت الظهيرة، وبنسائم الشمال التي تمرّ بمنتهى الرقّة على بتلات النَّوْر الأصفر، والبنفسجيّ، والأحمر المتناثرة على صفحة البريّة الممتدّة حتى سبخات الملح التي تلمع بعيداً مثل مسكوكات الفضّة الجديدة. كان السير جورج قد أقام وليمة لأصدقائه قنصل إيطاليا، وقنصل هولندا، والقنصل الفرنسيّ مع بعض من رجال حاشيتهم كالتجّار، والمساعدين، والمترجمين، والأطبّاء. شاهدت ميسّر، من سطح الدار الذي يكشف الطريق باتجاه القلعة، موكب القنصل الإنجليزي ذا الخيول القويّة، والسروج البديعة، والألجمة الفاخرة تلمع في سنا الشمس، يتقدّمها انكشاريّان ماشيان يدقّ كلّ منهما الأرض بعصا غليظة، وخمّنت أنّ الطبيب سيلتحق اليوم بالموكب في مهمّة ما، وخشيت أن تطول فتحرمها أنسها وأمانها. أمّا فتوح، فقد تعلّق نظرها بأبهة الموكب ذاته من وراء مشربيّتها، وأدركت أنّ هيلين ستكون مع المدعويّن الكبار، إذ إنّ حظر خروج النساء الذي أعلنه

الوالي بعد حادثة ميسّر، يستثني نساء الدبلوماسيّين، ودار في خلدها أنّ هيلين ستقضي بصحبة باتريك أوقاتاً ممتعة في البراري، بلا حرج، أو حواجز، وقد تتمشّى معه بعيداً عن عيون الرفقاء، فيتحدّثان عن الكتب والرحلات، وربّما يتشعّب الحديث باتجاهات أخرى تشفق على نفسها من أن تذكرها، فتقع فريسة القلق والغيرة. إنّها تعرف هؤلاء الإفرنج، وتعرف كيف تنعقد حبال الغرام بين رجالهم ونسائهم بتبادل الأحاديث، والكؤوس، والذكريات عن بلادهم البعيدة، وقد يكون الحديث الذي يجمعهم هو مغامراتهم هنا في بلاد المسلمين، الذين سيصيرون مادّة للتندّر كما هم مادّة للتحكّم بهم، لكنّ أحداً لم يخبر فتوح بأنّ الدعوة لم تكن موجّهة للنساء في هذه الرحلة، وأنّ تخميناتها ليست أكثر من أضاليل عشّاق.

كانت الخيمة الكبيرة البيضاء قد نصبت منذ الصباح الباكر، وفرشها المساعدون بالسجّاد، والأرائك والمتكآت، وقد حطّ الطبّاخون حولها أمتعتهم، وأعدّوا مواقدهم، وعمّروا تنانيرهم بالنار، بعد أن سلخوا الحملان ونقعوها بالأنبذة والبهارات، وصفّوا الكؤوس والصحاف، وجهّزوا الأشربة المتنوّعة: البنش الإنجليزيّ، والبراندي، ونبيذ بروفنسال الأحمر الخفيف الفرنسيّ، والنبيذ الأبيض المحليّ الذي يفضّله الإيطاليّون، وصفّت في أحد جوانب الخيمة دلال القهوة على منصب الحطب وإلى جانبها قصبات التبغ، وبدا كلّ شيء جاهزاً لاستقبال الضيوف.

على الرغم من العلاقة الوديّة الحقيقيّة التي تجمع بين قنصل بريطانيا وقنصل فرنسا في أرض بعيدة عن الديار مثل حلب، فإنّ التنافس على أيّة مصلحة صغيرة، أو المماحكة حول أيّة قضيّة تافهة سيظهر العداء

الدفين بين اثنتين من أكبر إمبراطوريّات العالم، والذي أطلقه منذ سنوات الصراع على الخلافة الإسبانيّة، بعد وفاة الملك كارلوس الثاني، الذي لم يخلّف ذريّة، وذلك من أجل السيطرة على مستعمرات إسبانيا في القارّة الأميركيّة، فيما عُرف بحروب الخلافة الإسبانيّة. كان البلاطان النمساويّ والفرنسيّ هما الأقرب لوراثة العرش الإسبانيّ الثقيل، وكان، في حال حصول أحدهما على الملك، سيختلّ نظام القوى لعالم القرن الثامن عشر برمّته، وحين اختار كارلوس الثاني، فيليب حفيد لويس الرابع عشر خليفة لعرش إسبانيا، رفضت بريطانيا ذلك الاختيار، وأقامت مع النمسا حلفاً كبيراً يواجه الحلف الإسبانيّ الفرنسيّ، واشتعلت بعدها حروب طويلة، لم تنته بتنازلات إسبانيا عن أراضيها في إيطاليا، وهولندا وسافوي، ولا باستيلاء بريطانيا على جبل طارق، ومايوركا، وحصولها على امتيازات تجاريّة كبيرة في الأمريكيّتين.

في غمرة الانتشاء من السُّكْر الخفيف، سأل القنصل الإنجليزيّ ضيفه الفرنسيّ، وهو غارق في الضحك، تقطع قهقهاته جمله المتتالية: لا يمكنني أن أتخيّل كيف أنّ ملِكَكم الصغير حين استقبل بطرس الأكبر قيصر روسيا الذي يبلغ طوله مترين، قام الأخير بحمله ورفعه إلى فوق وتقبيل وجنتيه، بربّك أيّ ملك هذا! فردّ الفرنسيّ بامتعاض: بالطريقة ذاتها التي أرى فيها ألمانيّاً من هانوفر، يحكم بريطانيا العظمى، وهو ابن لأمّ زانية، ولأب زانٍ في الوقت ذاته!

كان الأمر سيبقى في إطار التهكّم السياسيّ المثير للضحك بين القنصلين، لولا وجود المترجمين، والمساعدين، وبقيّة الضيّوف، من مستشارين وتجّار، فضلاً عن الحرس، حينها انتفض مستر جورج،

وأحاط به الحارسان وبعض الجالسين حوله، فأدرك قنصل فرنسا الخطأ الجسيم الذي دُفع إليه كرهاً، وصحا الجميع من سكرتهم على كارثة سياسيّة. في تلك اللحظة كان باتريك قد وصل الخيمة مع فريق الصيد، تسبقهم الكلاب السلوقيّة، وقد علّقوا على أرسان خيولهم الأرانب البريّة التي نجحوا في اصطيادها، وقبل أن يدركوا حيثيّات ماهم فيه كانت رصاصة قد انطلقت من مسدّس الجاويش العصمليّ المكلّف بمرافقة القنصل البريطانيّ، واستقرّت في ساعد الطبيب الذي سقط على الأرض من الصدمة والألم، فصار الفريسة بعد دقائق من كونه صيّاداً. حاول الحفاظ على وعيه، وقد أدرك أنّه ينزف، فسارع إليه زميله الفرنسيّ وتناول حقيبته، وأخرج عدّته وبدأ بانتزاع الرصاصة، وقد تناول إحدى الفوط المعدّة للمائدة، ودسّها في فمّ المصاب، وهو يصبّ فوق الجرح ما تيسّر له من الكونياك المعدّ للغداء، وبدأ يخيط الجرح بتؤدة في حين فقد باتريك وعيه من الألم، وسط حالة من الخوف والوجوم حطّت على الحضور الذين حالوا بين القنصليين، يحثّ كلّ مستشار جماعته على ضبط النفس، والتزام الطرق القانونيّة في رفع الأمر إلى السفراء في القسطنطينيّة. حُمل باتريك في عربة، ورافقه الطبيب الفرنسيّ الذي طلب من الحاضرين بعض الأفيون الذي يَحْشون به غلاييهم، فحلّه بالماء، بانتظار أن يفيق المصاب، ليسقيه المحلول الذي سيسكّن بعض آلامه، وهكذا تفرّق القوم منكّدين، وقفلوا عائدين إلى حلب.

لم يكن لأحد أن يصدّق أنّ عقابيل النزاع التاريخيّ على مُلك إسبانيا بين آل هابسبورغ النمساويين وآل بوربون الفرنسيّين سيلقي بظلاله على قلب امرأة صغيرة قادمة من أقصى الشرق، يسمونها ربيبة، أو عبدة، أو محظيّة،

تعيش في دار ملحقة ببيمارستان في حيّ العقبة في قلب حلب. ففي الأيّام التالية التي كان فيها الطبيب بانتظار التئام جرحه، واستعادة همّته كانت ميسّر هي التي تعتني به، وتسلّيه وتبعد عنه الضجّر، حتّى إنّها بعد أن اطمأنّت على تحسّنه، عاشت أسعد أيّامها، فلم تكن تفارقه. كانت تمسح جرحه، وتغيّر ضماده، وتساعده على الجلوس، وتطعمه بيديها ما تطبخ من طعام، بذلت جهدها ليكون أفضل ما تناوله في حياته: طيور القطا المشويّة مع شوربة الفريكة التي تعرف أنّها ترمّ اللحم والعظم، ومرقة العصاعيص بالثوم والليمون، وثريد اللحم بالبندورة، وقد طلبت إليه أن يوليها ثقته، كونها بارعة بأعمال التمريض، فقد حكت له كيف كانت تساعد أباها الطبيب، فتحضر صندوق الحكمة الخاصّ به، وتراقبه وهو يداوي مرضاه في البيت، لاسيّما حين تطرق بابه النساء المحتاجات أو القريبات، وقد علّمها كيف تعقّم الجروح، وتفصد الدم، وتلفّ الضمادات، وأوحت له بأنّها أكثر ممّا يظنّ أو يعرف، وأنّ كونه طبيباً يجعلها تشعر بالألفة والحنان، وإنّ كلّ نأمة تصدر عنه تعيد لها صورة والدها التي ذابت ملامحها في ذاكرتها لتوالي الأيّام والليالي. كانت ميسّر تمسح ثنيات جسد باتريك بماء الورد، وتصرّ على أن تسنده وهي تمشّيه في الحوش ثلاث مرّات يوميّاً، حتّى تستعيد دورته الدمويّة انضباطها، ولم يكن بيده سوى أن يستسلم لها، ويلقي على كتفيها القويّتين هموم عجزه. لم تعد تتحرّج منه، تمشي إليه في الليل بثوبها البيتيّ الخفيف، وقد أرخت غطاء رأسها لينحدر على رقبتها، وأسدلت شعرها الداكن عابقاً برائحة المسك وزيت اللوز المرّ. تدخل حجرته بتؤدة، توقد القناديل، وتجري على خدمته، أو تتسامر معه حين يؤرّقه الألم، فيطلب إليها أن تحكي له حكاية، فتحدّثه عن تنقّلها بين القوافل، وعن القدر الذي جعلها

تأخذ طريق حلب. قالت: إنّ الغجر تركوها لقافلة قادمة من الصين، وذلك على حدود مدينة مرو في تركمانستان، فسارت معهم أيّاماً طوالاً تغرب عليها الشمس في مكان وتشرق في آخر، وفهمت أنّهم متّجهون إلى طهران فالقسطنطينيّة، وأنّ الرحلة إلى هناك لن تطول أكثر من تسعين يوماً في الظروف العاديّة. وفي إحدى الليالي الباردة بين الجبال، كانت السماء صافية، والنجوم قريبة، ونسيس الريح ينذر بثلج قريب، هاجم قطيع من الذئاب المسافرين النيام، ولم يتمّكن الحرس الذين كادت نارهم أن تنطفئ، نتيجة سهوهم عنها من التعب والوسن، من أن يتداركوا الموقف سريعاً، وإلى أن انتبهوا وبدأوا يلقون الحطب والأعواد الجافة التي جمعوها عند التخييم، كانت الذئاب قد بدأت تهاجم المسافرين. علت أصوات الأبواق، وطلب إلى الناس أن يصنعوا ضجّة كبيرة ريثما تعلو ألسنة النار أكثر فأكثر. دبّ الخوف في الناس حين أفاقوا على هذه الجلبة، وأنا معهم، أخذنا نركض في اتجاهات مختلفة، وكان حرس القافلة يحاولون منعنا وضبطنا كي لا تستشرس الحيوانات أكثر، لكنّنا وقعنا فريستها. فتح أحد المسافرين أقفاص القطط السياميّة التي كانت تحملها القافلة للتجارة، قطط فريدة من نوعها، تباع ربّما بعشرات التومانات الذهبيّة، تلهّت بها الذئاب ريثما عظمت النار، وتكاثف لهبها. أردتُ الاختباء وراء صخرة كبيرة، لكنّ ذئباً واجهني، وسمعت رجلاً يصيح انظري في عينيه، وصفقّي واصرخي، ففعلت، واجهته منتصبة، ولم أكن أفكّر سوى بأنّني سأثبت وأنجو، وصرت أصيح في وجهه يا الله! يا الله! أنظر بحدة في عينيه، وخطر لي أنّ نظرته مسالمة، ليس فيها رغبة في الافتراس، فتشجّعت أكثر، وثبّت عينيّ في عينيه أكثر، ما أزال أرى النظرة كلّ يوم في أحلامي، عدا أنّ صوتي في الحلم يختفي، ولا يمكنني السيطرة

عليه. بعد لحظات، انحرف الذئب عن دربي ومشى بتؤدة، في اتجاه آخر، وأيقنت أنّني نجوت. لملمت القافلة شعثها، وتركنا الأجساد المنهوشة وراءنا، ومضينا بمن بقي من بشر وبضائع تخصّ الأحياء والميّتين نحو مكان آخر، مثل محطّة تجتمع فيها القوافل في أراضي إيران، حيث أبلغنا بعد أيّام أنّنا سنرحل باتجاه بغداد، ومنها إلى الشام، لكن بعد أشهر وجدت نفسي في الموصل، ثمّ في حلب.

حين تنهي ميسّر حكايتها يشدّها باتريك إليه بذراعه السليمة، ويقرّبها من قلبه قائلاً:

- هل كان عليّ أن أصاب بطلقة حتّى أعثر على هذا الكنز المخبّأ في بيتي؟
- لكلّ شيء أوان أيّها الحكيم، وكلّما كان الطريق أصعب، كان اللقاء أبهج. أنا أيضاً كان عليّ أن أضرب والي حلب حتّى أصل إليك.

يضحك باتريك من قلبه، لقد فتنته مَلاحة ميسّر، وأخذه هذا الذكاء اللمّاح الذي لم يشهده في النساء من قبل، لا في الأوربيّات حيث يظهر كلّ شيء مقنّعاً بالادّعاء والتقاليد الإمبراطوريّة، ولا في النساء المحليّات اللواتي وجدهنّ باردات في لقاءاته المبتسرة معهنّ، لاسيّما أنّ علاقته تقتصر على المريضات منهنّ.

حين صار بإمكان الطبيب المصاب الاستحمام، انهمكت ميسّر بتجهيز حمّام الدار ليكون أشبه بحمّام عريس. أرسلت من يأتي لها من العطّار بالبيلون الطازج، والدريرة الفوّاحة، وصابون الغار الأصليّ، ثم استجلبت من دارها واحدة من أخصّ بقجها، أخرجت منها ليفة جديدة، وكيس تفريك

اشترته من الحانوت الملحق بحمّام سوق النحّاسين، ورتّبت العدّة كلّها في صندوق من الخشب المطعّم بعرق اللؤلؤ، صفّت فيه أدوات الاستحمام بعناية، وجهّزت المناشف البيضاء التي غَلّتْها قبل أيّام بالزيرقون، وأغلقت الصندوق، ونقلته إلى الحمّام. حين أوقدت الخادمة المرجل في صباح اليوم التالي فتحت ميسّر صندوق العجائب في حجرة الحمّام، لتفوح الدريرة، وحجر المسك، وزيت الفلّ البلدي مع رائحة الحطب المحترق، فعبق بخار الماء حين ملأت الجرن بروائح تتفتّح لها العروق، واستقرّ باتريك أمامها على دكّة خشبيّة يقابل الجرن، وقد وقفت خلفه، وحلّت إزاره، وفردت شعره الطويل الأجعد، وأخذت تغسله بتأنّ متجنّبة الجرح الملفوف بعناية، وكان بين يديها مثل طفل صغير تدعكه أمّه بكفّيها القويّتين، وتقشر جلده، وتمعط شعره كي تمتّع حواسّها برائحته الزكيّة وبمرآه الجميل، وتباهي بنظافته النساء جميعاً. كانت ميسّر قد شمّرت عن زنديها، ورفعت حواشي ثوبها، وكان ظهر العليل العاري يلتصق بساقيها الدبقتين، فتضربه نشوة مثل صعقة تنشأ في أصل صلبه وتنتشر في كيانه كلّه، وحين تمدّ يدها البضّة من خلفه فتملأ الطاسة النحاسيّة بماء الجرن أمامه تأخذه الرغبة في أن يعترضها، ويقبض على كفّها ليمرّغ بباطنها وجهه، ويمشي بها على رقبته وصدره، ثمّ يأخذ صاحبتها، ويكوّرها في حجره، فتكون امرأته في هذه الساعة بلا حسيب أو رقيب، لكنّ ميسّر تكون قد مضت في عملها ودلقت على رأسه طاستين متتاليتين من الماء الساخن، الذي يكاد يوقف نفسه، ويصحّيه من رغباته التي اعتقد أنّ الزمن مضى بها إلى غير رجعة. بعد أن ليّفت ميسّر جسده، وغسلت ما علق من الصابون بجلده، مشّطت شعره، وجدّلته، ولفته بمناشف ثلاث تفوح منها روائح العطارة، واحدة لرأسه، وأخرى لجذعه العلويّ، وثالثة

لجذعه السفليّ، ووضعت قدميه في قبقاب الصدف، وقادته ليجلس في استراحة الحمّام الصغيرة، ليجفّ جيّداً، وهو يشرب كأساً من اليانسون الساخن، ليستطيع ارتداء ثيابه، قبل أن تخرج به إلى الحوش، ومن ثمّ إلى غرفته.

حين وصل باتريك إلى سريره كان قد استوى من الحرارة، وارتخى جسده من الدعك والمعطّرات والأبخرة، وكان بحاجة إلى أن يدفن جسده في جسد هذه المرأة التي أوقدت في نفسه شهوة الأنس والهيام. دعاها إليه، فلبّت دعوته بكرم أذهله، وبرغبة توّاقة لأن تلمّ شعث روحه التي طالما غلّفها بغلاف صارم من السكينة والثقة والتنظيم، وقد شعرت ميسّر أنّها مثل روحها تائهة، ووحيدة، وغريبة.

* * *

يستند باتريك إلى جسد ميسّر المتين، يسألها أن ترافقه إلى المكتب، إذ عليه أن يتمّم واجباته في الكتابة التي انقطع عنها لأسابيع. تجلسه وراء مكتبه، وتسأله وهي تقرّب أمامه حافظة الأقلام: هل يمكنك أن تقرأ لي شيئاً ممّا تكتبه في هذا السِّفر بلغة أفهمها؟ ابتسم لها وهو يشدّها لتقترب منه وتجلس إلى وسادة ضخمة جنب مقعده، وقال: تكرمي يا خانم! وفتح مدوّنته عن حلب، وبدأ يحكي ما كتبه بالعربيّة:

"يخرج الناس من السوق المغطّى إلى الشارع، كأنهم انتقلوا من زمن لآخر. تلفح وجوههم حرارة الشمس، ويدارون أنظارهم عن ضوئها. أصوات العربات والحمّالين تشقّ الفضاء، من يريد توصيلة، أو ينقل بضاعة من خان إلى آخر، أو

يحمل مشترياته إلى البيت. يتدافع الناس على جانبي الطريق، متجنّبين وسطه، لقد تغوّطت دابّة، وتجمّع الذباب حول فضلاتها، تأتي التحذيرات من المارّة ألاّ يدعس أحدهم في القذارة، إذ سيأتي بعد قليل الزبّال ليزيلها. في البيوت تستلقي النساء في الحرملك مبتردات، متخفّفات من ملابسهنّ، عليهنّ أثواب الشاش الرقيقة، البيضاء والفستقيّة المطبّعة بالأزهار الذهبيّة أو بنقشة الفلكات، تشفّ عن اللحم الأبيض البضّ، وتُحتجز عند العجيزات التي تبدو مثل هضبات صغيرة تلتصق بظهور معظمهن. أما العرائس الجدد، فيقضين النهار بانتظار المساء. لقد جهّزن الطعام مبكّراً، وتحاول كل منهنّ أن تلتزم القواعد، فتفوح من مطبخها رائحة الكبّة المقليّة مع السلطة الخضراء ومتبّل الباذنجان، وسلطة خيار بلبن، أو تكون قد وضعت طنجرة اليبرق، وتحتها أضلاع الغنم على نار هادئة منذ الصباح، أو طبخت كبّة بسمّاقية مع الأرضي شوكي لتطعم العائلة كلّها، الحماة، والعمّ، وبنات البيت. ستغتسل النساء كي تتخلصن من روائح الطبخ العالقة بأجسادهنّ، وسيجرّبن التفاريع، وقمصان النوم الحريريّة ذات الألوان الزاهيّة: الحمراء، والسماوية، والورديّة القصيرة، ذات الأطراف المحّلاة بالريش، أو تلك الطويلة المفتوحة من الجانبين لتظهر الساقين عند كلّ حركة، بحمّالات رفيعة معلّقة بالكتفين، حيث يغطّي قماش الدانتيل الصدر، فتكاد الحلمات الداكنة تطلّ برؤوسها من خلال التخاريم.

يأتي الرجال عند المغرب مهدودين من العمل في السوق، ومن الأخذ والعطاء، والجدال وطقّ البازارت للحصول على

الصفقة. يأكلون بشهيّة، يشعلون غلايينهم ليهضموا الطعام مع القهوة، أو الشاي، الذي رغم حرارته يبرّد. تتودّد النساء لهم بالغنج، وستضع من تعرف القراءة قناع شهرزاد، وتبدأ بقصّ حكايات الليالي التي حفظتها عن جدّتها وأمّها، ولعلّ أخرى تمتلك نسخة ورقيّة من ألف ليلة وليلة، وتعكف على قراءتها، وإذا ما طال السهر ولم تتمكّن النساء من إثارة الرجال، سيلجأن إلى الرقص، والغناء، أو التدليك لفكفكة العضلات المتشنّجة كالخشب، من حمل طاقات الحبال، أو رفع أثواب القماش على الأرفف، أو رصّ ألواح الصابون، أو تحريك وصفات العطارة، وصناعة المراهم، أو خياطة عبي الجوخ وتسجيفها بالصرما، وهكذا تعلو الآهات، وتفوح روائح الزيوت العطريّة في المخادع: الفلّ، والياسمين، والورد، فتستيقظ الشهوة رغم الكسل، وشيئا فشيئا تغلي الدماء بالشبق، وتلتحم الأجساد إلى الحدّ الأعظم، وبعد إشباع الشهوات، تُفتح الشبابيك المطلة على أرض الديار، طلباً لنسيم الليل الذي يحمل الأجساد المنطفئة إلى عالم الأحلام".

حين أنهى القراءة، كانت ميسّر قد غفت عند قدميه مثل قطّة، فأيقظها توقّفه عن الكلام، وقالت: لا حاجة لي بعد الآن للذهاب إلى بيت القنصل، لأستمع إلى حكايات حنّا! فقال باتريك محتجّاً: لكنّك نمت، ربّما لم يعجبك الحكي، أم أنّك متعبة من خدمتي؟ ردّت ميسّر بكلام كانت تعني كلّ مفردة منه، وقالت: ليس ينام المرء من التعب، بل من الأمان.

* * *

كان الشجار بين القنصلين الإنجليزيّ والفرنسيّ الذي جرى خلال رحلة الصيد قد أرعب الوالي، فهو لا يريد أن يكون في سجلّه فوضى وشكاوى لدى الباب العالي من أجل التعيينات القادمة، إذ يطمح لأن يبقى واليًا على حلب، لسنين قادمة، وإنّ حدثًا أقلّ ممّا حصل بين القنصلين يمكنه أن يطيح بأيّ مسؤول، ولاسيّما أنّ الذي أطلق النار شرطيّ محليّ، وأنّ طابور منتظري الولاية طويل، وفيه من يدفع الغالي والنفيس من العملة، والأراضي، والضياع في سبيل الحصول على هذا المنصب الأثير. وهكذا طلب الوالي إلى خاصّته من المستشارين، والتجّار الاجتماع في السرايا للوصول إلى حلّ يرضي الفرنسيّين والإنجليز، على حدّ سواء، فلا ترفع الشكاوى إلى السفراء في إسطنبول، ولا تتأثّر حركة التجارة في البحر، وتبقى السفن الحربيّة مستقرّة في موانئها، و(هون حفرنا، وهون طمرنا) كما أشار للمجتمعين. كان الجوهريّ يعرف أنّ نتائج هذا الخلاف ستقع على رأس التجّار، وليس غيرهم، وأنّ الوالي لن يفتح خزائن ماله، لا الخاصّ ولا العامّ، ليدفع 1000 ليرة ذهبية عثمانيّ، زعم أنّه سيقسمها بين القنصليّتين بالتساوي، وذلك بحجّة أنّ الولاية لم تلملم وضعها بعد سنتين متتاليتين من الجفاف أصابتا ملك آل عثمان كافّة، لكنّهما كانتا الأقسى على حلب، فأكلتا ثلاثة أرباع ميزانيّتها، ولاسيّما في السنة الفائتة حيث لم تهطل قطرة مطر واحدة في أربعينيّة الشتاء، وأمطرت مرّتين فقط في أوائل شباط، ومرّة واحدة في آذار، فَتلِفَت الزروع، وخلت البيادر من الحنطة حتّى صار الشنبل الذي يصل إلى حلب من أورفه وغيرها من الأمصار القريبة بثمانية قروش. وتبع ذلك قلّة المياه، وجفاف نهر قويق تمامًا منذ أوائل الصيف، وانحسار المياه في قناة

حلب إلى أقلّ من خمسها، فعطش البشر والدواب، وتراجعت مواسم زروع الصيف التي تغبّ الماء غبّاً كالجَبَس، والبطّيخ، والعجّور، والكروم، ولم تعد النواعير تقوى على الحركة في البساتين، وبمجرد أن عرف التجّار أنّ زهر الزيتون قد بدأ يقع من العطش منذ منتصف حزيران، رفعوا سعر الزيت الموجود منذ عام في خوابي دكاكينهم، وطار ثمن رطل الصابون من 95 قرشاً إلى 105.

هرب معظم التجّار الصغار لعدم قدرتهم على الدفع، فأغلقوا دكاكينهم وتوجّهوا غرباً نحو جبل الأربعين، حيث لهم أو لأقربائهم أراض هناك، وبعضهم طلع شرقاً إلى الرقّة، حيث شركاؤهم من البدو الذين يتاجرون بالصوف والسمن، وحتماً سيخبّئونهم عن عيون الوالي إلى أن يسوّى موضوع الغرامة التي لا يعرفون من أجل ماذا، ولا علاقة لهم بها من قريب أو بعيد، وقد استطاع أعوان الوالي من الانكشاريّة إعادة بعضهم وحبسه والاستيلاء على ما خبّأ من بضاعة بدل الأموال المطلوبة، حتّى إنّ أحدهم لم يكن يملك سوى برميل من دبس العنب، فاستولوا عليه.

كان الجوهريّ واجماً يبحث عن حيلة تخلّصهم من هذا البلاء الذي جاءهم من حيث لا يحتسبون، وكان يدرك أنّ أمر القنصلين مقدور عليه، وليس له التبعات التي يتصوّرها الوالي، لكنّ المشكلة تكمن في (أبو راس) أي الوالي نفسه، كما يسمّيه الناس في خطاباتهم اليوميّة، وذلك لكبر رأسه وغلظة ملامحه، قياساً إلى صغر حجم رقبته، وقصر جذعه. أقنع الجوهريّ كبّار التجّار من مسلمين ومسيحيّين بالاجتماع لدى الوالي وسماع كلامه، في حين أنّ (أبو راس) طلب عدم إجمال التجّار اليهود في

هذا الأمر بسبب سوء وضعهم الاقتصاديّ كما ذكر، وكونهم مسؤولين عن إطعام رعيّتهم والتبرع لهم بانتظام، وهم يعرفون أنّ هذه تعليمات السلطان تحديداً. نقيب الأشراف هدّد بأنّهم لو لم يستثنوا التجّار من أهل العمائم الخضر، فإنّه سيلجأ إلى حلفائه من قبائل البدو ليشغّلهم ضدّ القوافل للاستيلاء عليها، فاستثنوه أيضاً. أمّا التجّار الأكراد فهدّدوا بالضغط على الانكشاريّيين من ملتهم، والذين يشكّلون جزءا لا بأس به من التنظيم، فيحرضوهم على الثورة، فاستثنوهم أيضاً. وبعد كل هذه الاستثناءات، ومن أجل حفظ ماء الوجه، أشار الجوهريّ على الوالي أن يقيم مزاداً على واحد من أشيائه الثمينة التي لها رمزيّة عميقة الجذور، تخصّ الدولة العليّة، كالسيف الذي أهدي إليه من قبل الصدر الأعظم، أو أيّ سلاح يجعل التجّار يدفعون بطريقة لا تبديهم أذلاّء، وإنّما راغبين من أجل مصلحة الدولة ورعاياها جميعاً، لأنّ الصراع الإنجليزيّ الفرنسيّ سيؤثّر على كلّ لقمة تدخل فم مخلوق في حلب. فأعجب الوالي بالفكرة، وكان الجوهري قد اتفق سرّاً مع التجّار على أنّ أعلى مبلغ يصل إليه المزاد سيقتسمونه فيما بينهم كلّ بنسبة تعادل منزلته المسجّلة في نقابة التجّار، وقد وافق الجميع على رأي الجوهريّ، وهم يعرفون أنّه سيدفع معهم وسيكون مبلغه الأكبر لأنّ منصبه هو الأعلى، وهذا ما كان. غير أنّ الوالي لم يضع سيفاً في المزاد أو خنجراً، بل أعطاهم واحداً من مآزره الحريريّة بلون الورس الأصفر، مطرّزاً بتيل الفضّة على شكل فلكات من الكتفين إلى الحاشية. فوجئ جمع التجّار بالقطعة المطروحة للمزاد، والتي قد يمتلك واحدهم ما هو أثمن منها، وإنّ ثمنها سيبلغ في أحسن الأحوال ثلاثين ليرة ذهبيّة، لكنّهم غلبوا على أمرهم.

اجتمع التجّار أمام بوابة الجامع الكبير في سوق المدينة، وبدأوا مزادهم الذي حضره مراقب ماليّ من السرايا، من غير حضور الوالي أو أحد مساعديه، أرساه الجوهريّ على ألف ليرة عثمانيّة ذهبيّة خالصة بلا كسر، وبذلك فقد أتمّ مهمّته، وصار المئزر في حوزة الجوهريّ، الذي سلّم الذهب لمندوب الوالي، وحين علم الوالي أنّ التجّار جمعوا ثمن القطعة المزايد عليها، غضب واستدعى الجوهريّ، الذي كان يترك انهماكه، وحساباته، وترتيب قضايا التجّار الماليّة والإداريّة، ويجلس بباب الوالي منتظراً فراغه من انشغالاته، للدخول عليه، وقد قرّر أن يصبر على هذه التعسيرات اليوميّة مؤمّلاً نفسه بالفرج. وحين دخل على الوالي، عاتبه الأخير، واتهمه بالخداع والالتفاف على وليّ الأمر، لكنّ نبرة الجوهريّ تحوّلت إلى الحدّة، وقال للوالي إنّ الدولة ترهق التجّار في حلب المحروسة، وهذا لن يتأتّى عنه خير، وأنّ التجّار لا علاقة لهم بقضيّة القنصلين، وإنهم فعلوا ذلك إكراماً لشخص الوالي لأنّه منهم، وعزوتهم، ولا يرغبون بخسارته واليًا ليحلّ محلّه غريب تركيّ. فلانت لهجة الوالي، وبدا عليه قلق مفاجئ، وأمر بإجراء عادل، فهو، على حدّ قوله، لايظلم أحداً، لذا يجب أن يأخذ كلّ تاجر من المئزر بالنسبة التي دفع ثمنها.

لم يكن تجّار المدينة مهتمّين لا بالمئزر ولا بغيره، لقد أرادوا أن ينجوا بأموالهم، وأن تقف الخسائر على هذه الليرات، بلا أيّة دعاوى جديدة، لكن ما كان منهم سوى أن تقاسموا المئزر، وقصقصوه بينهم بالنسب المقرّرة، ونال كلّ منهم رقعة، بروزها في إطار فخم، وعلّقها على حائط المكان الذي يدير منه مصلحته.

في المساء التالي وصل أبو حسن القزّاز مبكّراً إلى مجلس الجوهريّ، وكانا يسكنان في دارين متلاصقتين. كان القزّاز مساعده الأوّل في نقابة التجّار، ويده اليمنى في السوق، وأحد أخصّ أصدقائه. لم يكن قد انضمّ إلى المجلس أحد بعد، فعادة تجتمع الأكثريّة لساعة بعد صلاة العشاء، أمّا الندماء، فيبقون حتّى انتصاف الليل أحياناً، حيث تعقد حلقة المسامرة على مائدة عشاء، تضمّ بعض أنواع اللحوم المشويّة، والخضروات الطازجة، والكبّة النيّة مع البصل المفروم، وشيء من العرق المصنّع في بيوت محلّة الجُدَيْدة المستحدثة. كان الجوهريّ يجلس في اتكاءة مرتدية عباءة من الكتّان الخفيف بلون وبر الجمل المقصّب، ينفث في غليونه الأحمر، فتبدو عروق رقبته وهو يرفعها لتعلو حلقات الدخان أكثر فأكثر نحو سقف الليوان، وعلى غير العادة لم يقف لاستقبال القزّاز، بل تحرّك متثاقلاً، فأقبل عليه القزّاز ليثنيه عن الوقوف، وكبّس جسده بكفيه، ثم رجع ليتخذ مقاماً قريباً:

- لا تؤاخذني يا أبا حسن، فإنّ قيامي صعب! ركبتاي لا تكادان تحملاني.

فضحك القزاز: *له يا أبو محمّد، ما زال الوقت مبكّراً على وجع الركب، لسّه بدنا نجوزك.*

- إيه، الله كريم. قالها الجوهريّ بجدّ، وهو يرفع أحد جاجبه، قبل أن يلقم الغليون في فمه، وأشار إلى غلامه أن يقدّم غليوناً للنديم، وأن يقطف لهما من (جانرك) الشجرة ثماراً طازجة.

- ما الذي يحملنا على هذا الضيم يا أبا محمّد؟

سكت الجوهري لهنيهة، وقد سرح نظره نحو القمر الذي راح يتجلّى بدرًا وضّاء، في ليل يهبط متمهّلاً على الحجارة المزخرفة التي

تؤطّر سطح الدارة الكبيرة، فينسرب النور المنتشر بين الزخرف فتبدو للناظر كأنّ شموعاً مختبئة بين ثغراتها، قبل أن ينعكس على العرائش، وأشجار الكرز، والنارنج، والرمان، ثمّ على زهر الفلّ، والياسمين، والجوري، وينكسر على سطح مياه البركة ذات النوافير الثلاث:

- ليس لنا حلّ آخر، أيّ خيار سيكون أسوأ. تفضّل، هات لي حلاً أفضل!
- نشكو الوالي إلى السلطان، ونتخلّص منه ومن عائلته كلّها، لقد احتكروا الولاية لثلاثة أجيال.
- وهل تضمن أنّ القادم أفضل! هؤلاء قد فهمنا عليهم وفهموا علينا، والذي تعرفه خير من الذي تتعرّف عليه! *هذا بيشلّحنا سويّة ذهب*، ويفتح لنا الأبواب المغلقة، أمّا القادمون فعيونهم مفتحة، ولا تخاف إلاّ من حديث السلطة، سيشلّحوننا الأراضي، والضياع بعقاراتها، وفلّاحيها، وعبيدها!
- أنا أقول لا بدّ من المغامرة، قد يأتي والٍ جديد ابن حلال!

قهقه المتسامران لدقائق بلا انقطاع، وقد عبق الفضاء برائحة التتن المحترق في الغليونين، وكلّما سكتا، كان أحدهما يصيح: ابن حلال! ويعودان ليغرقا بالضحك ثانية، ليعترض الصوت حلقات الدخان المتصاعدة. وبعد الصمت، قال القزّاز: إذن!

- ردّ الجوهريّ، اسمع *هالحكاية*:

كان هناك ملك وعنده جمل وضّاح لا يدله بملكه كلّه. كان يحبّه، ويجلسه معه في مجلسه في القصر، ومع حاشيته، فيبرك الجمل كأنّه واحد منهم، أو يمشي في القاعة بين المطارف والحشايا، إلى

أن يأخذه أحد العبيد ويقوده إلى حدائق القصر، وكان المنافقون من الجلساء يقولون للملك: إنّ هذا الجمل عظيم، ولا ينقصه سوى أن يتكلّم، ويشاركنا أحاديثنا، فوقع هذا الرأي في نفس الملك موقعاً حسناً، فقال لوزيره وكاتم سرّه: أريدك أن تعلّم الجمل الكلام، فردّ الوزير بثقة: الكلام للبشر يا مولاي، وليس للحيوانات، فغضب الملك غضباً شديداً، وهدّد وزيره: إن لم يتعلّم الكلام في ستّة أشهر ليجالسنا، سأقطع رأسك.

أُسقط في يد الوزير، وقد أرهبه التهديد، وعاد إلى بيته مهموماً، تذوب نفسه حسرة على مصيره، وعلى ابنته الوحيدة التي يمكن أن يفارقها، وأخذ يرتّب أموره كي لا يتركها محتاجة لأحد بعده. ولمّا لاحظت ابنته، والمعروفة بين أترابها بفطنتها وذكائها، سألته عن سبب همّه ووجومه، وألحّت بالسؤال، فصارحها بما حدث معه. فكّرت البنت قليلاً، ثمّ ابتسمت في وجه أبيها وقالت: لا تقلق يا أبي! غداً تذهب إلى الملك، وتقول له إنّك قرّرت تعليم الجمل الكلام! دهش الوزير، وهدأ روعه، فهو يعرف أنّ حلًّا قادماً إليه من بين كلمات ابنته، فقال متلهّفاً: كيف؟ قالت: كلّ يوم تنفرد بالجمل لوقت محّدد، ثمّ تعود إلى الملك وتقول له: إنّ الدرس انتهى لهذا اليوم، وتتابع عملك في الحكم.

- وماذا بعد؟ ماذا سأفعل حين تنقضي المدّة؟
- يا أبت، في هذه الأشهر الستّة يخلق الله ما لا تعلمون! فإمّا أن يموت الجمل، وإمّا أن يموت الملك، وإمّا أن تموت أنت، أطال الله لنا في عمرك، وأقبلت البنت على والدها تقبّل يديه، وقد أعجب برأيها، وباركها مسروراً محبوراً.

كان القزّاز مصغيًا تمامًا، ومنتبهًا إلى الحكاية، منتظراً أن تصله العبرة منها. ولمّا انتهى الجوهريّ من الكلام، ابتسم الرجل، وهزّ رأسه وقال: فهمنا يا سيدي! وتناول (جانركة) من الصحن المفضّض أمامه، عضّها، وأخرج نواتها، وهو يغمض إحدى عينيه متلذّذًا بحموضتها، ومسح ما علق من عصارة في أصابعه بمنديل قدّمه له الخادم الذي يحوم حول المجلس منتبهًا لطلبات سيّده وضيوفه:

- والله هالحكاية ألعن من حكايات حنّا دياب، "ولو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر"، كما يقول صاحبنا، لعلّك تذهب إليه من دوني يا معلّم!
- صار لي زمان لم أره فيه، اشتقنا لجلسته، وقصصه عن البلاد والعباد. ينسى المرء معه همّ المال والعيال، والقضاة والسلاطين. رتّب لنا زيارة لداره، ولنحمل له هدايا تفرح قلبه كما يفرحنا بحكاياته.

حفلة نسائيّة

في أوّل إثنين من كلّ شهر، اعتادت سيّدات حيّ العقبة من نساء التجّار، وموظّفي الحكومة المحليّين على الاجتماع منذ العصر في دار إحداهنّ، فيما يسمّى الاستقبال. يبقين هناك إلى ما بعد صلاة العشاء، يتسامرن، ويمتّعن أنفسهنّ بالاستماع إلى الموسيقى والغناء، وبالرقص، وتبذل كلّ منهنّ حين تكون المضيفة جهداً كبيراً لتوفّر لزائراتها أكبر قدر من المتعة، ولتقدّم لهنّ أرفع أنواع الضيافة، من شراب اللوز، ومبروش الفاكهة المثلّجة المحلاّة بالسكّر، وأنواع المربيات: مربّى الكبّاد، والباذنجان، والنارنج، والجوز، وصنوف البقلاوة، والقهوة، وتوزّع مع ذلك كلّه الغلايين والنراجيل. وقد تدعى إلى الاستقبال، لظرف ما، حريمُ الوالي أو المسؤولين الأرفع في المدينة، أو في حالات نادرة تدعى نساء عائلة أحد القناصل إلى الاستقبال، وذلك وفاقًا لموقع المضيفة وزوجها في السلّم الاجتماعيّ. حينها يتحوّل الاستقبال إلى كرنفال من البذخ، والضيافة، والأزياء، والجمال، وتصبح أولئك الزائرات الاستثنائيّات فرجة للصغيرات قبل الكبيرات. يغصّ الحرملك، في يوم الاستقبال، بالصبايا المقبلات على الزواج، في أبهى حللهنّ من القصب والذهب، ويُرين من فنون حسن التصرّف، والالتزام بالتقاليد أقصى ما يمكنهنّ إظهاره، فهذه اللقاءات هي السبيل الوحيد تقريباً للحصول على زوج

مناسب، أو على عروس ترضي حماتها قبل عريسها. تحاط هذه الاجتماعات بإطار من التقاليد، التي تبدو مرهقة أحيانًا، في الإعداد والتنسيق، وتحضير أجود أنواع الضيافة، والقيام بأعمال التنظيف وترتيب المجلس، والاستحمام، واللبس، واستقبال كوّاية الشعر، والمزيّنة، والعازفات، وحين الفراغ من الاستقبال ستعاد الكرّة ثانية في إعادة كلّ شيء مثلما كان.

تبقى كلّ من الضيفات والمستقبلات يتحدّثن حول تفاصيل الأمسية، ويترنّمن بالجود والمتعة، أو يناقشن الأغلاط التي تصيّدنها من كلام قيل، أو ظهور غير مناسب لإحدى النساء، أو عتاب حدث بين اثنتين من الحاضرات، أو معركة صغيرة جانبيّة نشبت على هامش الاجتماع، إلى أن يقبل إثنين الشهر الذي يليه فينسى غالبًا ما حدث، ويبدأ تاريخ جديد من المتعة والصلات. وقد يسمّى هذا الاستقبال إثنينيّة، وربّما يختار له يوم الخميس فيسمّى بالخميسيّة، لكنّ الخميس غالبًا يقتصر على السهرات الأسريّة الخاصّة، حيث تنتظر النساء أزواجهنّ الذين يقفلون مبكّرين من مصالحهم، لتأخذ العلاقات الحميمة مسارها الأسبوعيّ بأقصى أنواع الشغف الذي تتبادله النساء مع أزواجهنّ في الحجرات المغلقة، حيث ترتّب أطعمة خاصّة لما بعد العشاء، فيها المكسّرات، والحلويات، والفاكهة، وأشربة الصيف للصيف، وأشربة الشتاء للشتاء، وتبقى القناديل مشتعلة إلى ما بعد منتصف الليل، إلى أن تطفئها همسات الشوق، وتأوّهات المتعة.

في مقابل هذه الاستقبالات الرسميّة تقام اجتماعات خاصّة للنساء الناضجات، وفيهنّ المتزوّجات، أو العوانس، أو الصبايا اللواتي يُعرفن

بالفطنة، والذكاء، وكتمان الأسرار من الجيران والصديقات، وهذه الاجتماعات تطرح البروتوكولات جانبًا، وتكون خالصة للضحك والمتعة، وتجمع، إلى جانب نساء الصفوة من التجّار والأثرياء، نساء أقل في ثرائهنّ ومنزلتهنّ. تأتي فيها المغنيات من أماكن بعيدة من خارج العقبة، ويدار فيها العشاء من المحاشي والكبب، وربّما التتن الممزوج ببعض الأفيون، وقد تكون في بيت أقلّ أبّهة، لكنّ أصحابه يشعرون باعتزاز باستضافة طبقة أعلى، وهنا تجتمع المسلمات بالمسيحيّات، والمحليّات بالأجنبيّات، بلا حرج أو انتقاد. ولمّا طال حبس الوالي النساءَ، بعد حادثة عيد المولد، أصابهنّ الملل، وبدأن بالاحتجاج في بيوتهنّ لدرجة الإزعاج، ويعلم كلّ بيت أنّ نساءه إذا ما قرّرن كسر طوق الحصار من أجل التسلية والبهجة، فلا يمكن أن يقف أمام رغبتهنّ حتّى الوالي نفسه، إذ استطعن عبر خبراتهنّ الطويلة بالعلاقة مع السلطة تدبّر أمور الخروج واللقاء *على الساكت* كما يقال. وهكذا وصل الخبر لميسّر بأنّ النساء سيجتمعن مساء عند زوجة اللبابيديّ، ويبعد بيتها بيوتًا أربعة متوالية في الزقاق ذاته. ستحضر كلّ من فتوح وهيلين، فضلاً عن الأخوات الستّ للمضيفة، وبنات خالاتها، وهنّ من عائلات تسكن محيط القلعة وخارجه في محلّة بانقوسا، ومعروفات بخفّة دمهنّ، وحبّهن للطرب، والرقص، والمزاح، والألاعيب، وسبحان الخالق كلهنّ مليحات، وفيهنّ عرق إيطاليّ من إحدى جدّاتهنّ، وتقول إحداهنّ للقمر قم لأجلس مقامك!

طلبت ميسّر إلى باتريك أن يسمح لها بلقاء صديقاتها، إذ فكّرت في أنّها ستبتعد قليلاً وتنشغل عنه كما ينشغل هو عنها، فيلتقي برفاقه، ويتركها ساعات طويلة. اعترض بشدّة متعلّلًا بأنّها مسؤوليّة كبيرة بالنسبة له، فهو لا

يمكن أن يخالف الفرمان الرسميّ من جهة، ولا أن يغضب الجوهريّ الذي ائتمنه على ميسّر من جهة أخرى. بكت ميسّر، إذ شعرت بأنّه كسر خاطرها، وأنّ رغباتها لا تعني له شيئاً، وأنّه يفضّل أن يرضي الجوهريّ على أن يرضيها، لكن باتريك لان سريعاً أمام دموعها، وركع أمامها وهي في منتهى الدهشة، وقد وضع عمامته بين يديها: أرجوك يا خانم لا تبكي، سأوصلك بنفسي، لكن كما تعرفين الحرّاس منتشرون في كلّ مكان، والعين على بيتي وعلى البيمارستان بعد إصابتي في الحادثة. كادت ميسّر أن تذوب من لطفه ورقّته، وقالت له إنّ النساء يستطعن الانتقال عبر أسطح المنازل ما أن يهبط الليل، ويمكنها الوصول إلى دار اللبابيديّ القريبة بأمان، وإنّه حين يعود من سهرته في خان العلبيّة سيجدها، بلاشكّ، في غرفتها.

كانت دار اللبابيديّ صغيرة ومتواضعة، بالنسبة لدور كبار الصنّاع والتجّار في العقبة، لكنّها مليئة بالبهجة. فيها حوش مربّع يشكّل ضلعيه ليوانان متقابلان، وتأخذ الزريعة مكاناً واسعاً من كتف الدرج وحتّى باب المطبخ، وتتوزّع الحجرات على الضلعين الآخرين، أما الطابق الفوقانيّ فيبدو منه مربّع لاستراحة أهل البيت، وحجرات مغلقة هجرها جزء من عائلة اللبابيدي التي انتقلت منذ مدّة إلى حيّ الفرافرة شمال الخندق، كما بات يفعل بعض الذين امتلكوا وظيفة جديدة في الحكومة، ليتركوا الاكتظاظ في حيّ العقبة ومن حوله الأسواق، حيث حصل أحد الأشقّاء على وظيفة مقيّم للأراضي الأميريّة بعد أن عاد من إسطنبول، وانتقل مع أسرته الصغيرة ووالديه الشيخين إلى هناك.

أعدّت المضيفة الجلسة بحيث تركت الليوان للخوجة بديعة وبناتها القادمات من منطقة (قاضي عسكر). تعزف الخوجة على العود، والبنات

يـؤدّين الأغـاني والأدوار التمثيليّـة، وقـد فرشـت أرض الحـوش بالمقاعـد والمساند للضيفات، ليقابلن مصطبة الليوان التي صارت تحاكي مسرحاً صغيراً، وأُشعلت النيران في مناقل الفحم للتدفئة، حول الجلسة، على الرغم من أنّ هذه الأيّام من نيسان حملت معها ذاكرة شهور الصيف الحادّة. كان صاحب الدار قد خرج في رحلة عمل إلى البادية الشرقيّة حيث يقيم صفقات تجارية مع البدو الذين يزوّدونه بالصوف والوبر لعمله، وكانت نسمات لطيفة تقطع سكون الهواء، وتهتزّ لها أغصان شجيرات العسليّة، والياسمين التي تعرّش على الجدران، وإفريز الدرج، لتخفي الحجر الباهت خلفها، الذي قد يعود عمره إلى عمر قلعة حلب ذاتها.

كان اللقاء بين ميسّر وفتوح وهيلين معقّداً، فيه الشوق، والعتب، والدموع والضحكات، والأسئلة الحذرة والملغزة. كانت فتوح وهيلين في أبهى منظر! ارتدت الأولى ثوباً أرجوانيّاً من الأطلس اللماع، بكمّين مشقوقين من منتصفهما، يظهران حسن تكوين ذراعيها الدقيقتين، وبتقويرة واسعة عند الصدر، أبدت لون بشرتها المزهر الفريد، بالنمشات الصغيرة والكبيرة التي تتلاعب، في ضوء مصابيح الزيت، بأبصار الناظرين، وقد انسدل القماش الوفير منسابًا على جسدها ليغطّي كعبيها، في خفّ من قماش البروكار الذهبيّ، كان تصميمه دارجاً في أحذية بلاد أوربة، وقد زيّنت أذنيها بطارتين من الذهب، ولبست في ساعدها سواراً ذهبيّاً عريضاً رُصّع بعدّة أحجاز من الزمرّد الأخضر، وتركت شعرها البنيّ منسدلاً، لترفعه بكلتا يديها كلّما شعرت بثقله، وتعقصه على بعضه فتستقبل نسمات الهواء التي تتركها في حالة من الخدر اللطيف. أمّا هيلين فهي لا تتخلّى عن أثواب فلورنسا الحريريّة، وإن كانت تفصّلها في حلب حيث توجد خيّاطات أتقنّ فنّ

التصميم، والحياكة، والتطريز، ورشّ الحجر والخرز على القماش، إيطاليّات، وتركيّات، وأرمنيّات، ويونانيّات، ومحليّات. كان ثوبها بالأزرق الملكيّ، جزؤه العلويّ يختفي تحت صدريّة ضيّقة مطرّزة تطريز الصرما بالخيوط الفضيّة، ثمّ ينسدل القماش باتّساع، تضيع معه تفاصيل الورك والساقين وما اختبأ من جسدها تحت طبقات الحرير العديدة، وقد تزيّن صدرها الأبيض الصافي بعقد من اللؤلؤ الثمين، الذي تجلّى وضّاحاً مع شعرها الأسود الذي علّقته مثل باقة زهر على قمّة رأسها.

كانت ميسّر أقلّهن اهتماماً بمظهرها، وكان هذا ديدنها عموماً، ولاسيّما أنّها تركت معظم ما تملك في بيتها، ولم يصلها إلى معتقلها في بيت الطبيب سوى حوائج قليلة، لكن من الواضح أنّها كانت أسعدهنّ بثوبها الذي لم يكن جديداً، وكان جلبابًا من الصايا المخطّطة بالأبيض اللمّاع والأسود، ومخرّجًا ببريم أسود، وقد فتحت أزرار صدره حتّى أمكن اختلاس النظر إلى سفح نهديها المتماسكين، وقد وضعت بينهما فلّة بيضاء، وحين رفعت أطرافه لتجلس على الحشايا المفروشة بان خلخالان من الذهب في ساقيها، ولأوّل مرّة تكتشف صديقتاها أنّ ميسّر تمتلك خلخالين أو تقدم على لبسهما! وحينما سئلت عن ذلك، أجابت بأنّها كانت مريضة وتشعر بآلام في الساقين والمفاصل، فأشار عليها الطبيب بلبس الذهب مكان الألم، وأنّ الخلخالين ممّا أعطتها إيّاه سيّدتها أو أمّها، كما تناديها، من زمان، لكنّ الحقيقة التي أخفتها ميسّر هي أنّهما هديّة من باتريك عربون حبّ ووصال. كان وجهها يتلألأ بصفاء هادئ، وببشرة مشدودة ومتورّدة تثير الحسد، وكانت رؤيتها رغم المحبّة وصفاء السريرة قد أقلقت فتوح العارفين، وكلامها عن الطبيب قد أشعل غيرتها:

- حدّثينا عن كلّ شيء يا ميسّر، كيف تقضين أيّامك، هل أنت محبوسة في حجرة في البيمارستان مع المرضى، أم لك حريّة التجوّل فيه؟ تبدين وكأنّك كنت في نزهة! خفنا ألاّ تستطيعي الالتحاق بنا.
- أوّل باشتان: أنا عاتبة عليكما أنتما الاثنتين، ما فيكما واحدة حاولت زيارتي، أو إرسال مكتوب إليّ، أو حتّى صحن مجدّرة!
ثاني باشتان: أكيد لن يضعوني مع المريضات حتّى أُعدى وأموت، ولا مع المجنونات حتّى لا يقتلنني أو أجنّ. البيمارستان كبير كبير، وفيه قسم يضمّ غرفاً منفردة للحالات الصعبة، وأنا في إحداها، هههههه.
- يعني أنت ترين المجنونات، هل هنّ كثيرات!
- نعم، أنا أخرج كلّ يوم بشكل عاديّ، وأساعد الحريم اللواتي يعتنين بهنّ. أنظّف معهنّ، وأطبخ الطعام، وأشرف على نزهتهنّ في الحديقة، وعلى جلسة التأمّل حول النوافير، وأساعدهنّ في زراعة الورود، وأراقب جلسات الموسيقى العلاجيّة! أعمل قليلاً، وأنام، وآكل بشكل جيّد.
- *اسمعوا هالحكي! قالت هيلين، والله هالمجنونات السّقَط مدلّلات أكثر من الصّاغ!*
- والله يا خانم لا تشعرين بأنّهن مجنونات أبداً، إنّهن غير مؤذيات، ومنهنّ صبايا صغار، أو سيّدات كبيرات في السنّ. واحدة منهنّ كانت تحكي لي حكايات مبهرة من ألف ليلة، عن بلاد الأميرات والغيلان، وحكت لي حكايات جميلة جداً عن سندباد؟

- سندباد؟ هذه لم نسمعها!
- سندباد، تاجر شاب من بغداد، يسافر إلى بلاد عجيبة اسمها واق الواق... قالت إنّ أباها كان يحكي لها هذه الحكايات، وكان صديقًا لحنّا دياب نفسه، ودخل معه في تجربة رهبانيّة قديمة في طرابلس، لكنّهما تركاها، وعادا معًا إلى حلب! هذه البنت تحديداً ليست مجنونة، بل حزينة، لو ترين كم هي جميلة، لكن قالوا إنها جنّت بعد موت أبيها، ورحيل أمها لبيت زوجها الجديد. إنّها تردد أحيانًا الحكايات بلا توقّف، وتصرخ إذا أوقفتها، وما أن تبدأ بالحكي، حتى تبقى تسرد كلّ ما تعرفه، وإذا أرادوا إيقافها تصرخ بلا دموع وتتشنّج، ثمّ نقوم بإدخالها إلى غرفتها وتقفل الحارسة عليها بابها. في اليوم التالي تبدو صامتة وشاحبة وترفض تناول الطعام.

كانت ميسّر تحكي لهنّ مشاهداتها الحقيقيّة، إذ كانت تطلّ بين حين وآخر، حين يدعوها الملل، على ذلك الجزء من البيمارستان، على الرغم من تحذيرات باتريك لها.

- حاولنا زيارتك، وقيل لنا إنّ ذلك يعرّض كلاً من والدي والطبيب إلى المساءلة، وكلّها يومان وتعودين، وبخاصّة بعد حادثة القنصلين، وتكثيف الحراسة.

قالت ميسّر في سرّها: إن شا الله لا!

قالت هيلين: سمعت من الحكيم بابلو، الذي كان يعمل في مستشفى أوتيل ديو في باريس، قبل التحاقه بالبعثة هنا، أنّهم كانوا يجمعون المجانين والمرضى في سفينة بلا ربّان، ويدفعونها إلى النهر كي يلاقوا

مصيرهم، وقديماً كانوا يحرقونهم أو يقتلونهم بطريقة ما، لأنّ في وجودهم خطراً على الخلق. إنهم لا يشعرون ولا يعرفون ما الذي يدور من حولهم، فقد يرتكبون الجرائم، وحتى الملوك منهم أو أفراد من العائلات الحاكمة يلقون مصيراً مماثلاً لكن بشكل سريّ، وكنت أتخيل أنه يمكن لهم أن يفعلوا ذلك هنا في نهر قويق، لكن لا تجري فيه سفن كبيرة كالتي شاهدتها في نهر برينتا أو في السين!

قالت فتوح: أنا لم أفكّر بتاتاً في المجانين، كنت أرى بعضهم في سوق إسطنبول الطويل، وحينما كنت طفلة، كنت أظنّ أنّ الدراويش مجانين، حتّى اكتشفت وهمي. لعلّي لم أر مجنوناً حقيقيّاً سوى حسن القزّاز!

ضحكت فتوح بشيء من الحسرة، وضحكت معها الصاحبتان بشيء من المجاملة، وقد بدت عبارتها بالنسبة لميسّر سمجة، ففتوح، من وجهة نظرها، لا تني تظلم ذلك الشاب العاشق الذي لن يجود الزمان عليها بمثله.

أرادت فتوح أن تسألها عن الطبيب مرّة ثانية وثالثة، حتّى تسكن نفسها، وفعلت، فأجابتها ميسّر:

- رأيته فقط في المرة الأولى التي أخذني فيها من السرايا، ومرة حين مرضت فعايناني، واليوم حين طلبت منه الإذن للخروج.
- كلّمته؟ كيف سمح لك بالخروج؟ هل حكيت له حكايتك، وكتبت له في الرقاع، أعرف أنه يحب الكتابة والأحاديث...
- لا، لا ليس ثمّة مجال لذلك، هو مشغول دائماً، ويقيم في مكان قصيّ لا يسمح لأحد بالاقتراب منه. وحين طلبت أن أكلّمه لم

ينظر حتّى إلى سحنتي، إنه متحفّظ جدّاً، وربّما يخاف من النساء، أعتقد أنّه جبان!

اطمأنت فتوح، وقالت في سرّها، إنّ ميسّر ربّما لم توفّق حقّاً باقتحام باتريك بسبب الظرف الذي هي فيه، أو بسبب حرص باتريك الشديد على تقاليد الهيئة الاجتماعيّة في بلاد الإسلام، والتزامه بالمواثيق الطبيّة، أمّا في غير ذلك، فهي تعرف جيّداً أنّ غياب النساء من حياة الرجل يجعله يقع في شرك أقلّهنّ، كما أنّها تعرف أنّ جارية بعقل فرعونة مثل ميسّر، لو شاءت التقرّب منه لجعلته يتزوّج بها، ويصير خاتماً بإصبعها.

لم تسألهنّ ميسّر عن الأخبار خارج معتقلها، وعمّا إذا سمعن شيئاً حول عودتها إلى البيت، وإذا ما كان هناك من يسعى لذلك، إذ لا تريد لهذه السيرة أن تنفتح أمامها، بل تريد أن يطول الحلم، فلا تستيقظ منه.

تعرف ميسّر أنّها قد حجزت مكاناً ولو صغيراً في نفس باتريك، لكنّه يكفيها، ولن ينازعها عليه أحد، لأنّ ما بينهما قد وقع فعلاً، ولأنّه سريّ جدّاً، ولا يهمّها إن كان الطبيب سيستبقيها أم أنّ لقاءهما هو مجرّد حالة عابرة صنعها القدر، وسيفكّكها بعد حين. تحاول أن تقنع نفسها بأنّها ستكتفي بشعور الاطمئنان والحماية الذي يمنحه وجود باتريك، فهي لا تستطيع أبداً أن تطمع أكثر من ذلك، وكانت تقول في نفسها: على المرء، كي يستطيع مواصلة العيش بكرامة، أن يعرف حدوده، لكنّها في الحقيقة خبّأت كنزاً من السعادة في مكمن عميق في قلبها، سعادة تعرفها للمرّة الأولى في حياتها، منحها إيّاها هذا الطبيب الذي يعرف كيف يداوي الروح والجسد على حدّ سواء. بالنسبة لباتريك فلا حدود له مطلقاً، مثله مثل الوالي، أو القنصل، أو السلطان، أمّا هي فعليها أن تتوقّف عن التفكير، بل

على خيالاتها ألا تتجاوز الحدود، فهو لن يكون لها أكثر من تلك الليالي التي لم تكن لتخطر لها في بال، حتّى إنّها تشكّ كثيراً في أنّ الأمر لم يكن حقيقة، وأحياناً تتمنّى ذلك فما حصل لها مع الطبيب لا يتّفق وحكمتها، ولا يجب أن يكون تعويضاً عن معاناتها، وإن كانت الغواية قد أخذتها من حالها مرّة، فالحكمة تقول إنّ هناك أحداثاً يجب أن نمنع أنفسنا من استعادتها حتّى حين نغمض أعيننا لننام، علينا أن نحرقها بنيران النسيان كأنّها لم تكن.

***

بدأت زوجة اللبابيديّ بوضع الضيافات أمام المجتمعات، اللواتي يحببن زيارتها لعطائها، ولطفها، ولمدى الأنس والبساطة التي تبديها وقريباتها تجاه الجميع، بساطة مجبولة بالكرم والعفويّة. لم يكن بيتها باذخاً لكنّه في منتهى النظافة والترتيب، وفيه كلّ شيء منظوم بفنّ وذكاء: صواني الطعام النحاسيّة كلّها مبيّضة وتلمع لمعاناً، ورائحة الطزاجة في الخضار والفاكهة تملأ الجوّ، وحين فردت الصبايا مفارش السفرة المصنوعة من الكتّان المصريّ الأبيض، فاحت منها رائحة مسحوق الملح وزيت الصنوبر. لم يكن هناك كبب أو لحم مشويّ، لكن صفّت زوارق (الإيج) تزيّنها شرحات البندورة والنعناع والبقدونس، وفاحت رائحة دبس الرمّان وزيت الزيتون، ثمّ وصلت صينيّة هائلة قلبت فوقها لفائف اليلنجي المحشوة بالأرز والخضار مثل تلّة، وتحته الباذنجان المحشو، وبدا مهرجان الألوان شهيّاً، فالعين تأكل قبل الفم، وجاءت طاسات لبن العيران الصغيرة، طاسة لكلّ ضيفة، ودار الهرج والمرج

والضحكات، وكانت السفرة كما قالت فتوح: *والله أطيب من سفرة الوالي! يسلمو هالإيدين، شقدّك متقّنة يا أم نجاتي!*

يبدأ البرنامج الترفيهيّ فتقوم الصبايا، ويتمايلن على الألحان التركيّة الراقصة لمعزوفة إسكودار بجذوعهنّ الليّنة، ويحرّكن الأذرع عاليـاً، فيبدو البياض ناصعاً مع رنين الذهب، والامتلاء الذي لا يمكن إنكاره في المتزوّجات حديثاً، وثنيات اللحم في زنود النساء الوالدات، ويرددن ما يحفظن من الأبيات التركيّة الممزوجة بالكلمات العربيّة لموسيقى (نيفا كار) لمصطفى عطري، ومقطوعات من (الرست ساز سيمايسي)، وقد غيرن مفرداتها بما يتّفق مع أجوائهنّ الصاخبة... ثمّ يشتدّ الرقص مع تسارع الإيقاع، وتدخل الأغاني في حالة من الفحش، فتوصف أجزاء الجسد مع الإشارة إليها، وتبدأ امرأة مسنّة بقرص النهود، والأفخاذ، والمؤخّرات للصبايا اللواتي يهربن من بين يديها، وهنّ يتدغدغن ويضحكن، وتصطدم إحداهنّ بالأخريات، وتتعالى القهقهات حتى تدمع العيون، لتصيح امرأة وهي تكاد تموت من الضحك: *"شخّيت ويَ عليكون شخّيت!"*، وتسحبها صاحباتها باتّجاه المرحاض البعيد، وقبل أن تصل تكون قد أفرغت جزءاً من مثانتها في الطريق. ثمّ تبدأ الفقرة التمثيليّة، فتصيح واحدة من بنات الخالات معروفة بجرأتها وخفّة دمّها: الآن ندعوكنّ إلى مزاد الليلة، فتخفت الضحكات قليلاً، وتمسح الدموع السوداء، من الكحل الذي سال على الخدود الورديّة، لتنصت النساء بانتظار بدعة جديدة، حيث تقف امرأتان على مصطبة الليوان، وتُعزف موسيقى سلطانيّة، وترفعان بين أيديهما قطعة من القماش الأبيض مفرودة، ويتدلّى منها حبل طويل، وتبدأ النساء بالهمز واللمز ثم تعلو

الصيحات والأسئلة: إشّي هي لك خيت. فتصيح التي تدير المزاد: مزادانا الليلة على سروال الوالي، وتفقع القهقهات بين الجالسات، إذ يكون السروال المحمول لأحد الذكور في الدار:

- *الله يهدّك يا فلانة، شقدّك آفة.*
- *ولك لا يكون هدا لأبو نجاتي!*

تبدأ المتكلّمة بوصف السروال ودكّته، والحديث عن مزاياه، وكيف يمكنه أن يغطّي خصيتي الوالي الكريمتين، ويؤثّر على القرار السياسيّ في حلب المحروسة، وذلك في محاكاة فريدة لحادثة المئزر التي عرفتها النساء من رجالهنّ، فحاكينها في مجالسهنّ.

تنتهي الجلسة بالصواني التي تصطفّ فيها زبادي حلوى المبطّن المصنوعة من الحليب، والنشاء، والسكّر، وشراب البرتقال، وماء الزهر، ويَنْفَضُّ المجلس بمنتهى الحبور، لتعود النساء عبر السطوح إلى منازلهنّ. أمّا النساء البعيدات اللواتي أوصلهنّ رجالهنّ بالعربات متنكّرات بأزياء الرجال، فيخرجن أيضًا بالطريقة التي وصلن بها، ومنهنّ من ستقضي ليلتها مع قريباتها في بيت اللبابيديّ، ولاسيّما الأخوات والخالات، في زيارة قد تطول لأكثر من عشرة أيّام، يكون بعدها القرار قد صدر بعودة الحريّة لحركة النساء.

* * *

تجلس فتوح العارفين في غرفتها الباذخة المخصّصة لها في جناح الضيافة في دار الجوهريّ، تفكّر فيما انتهت إليه، وفي نفسها حسرة وغمّ، إذ صارت في العشرين وليس لها رجل، ولا ولد، ولا تلد، وبدأت تخشى

القادم. أدركت أنّ ما كانت تظنّه من أنّ العالم في يدها، كونها ولدت وفي فمها ملعقة ذهب، هو وهم، وأنّ الدنيا تسرقنا وتأخذ ما نظنّه أبسط حقوقنا، وأنّنا قادرون عليه، ولا تعوّضه. فكّرت بأنّ هذا ليس موضعها، فقد نشأت على محبّة العلم، إذ تربّت في بيت علم، وتزوّجت بعالم، ولم تخلق عبثًا. كان عليها أن تسمع كلام ميسّر وتتزوّج بحسن القزّاز، لكانت الآن أنجبت منه واكتمل جسدها بالولادة، وقرّت عينها بالذريّة، بدلاً من أن تترك ملكها لإخوتها، وأخواتها، وأبنائهم. وتذكّرت المحسنات من النساء القواعد اللواتي عرفتهنّ، وأعجبت بطريقتهنّ في الحياة، وعطائهن للمحتاجين والمستضعفين، ويمكنها أن تفعل مثلهنّ: ماء الحياة خانم باقي زادة، وناجية قطراسي آغا، وغيرهنّ، لكن لم، وهي لها هذا الحظّ من الجمال والحضور، تقعد في حلب؟ من أجل باتريك الإنجليزي المشغول مرّة بميسّر، كما يقول لها حدسها، ومرّة بالدوقة الإنجليزيّة، وثالثة ببنت أحد القضاة من مريضاته! لقد فقدت هنا حتّى شغفها بالتدريس، فكلّ شيء محدود، وضيّق، ويبعث على الملل، في حين كانت في عاصمة الدنيا، وتحت طلبها السادة والأكابر من آل عثمان، إلى قناصل بيرا، وصيارفتها، وتجّارها، وكان يمكن لها أن تكتفي عن الدنيا بالنزهة في قارب في البوسفور. كم اشتاقت للامتداد الأزرق الحر، وللنوارس تحطّ على الصخور وسفوح الموج! وعلى الرغم من أنّ عامًا لم يمض على مكوثها في حلب، لكنّه حافل بالأحداث التي استنفدت مشاعرها: حكاية حسن المجنون، وتحميلها مسؤوليّة هجرته، وباتريك الذي لم يهتمّ لعودتها إلى حلب، وكأنّها لم تكن سوى مريضة عالجها يومًا كما عالج العشرات غيرها، ثمّ ميسّر وحادثة توقيفها وغيابها في البيمارستان، وحتّى

اللقاءات في بيت هيلين توقّفت، أمّا الأمانة التي حملتها معها فلم توصلها بعد إلى أصحابها، وذلك بسبب الفرمان الذي صدر بعد حادثة الوالي وميسّر بمنع خروج النساء من البيوت، والذي كان بالنسبة لها في منتهى السخافة، حيث لم تسمع في إسطنبول أنّ السلطان يمكن أن يفكّر في فعل ذلك، وكيف يمكن أن تسري أحكام على الكلّ ولا تسري على الجزء، وكيف يتقبّل الناس ذلك من غير اعتراض أو احتجاج! وبات يلحّ عليها سؤال جديد: من أنا؟ وكيف أنّني هناك في قصر أمّي غيري هنا، أفكاري ولساني، وضحكي، ولعبي كلّه مغاير، وما يجوز ولا يجوز، حتّى طقوس عبادتي هنا مختلفة عمّا هي في العاصمة!

"نحن ساهرون، ومصابيحنا مشتعلة"

انتهت فتوح إلى حيّ الصْلَيْبَة الجديد خارج الأسوار، وقد توقّف العربجيّ أمام رحبة واسعة، وناولها الرزمة الملفوفة بطرحة من الورق النيليّ، وقال: هذا هو تجمّع الكنائس الجديد يا خانم، هنا أكثر من منشأة، ويمكنني أن أسأل عن المكان الذي تقصدين! فرفعت يدها إشارة إلى عدم رغبتها في تدخّله، وطلبت إليه أن ينتظرها ريثما تنهي عملها في الداخل.

كانت تقف، على مساحة أفقيّة واسعة، ثلاث كنائس متجاورة، تعلو أسوارها أشجارُ الكينا ذات الرائحة الواخزة، التي يصنع الرهبان من أوراقها عقاقير تهدّئ السعال، وتشفي من نزلات البرد، ومراهم تخفّف آلام الكدمات والتهابات المفاصل.

واجهتها الكنيسة الكبرى، وقد منحتها حجارتها الصفراء الكبيرة، مهابة. دخلت من قوس واسع يفضي إلى إيوان، في صدره باب كبير، وقد نُقِشتْ في الحجارة حوله صلبان ذات نهايات ملتفّة على ذاتها، وتحتها كتابة بحروف غير عربيّة. دقّقت فتوح فيها، وعرفت أنّها لاتينيّة! خطت نحو الداخل، فوجدت نفسها في قاعة فسيحة مضاءة بنور الشمس المنسرب من الطاقات العلويّة، حيث قبّة السقف الخشبيّة العظيمة. مشت في الممر الذي يتوسّط مقاعد العابدين، على بلاطات من الرخام

الشطرنجيّ، ورفعت يشمكها، لتواجه المائدة المقدّسة، وجرن المعموديّة. كانت تظنّ أنّ كنائس إسطنبول هي غاية الجمال في الدنيا، إلى اللحظة التي استوقفتها فيها اللوحة المرسومة في الجدار عن يسارها، فقطعت المقاعد باتجاهها، ووقفت تتأمّل جلال ألوانها اللامعة والنافرة: الأحمر، والأخضر، والذهبي، وراحت تقرأ التوقيع أسفلها:

"وكان المجتهد بعمل هذه الدينونة المكرمة المقدسي كركور الشماع ابن المقدسي كرابيد بالمقام الكهنة المسيحيين إلى كنيسة الأربعين شاهد المعظمين في مدينة حلب المحروسة، فيسأل كل من نظرها يترحم علي والديه ويطلب له المغفرة من الله تعالى وذلك بتاريخ سنة 1708 المسيحية صورها بيده الخاطئة قسيس نعمة الله ابن خوري يوسف المصور وابنه حانينا فيسأل كل من نظرها يدعو لهما بالغفران وذلك في تاريخ 7216 لأبينا آدم عليه أفضل التحية والسلام."

فهمت فتوح مغزى اللوحة: إنها أيقونة تمثّل يوم الدينونة، في أعلى القنطرة يقف السيّد المسيح عليه السلام وعائلته، وتحته التلاميذ والقدّيسون، ويبدو هؤلاء خارج الحساب، ثمّ يقف ميزان واضح الكفّتين، وهناك نهر أحمر لعلّه يفصل بين الخطّائين والتوّابين، وفي الدرك الأسفل هناك المغضوب عليهم والضالّون، منضمين معًا، وقد وقف على رؤوس بعضهم الشيطان، والتفّت حول أجساد بعضهم الآخر أفاع عظيمة تنهش لحومهم، وقد كتب تحت كل زمرة منهم عبارة تفصح عن نوع معصيتهم التي يعاقبون عليها، فكتب تحت صورة إحدى الزمر: هؤلاء الظلمة، وتحت أخرى: هؤلاء المتكلمون في أعراض الناس، وتحت ثالثة: هؤلاء المتكبرون...

في غمرة انشغالها في التفسير، فتح باب داخليّ وهبّت منه نسمات ربيعيّة لطيفة، انتشرت معها روائح زيت الميرون التي يختزنها الخشب مع كلّ طقس يستضيفه المكان، واقترب من فتوح شمّاس مكتهل بثوب أسود بسيط، وقلنسوة مشغولة بصلبان صغيرة، فأسدلت يشمكها من جديد، لكنّها عاودت رفعه وهي تفكّر بعدم جدوى أن تفعل ذلك في بيت الله، حيث لا أحد يختلس النظر إلى أحد. تكلّم إليها الشمّاس بلغة غير عربيّة، فردّت عليه بالتركيّة، وسألته عن الأب يوحنّا، أبطأ قليلاً وهو يفكّر، ثمّ أشار عليها أنّها ستجده في كنيسة الموارنة المجاورة. شكرته وهو ينحني أمامها مودّعاً، وخرجت من الباب الذي دخلت منه، فشوّش نظرها نور الشمس بعد العتمة اللذيذة. مشت باتجاه الساحة، ونقلها زقاق صغير إلى حديقة واسعة، أرضيّتها من المرمر اللامع، ومزروعة بأشجار الصنوبر، وورود الجوري الحمراء والبيضاء، وكانت روائح الشجر النديّ تملأ الفضاء، وكان صبية صغار يشربون الماء من قسطل صغير إلى جانب الزريعة التي تتوسّط الباحة، وآخرون اجتمعوا تحت شجرة لوز قد أثمرت، ويضربون أغصانها بخيزرانة، وقد فرشوا تحتها شرشفاً، وصاقب أن خرج أحد الشمامسة بمسوحه البنيّ وراح يزجرهم، واقترب منهم فتفرّقوا وهربوا إلى الأروقة، وهو يطلب إليهم أن يعودوا إلى حلقتهم الدرسيّة. سألت فتوح أحد الأولاد الذي عرض عليها خدمته عن المكان الذي هي فيه، فأجاب: كنيسة الموارنة يا خانم، والتي على اليمين للأرمن، وتلك للروم. سألته عن الأب يوحنا، فأشار إلى أنّه في الداخل، وعنده درس.

أخذت طريقها بخطوات رزينة أرادت بها أن تهدّئ من روعها في دخولها إلى مكان غريب، تطؤه للمرّة الأولى وتقابل أهله. كانت قد

زارت مراراً كنائس القسطنطينيّة، دخلت (آيا إيرين) القريبة من قصر والدتها في توب كابي، وكنيسة (القدّيس أنتونيو الورديّة)، وذلك في مناسبات عدّة، كاحتفالات السفارات، وزواج أصدقائها من الخاصّة، لكن في حلب، لم تكن تعرف إذا ما كان مسموحاً لها أن تدخل هذه الأماكن من غير تحفّظات على لباسها وملّتها. دفعت الباب الخشبيّ الثقيل بإحدى يديها، فوقعت عيناها مباشرة على البلاط الملوّن اللامع الذي تزدهي به أرضيّة الصالة الواسعة، ثمّ امتلأ أنفها برائحة نفّاذة من البخور المشتعل، والعتاقة، والشموع المحترقة، وشعرت بقلبها يرتجف وهي تنظر فوقها نحو الأقواس المتلاحقة التي تسندها كلّ حين أعمدة متقابلة من الرخام الأصفر على جانبيّ الممرّ الطويل، حيث تنقسم صفوف مقاعد الخشب يميناً وشمالاً. كان أمامها باتجاه المذبح نوافذ صغيرة عالية تنفذ منها أضواء مؤنسة، فرأت في الصفوف الأماميّة بضعة أشخاص، نساء في مكان ورجال في الطرف الآخر، وكان صوت واثق وشابّ يتهدّج بلغة عربيّة فصيحة لم تسمعها مطلقاً في أيّة كنيسة عرفتها، فكلّ ما سمعته من رجال الدين المسيحيّ كان باليونانيّة غالباً. جلست وحدها في أول مقعد وصلت إليه وراحت تصغي، وقد رفعت عن وجهها يشمكها، وكانت ثلاث راهبات تصغين وقوفاً عند زاويتي المذبح تحت المصطبة، ويبدو أنهن تجرين على خدمة الكهنة العاملين، فيما بدا لها أنّ الدرس موجّه للرعيّة. كان الكاهن الشاب يلقي عظته مرتدياً ثوبه الأسود. له هيئة مهيبة، ولحية سوداء تغطّي حنجرته، ويتدلّى في رقبته صليب فضيّ كبير، وعلى رأسه قلنسوة، كان يقف هادئاً بتواضع العارفين بين يديّ الرعية، ويقول:

"هل ترغب في تكريم جسد المسيح؟ لا تتجاهله عندما يكون عاريًا. لا تعطه الإجلال في الكنيسة بينما ترتدي الحرير، وتتركه في الطرقات يعاني البرد بثياب بالية. إن الذي قال «هذا جسدي»، هو نفسه من قال «جُعت فلم تُطعموني»، وقال «كل ما فعلتموه بإخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم». ما الفائدة من تناول الأسرار المقدسة، على مذابح يزينها الذهب، بينما يموت أخوك جوعًا؟ فلتبدأ بسدّ جوعه ويمكنك بعد ذلك تزيّن المذبح بما تبقى".

تأمّلت فتوح قناديل النحاس الباذخة، والذخائر المعلّقة على الجدران في لوحات محفوظة بأغطية من الزجاج، وفيها، كما توقّعت، قطع من أرديّة القديسين، وربّما من كفن السيّد المسيح كما سمعت من هيلين، ومنها ما هو موضوع في صناديق على رفوف حجريّة في الجدران، وقد علّقت أيقونات لا يشبه فيها السيد المسيح وأمّه العذراء وبقيّة القديسين تلك الوجوه التي تتذكّرها من كنائس إسطنبول، وجوههم هنا قريبة جداً من وجوه البشر الذين تعرفهم، لكنّها متوّجة بهالات النور الذهبيّة، ممتلئة نظراتها بالمكابدات التي تمنحها ذلك الجلال الأخّاذ.

حين أنهى القسّ خطبته وانفضّ الناس من حوله، تحرّكت نحوه بين إقدام وإحجام، لكنّه سعى إليها بتؤدة، وكان ثوبه الذي بدا لها ثقيلاً يصدر صوت احتكاك عال، وهو يتثنّى بين ساقيه ليبدي تحته قنبازاً داكناً كالذي يرتديه عامّة الرجال في حلب، ممّا أطلق في نفسها فكرة ذلك الجزء الدنيويّ من شخص هذا القسّ الذي يمكنها أن تراه رجلاً، لكنّه بالتأكيد ليس كغيره من الرجال، وراحت تنشغل بهذه الفكرة، ريثما يصل إلى حيث تقف، ليقول:

- هل أخدمك بشيء يا ابنتي، مرحبًا بك!
- أنا فتوح العارفين، جئت لأوصل هذه الأمانة لمكتب المطران جرمانوس فرحات.

مدّت فتوح يديها بحزمة الكتب، وقدّمتها له، فتناولها، ومشى خطوتين ليركنها على سطح خشبيّ مثبّت على الجدار الجانبيّ، وُضعت عليه كمشة من الشموع الصغيرة الجديدة، وراحت فتوح تحدّثه وهو يفكّ خيط القنّب:

هذه كتب ثلاثة خطّها المرحوم زوجي الشيخ موسى، الذي عمل معلّمًا للخطّاطين في مدرسة سنان باشا في إسطنبول، وكانت قد وصلته دعوة قبل سنوات عديدة ليخطّ نسخًا نظيفة وواضحة من الكتب، حتّى تقدّم للطباعة في إسطنبول، وذلك مشاركة منه في إغناء المكتبة العربيّة التي أنشأها المطران جرمانوس فرحات في الكنيسة المارونيّة في حلب، وأظنّ أنّها هنا في هذه الكنيسة. وقد اختار الشيخ موسى من جملة الكتب المقترحة أن ينسخ مؤلّفات ثلاثة ليوحنّا فمّ الذهب، وقد حصل عليها من مكتبة الكنيسة الأم في أنطاكية حيث وجدت النسخ الأصليّة، وقد عاونته في نسخ صفحات كثيرة، مساهمة منّي في الحصول على أجر الكتابة بالعربيّة، وفضل تأسيس مكتبة عظيمة في حلب، وستجد أنّ الخطّ سيختلف بين رسمي ورسم الشيخ، وأنّه قد وضع اسمي على النسختين الأوليّتين فقد راجعتهما معه أيضًا، في حين لم يتسنّ له إكمال العمل على الكتاب الثالث، إذ وافته المنيّة، وقد أكملته أنا بخطّي وحدي.

كان القسّ يستمع إلى فتوح باهتمام شديد، وقد أدهشه أن يجد سيّدة بمثل هذا التفتّح والعلم، ولها هذا القبول في النفس، وأن تكون مسلمة

تتجاوز محظورات المجتمع تجاه ملّة غير ملّتها، وتنسخ كتباً ليست من دينها أو من مكتبتها، فردّ عليها: منذ أن دعا نيافة المطران إلى تأسيس مكتبة عربيّة إلى اليوم، ما زالت تهلّ الكتب على كنيستنا من كلّ يد مباركة في أصقاع المعمورة، وإنّ شراكتك في ذلك يا خانم شيء عظيم، سيحفظ لك إلى نهاية الدهور، فلتبارك يدُ الإله يدَكِ الطاهرة، وليغفر لزوجك الشيخ ويجعله مع القديسين والأصفياء.

كان الخوري يتصفّح الكتب بإعجاب، وهو يتأمّل الرسم البديع، والألوان الثابتة على الصحائف المصقولة والمسطّرة بالأزرق والذهبيّ: لو رآها سيّدنا لامتلأ غبطة وسروراً، لكنّه في سفر بعيد، وحين يعود سيسعد بمعروفكما ويمتنّ. إنّ ترجمات يوحنّا فمّ الذهب إلى العربية نادرة، وقد صار لدينا الآن مكتبة ضخمة سأريك إيّاها بعد أن تأخذي ضيافتك، تفضّلي إلى الحجرة على يمينك، لدينا كعك صياميّ لذيذ صنعه الآباء بأيديهم، من السميد وزيت الزيتون، كما تعلمين نحن في فترة الصيام.

- نعم أعرف يا أبونا، صيام مبارك إن شاء الله! لكن عليّ أن أذهب فعربتي تنتظرني ولا أريد أن أتأخّر.
- وهل قدمت من إسطنبول؟ أنت حلبيّة، أليس كذلك؟
- نعم، أنا من العقبة، ووالدتي تركيّة.

سكت الخوري، حيث سكتت فتوح، ولم يرد أن يزيد في تطفّله، فلعلّها لا تريد أن تفصح عن اسم عائلتها، الذي لم يدوّن كما لاحظ في مفتتح النسخ التي اطّلع عليها في عجالة، إذ وقّعت باسم فتوح العارفين زوجة الشيخ موسى...

لكنها أردفت:

- هل يقرأ رعايا الكنيسة الكتب بالعربيّة؟ أم بغيرها ربّما السريانيّة أو اللاتينيّة كما أعرف؟ أنا لم أسمع الكتاب المقدّس يقرأ من قبل بالعربيّة!
- طبعاً تقرأ الأسفار بالعربيّة، نحن هنا نقرأها بالعربيّة، فنحن أوّل من سجدنا للمسيح يا ابنتي، وملوك العرب من أهل مدين وسبأ أوّل من قدّموا له الهدايا بعد مولده، فقد كان ملوك المجوس من العرب كما تقول الروايات الأولى. لقد تكلّم رسل يسوع بلغات مختلفة، وكان بطرس فم الجميع، وهو أوّل رسول للعرب، ومن علّمهم بطرس في أورشليم هذّبهم بولس في بلاد العربيّة، فقد آمن بالمسيح في دمشق، ثمّ مضى بالرسالة إلى البلاد العربيّة قبل أن يصل أورشليم. ثمّ جاء تادي الرسول إلى سورية وما بين النهرين، وبعده ماري الرسول الذي بشّر العرب الرحّل واليمانيّة.

كان العرب يتلون الفروض الإلهيَّة، ويرتِّلون الميامر والمزمورات، ويتمِّمون الليتورجيّات، وليس ثمّة من يجهل أنَّ قراءة الكتاب المقدَّس أخصّ جزء من هذه الفروض، ولذا يلزم أن تكون عند العرب الأسفار المقدَّسة بلغتهم منذ أجيال الكنيسة الأولى، وإن لم تدَعْها صروفُ الزمان ونكبات المشرق أن تبلغ إلينا! ولك أن تعرفي أنّ أقدم نسخة وجدت قبل ميلاد النبيّ محمّد، وفيها حوالي ثمانمئة آية كانت مفقودة في سفر أيوب، وقد ردّها مترجمو النسخة العربيّة. وبعد مجيء الإسلام، طلب القائد عمرو بن سعد بن أبي وقّاص من البطريرك السريانيّ الأرثوذكسي يوحنا

السدر تلميذ أثناسيوس في 639 للمسيحيّة، أن يترجم الأناجيل الأربعة عن السريانيّة إلى العربيّة. ثمّ ظهرت، كما عرفنا، ترجمة في إسبانيا في حوالي 717 للمسيحيّة، صنعها أحد الأساقفة قبل انتقال العرب إليها. ولمّا انتشر الإسلام في سورية، وفلسطين، ومصر، تعدّدت الترجمات، بعضها عن السريانيّة وبعضها عن اليونانيّة حسب موقع المترجمين وثقافتهم وملّتهم. كما أنّ اليهود قبل مئتي سنة طبعوا العهد العتيق بالحرف العربيّ في إسطنبول. ولدينا الآن أشهر نسختين، وهما السكندريّة وقد صنعت في مصر، وهي عن اليونانيّة، والأنطاكيّة وقد صنعت هنا في سوريا وهي عن السريانيّة. وتوجد نسخ منهما في مكتبة الفاتيكان في رومة، ترجمهما إلى اللاتينيّة أحد مطارنتنا الموارنة، وهو سركيس الرزيّ ريّس أساقفة دمشق والذي صار بطرك الموارنة.

توقّف الخوري يوحنّا قليلاً، وهو يعيد حزم رزمة الكتب، وكانت فتوح بحاجة لاستراحة لتنظم هذه المعلومات الجديدة في عقلها، وقد وجدت أنّها تتعرّف لأوّل مرّة على العرب، وعلاقتهم بغيرهم من خلال اللغة، لتكتشف كم فاتها من المعارف فيما يتعلّق ببلادها، أليست في جزء منها من هذه البلاد!

تابع الخوريّ حديثه: يوجد في أديرتنا أيضاً نسخ للعهد الجديد مكتوبة كتابة يد بالحرف الكرشونيّ، وهناك الآن طبعة عربيّة طبعت في لايدن في هولندا، عن نسخة قديمة جدًّا مجهولة المترجم، وطبعة أخرى أشهر، طبعت في باريس قبل حوالي مئة سنة، وهي أيضاً عن ترجمة بالغة القدم، وكانت من مقتنيات مكتبة العالم... نسيت اسمه! سفير إسبانيا لدى السلطنة... أوه: دي براف، فرانسوا دي براف.

لكن يا ابنتي نحن أردنا طباعة عربيّة عن أصول عربيّة، وإنّ مقارنة الترجمات ليست عمليّة يسيرة، ولاسيّما مع النسخ التي وصلت إلينا بلا مقدّمات، ولا تفاسير!

كانت فتوح قد جلست على مقعد أمام المكتب، تستمع باهتمام إلى كلام الخوري، لكنّ عينيها تتوهان في موجودات الغرفة الصغيرة من حولها، وقد وضع أمامها الكعك والقهوة، ولم تتناول منهما شيئاً بسبب الحرج، فهي لم تعتد أن تأكل أبداً أمام الغرباء من قبل في حلب. كانت معجبة بالتماثيل الصغيرة والصلبان المعدنيّة المنتصبة على الرفوف الخشبيّة، وبالجلود البنيّة والحمراء والسوداء لأسفار تصطفّ على أرفف مكتبة صغيرة مقابلة لمجلس الخوري، وأنّى التفتت كانت أمّ المسيح تنظر إليها في الأيقونات بحنوّ ورأفة. استصعبت فتوح كثيراً ممّا قاله الخوري أمامها، لكنّ مشاركتها الشيخ موسى في نسخ مدوّنات (فم الذهب) جعلت وقع الكلمات أليفاً في عقلها، ولم تُخفِ عن محدّثها اضطراب فهمها:

- لقد صعب عليّ فهم الكثير ممّا نسختُه، كما بدا لي أنّ ترجمة الكتاب العتيق والجديد ليست كباقي ترجمات الكتب، أظنّها عمليّة شاقة وطويلة، ولعلّ ذلك بسبب وجود نسخ كثيرة، ومترجمين كثر من كلّ لسان وملّة! لقد سألت صديقتي هيلين وهي نصرانيّة ومتديّنة، وتقرأ بأكثر من لغة وتكتب بها، عن أشياء جهلتُها، وبدتْ أجهلَ منّي بها!
- هيلين، وما هي طايفتها؟
- آآآ؟ كيف لي أن أعرف، هي من فلورنسا.

- إذن، كاتوليكية!

لوت فتوح شفتها لعدم درايتها، وأردفت:

- كيف يستطيع الناس فهم كتابهم مع هذه النسخ المترجمة كلّها؟!

- ها هاه! هنا تأتي أهميّة خطّة سيّدنا فرحات، لقد أراد للمؤمنين أن يقرؤوا كتابهم بلغتهم، وأن يعرفوا ربّهم بلغتهم. إنّ معرفة الناس لما لا تصل حواسّهم إليه بلغتهم يجعلهم أكثر إيماناً بوجوده، وأكثر اقتناعاً بقدرته، فالوصول إلى المجهول بمجهول هو وهم وضياع. لقد ترجم سيّدنا المطران الأناجيل الأربعة عن النسخة السريانيّة المطبوعة في روما، وجعل منها فصولاً في كتاب للقدّاس لخدمة كنيستنا، مقسّمة على أيّام السنة، والآحاد، والأعياد القمريَّة، والصوم. ليس هذا فقط، بل ترجم بقيّة أسفار العهد الجديد، وأسفار العهد العتيق، والرسائل المقدّسة لتتلى خلال أداء الطقوس، ولتَغْتنيَ كنائسنا بلغة أجدادنا، وتعطي الدين ذلك العبق الفريد، وتضيف على جلاله جلالاً. تلك هي رسالته المقدّسة، إيصال الحكمة والمعرفة إلى الناس باللغة التي يفهمونها، ويتكلّمون بها، فلا تكون كلمات الله غريبة عنهم، فيشعرون أنّه يخاطب كلّ واحد فيهم لأنّه يحبّه، وهو منه قريب.

انتبهت فتوح إلى مجلّد أسود الغلاف موضوع على سطح المكتب، وكعبه باتجاهها، فقرأت العنوان المرسوم بخطّ ذهبيّ: (باب الإعراب عن لغة الأعراب)، فبادرها الأب يوحنّا: هذا هو المعجم الشهير الذي ألّفه

سيّدنا الذي انطلق من خدمة الدين لخدمة اللغة العربيّة وأدبها، إذ اهتم بها، ووضع خططًا لتدريسها في المدارس، وكان قد درس أصولها على يد الشيخ الشهير سليمان النحويّ، لا بدّ من أن تكوني قد سمعت به!

هزّت فتوح رأسها بتأكيد وإعجاب، فتابع: وقد نظم بها الشعر، والميامر، والتراتيل، لتسري على ألسنة الرعيّة، في مديح ستنا مريم، وفي سرّ المعموديّة، وفي الزهد بدنيا البشر الفانية، ونحن هنا لحّنّاها، وتنشدها الجوقة في المناسبات:

لو كان للأفلاك نطقٌ أو فمُ لترنَّموا بمديحكِ يا مريمُ

ردّدت فتوح بصوت خفيض، كأنّها تلميذة:

لو كان للأفلاك نطقٌ أو فمُ لترنَّموا بمديحك يا مريمُ

ابتسم يوحنّا معجبًا، وأردف: وكان سيّدنا، في زيارته الى إيطالية وإسبانية وصقلية وغيرها من درر بلاد الدنيا، قد شاهد المكتبات العظام، فولدت لديه تلك الرغبة الصادقة في تكوين مكتبة مشابهة لها في حلب، فكرّس نشاطه المشهود لجمع مكتبة نفيسة، ستكون كتبكم جزءاً منها، وبذلك تساهمون معه في تقديم خدمات جليلة للغة وللآداب العربية.

فاتني أن أحكي لك عن المطبعة التي أنشأها هنا في حلب، وعن المدارس التي أقيمت ضمن خطّة جديدة، بحيث تستقبل الذكور والإناث أيضًا، وتعلمين يا ابنتي أنّ هذا كلّه لا يسرّ خاطر العصملّي، إنّهم لا يريدون أن تقوم للعرب قائمة، لذلك يحاولون وأد كلّ مبادرة طيّبة في مهدها، حتّى إنّنا نحن العرب، وأقصد رجال الكنيسة، قلّما نصل إلى رتب عليا، انظري إلى اليونانيين من كلّ طرف، تأتي ترقياتهم بغمضة عين. وتنهّد الأب فبان الأسى على ملامحه الجذّابة، وبدا بذلك أكثر أبّهة،

وعيناه السوداوان المتّقدتان معلّقتان بأمل كبير لا يعرفه سواد الناس. بدا مُجِلًّا لأستاذه، ومتمسّكًا بمهمّة رسوليّة، وحده يعرف مكابداتها، ثمّ عضّ على شفته السفلى وشاربه الأشهب فوقها، وعندها التقت نظرته بعيني فتوح، فأطرقت هي في الأرض أمامها، وهمّت بالوقوف: لقد تأخّرتُ يا أبونا، مازالت لديّ أسئلة كثيرة، لكن نؤجّلها إلى الجمعة المقبلة، أزور المكتبة وأتنعّم بمرآها، ونتمّ بقيّة حديثنا.

شكرها الأب يوحنّا على الهديّة القيّمة، والوفاء، وودّعها نحو الباب الداخليّ، وهو يتمتم: ربنا يباركك يا خانم!

***

تمنّت فتوح لو تستطيع أن تعمل مع الخوري يوحنّا وجماعته في المكتبة أو المدرسة، لكنّها تعرف أنّ ذلك مستحيل، وأنّ العمل محصور على الراهبات أو المتطوّعات من أهل الطائفة نفسها، ولا سبيل لمسلمة لأن تنخرط في مكان ليس مكانها، فلن يتقبّل ذلك أحد، لا القائمون على الكنيسة، ولا أهلها وجماعتها، فهذا لم يحدث من قبل، وهي ليست من النوع الذي يحبّ أن يكون علّة لمستحدثات الأمور التي لا سابق لها، فتتوجّه إليها الأنظار ويكثر عنها وعن ذويها السؤال. لكن منذ أن وقعت في يدها الكتب التي فيها جهود زوجة ابن عربي، وإهداءات النساء العباسيّات السَّريّات للمكتبات، شغفت بمثل هذا النوع من العطاء، ورغبت في أن تصير مثلهنّ، وقد فهمت الآن من يوحنا مسألة اللغة، ودورها في العلاقة مع ما يقدّسه المرء، وهذه العلاقة تمنح المعرفة، وليست للتباهي بكون صاحبها من الصفوة. فالعلم بالدين ضدّ الجهل، إذ

يجب على المخلوق معرفة دينه لأنّ في الأديان تثقيفاً بسيرورة الحياة، وتطوّر أدواتها، ومعرفة بكينونة الإنسان، وبرحلته التي يستكشفها من خلال أسلافه وأبنائه أيضاً، وهي ليست للتهذيب فحسب. أدركت فتوح بذلك أنّ جزءاً من إعجابها بهيلين نابع من معرفتها بحكايات دينها، وبلادها، وتقاليدها، وكذلك إعجابها بميسّر التي تدرك تفاصيل العالم الذي جاءت منه، وتحترمه وتعتزّ حتّى بجدّها الخان، وتقدّم له صورة ترضي انتماءها. صارت فتوح العارفين تفكّر في أنّها هي أيضاً مسلمة، ومن بلاد سوريا، ومن حلب، ومن أرومة عربيّة، وقد خطر في بالها حنّا دياب، إذ سمعته من تحت شباك حجرتها على المركب، يردّد مراراً سواء في حكايته، أم حين ينضمّ شخص جديد إلى حلقته، فيعرّف عن نفسه قائلاً: أنا مسيحي ماروني من بلاد سوريا، كان يقولها بتفصيل، وباعتزاز هزّ شروش قلبها.

كانت فتوح ترغب بشدّة في معاودة زيارة الأب يوحنّا، وكانت وهي في حجرتها في العقبة تستذكر طيب كلامه، بتركيبه الغريب على أذنيها أحياناً، وبلغته العربيّة الرائقة، التي تعرف مفرداتها تماماً، لكنّها لم تسمعها مسكوبة بهذا الإتقان من قبل، وكانت دعواته الجارية على لسانه، بحكم العادة، تشبه شبابيك فرج صغيرة للتواصل مع الله، فحين يقوم، أو يقعد، أو يتناول كتاباً، أو يأخذه بمشقّة كان يلمّ ثوبه بيد، ويحشره بين ساقيه، ويردّد: يا معونة النصارى، أو يا سلطانة، أو يا عزايم الله القويّة، ثمّ تغيب بقيّة العبارة على شكل تمتمة.

* * *

انتظرت فتوح إلى ما بعد العيد الكبير، ثمّ حملت في علبة من الخشب ملبناً محشواً بالجوز، ومصنوعاً من عنب كروم أبيها، وقد كان خدم المزرعة والمحصّلون يأتون بخيرات كلّ موسم ليتذوّقها أهل الدار والجيران، أو لتكون هدايا توزّع للأعزّاء، كما أخذت معها قطرميزاً من الجبن المغليّ والمكبوس بالماء المملّح مع حبّة البركة، وانطلقت نحو محلّة الجديدة، وقلبها ممتلئ غبطة وشوقاً للمعرفة، كأنّها ذاهبة إلى حلقة علميّة في أوربة، ولاسيّما أنّها عرفت من يوحنّا أنّه درس العلوم الكهنوتيّة في روما.

حين وصلت الباحة الواسعة عند العصر وجدتها مكتظّة بطفلات وشابّات رفقة نساء أكبر سنًّا، وكانت الصبايا يلبسن أثواباً متشابهة، طويلة، وواسعة بلون السماء، وقد أحيطت خصورهن بزنانير مجدولة ومعقودة وبيضاء، ووضعهن الأحجبة البيضاء على رؤسهنّ وأسدلنها على الرقاب والصدور، وحملن طاقات الورود بأيديهنّ، وانتشرن في الفناء مثل قدّيسات سماويّات هبطن على الأرض، ولاحظت أنّهن يتجهن نحو كنيسة اللاتين، وقد عرفت فيما بعد أنهن نذرن هذا اللباس لغاية في نفس كلّ منهن، واسمه لباس العذراء، وأنّ هذا الشهر معروف عند النصارى بالشهر المريميّ، ولاحظت أنّ مشهدهنّ يشبه صور العذراء في الأيقونات التي شاهدتها، بثوبها السماويّ الذي يبعث في النفس صفاء وطمأنينة.

قادها أحد الرهبان إلى المكتب بعد أن استلم الهدايا من العربجيّ وسلّمها إلى الأب يوحنّا، الذي هشّ للقائها وبشّ، واستقبلها بعفويّة كأنّها أخت غائبة، أو صديقة قديمة. بعد أن استراحت فتوح، تبادلا بضعة

أحاديث عن العمل اليوميّ في التعليم والرعاية، فسألته: ألم تكن نساء العرب تقمن بدور في خدمة الدين، كما فعلت هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين؟

- من دون شكّ كان هناك نساء عظيمات، ملأ الإيمان قلوبهنّ، ومنحهنّ الحكمة والشجاعة، في البدء كانت ماوية التنوخيّة ملكة العرب، من حلب، والتي حكمت في القرن الرابع لميلاد المسيح، وقادت ثورة ضدّ الرومان الذين سيطروا على سوريا، ووصل جيشها إلى حدود مصر، وقد اشترطت للهدنة معهم أن يعيّن الراهب موسى، وهو راهب عربيّ أرثوذكسيّ أسقفاً لشعبها بدلاً من الأسقف الآريوسيّ الذي فرضه الرومان، وكان لها ذلك.
- وهل أنت عربيّ؟ أم أنت ماروني؟

ضحك يوحنّا، وهو يحاول أن يوضّح:

- لا تعارض في أن يكون المرء عربيًّا ومارونيًّا، أو عربيًّا وأرثوذكسيًّا أو كاثوليكيًّا...
- وأنت ماذا تكون؟!
- أنا سريانيّ، من السريان العتق.
- إذن هذه ليست كنيستك؟
- لا، كنيستي تلك المتطرّفة باتجاه السوق، كنيسة الست العدرا، لكنني أقضي معظم نهاري هنا أدرّس السريانيّة للطلبة من الأطفال والرهبان، وذلك بناء على طلب قديم لسيّدنا فرحات، الذي سنّ أن تدرّس المدرسة المارونيّة اللغتين السريانيّة

مكتبة
t.me/soramnqraa

والعربيّة، فقد أراد أن يعرف الدارسون أصول العربيّة، يعني أن يأخذوها من راس النبع، من السريانيّة، التي هي لغة المخلّص، وبها تكلّم.

- وهل الفرق كبير بين الموارنة والسريان العتق؟

زفر يوحنّا بحسرة، وبدت على ملامحه ابتسامة لا تنمّ على ارتياح: لم يكن هناك فرق إلى ما قبل مئة وخمسين سنة تقريباً، أمّا الآن فالفرق كبير!

- لماذا؟

- لماذا! يمكنك أن تسألي سعادة الوالد، وابتسم.

امتعضت فتوح من الردّ، وشعرت أنّ الأريحيّة التي حلمت بها، وعاشتها في ظلال مودّة الخوري يوحنّا تنسرب للأسباب ذاتها التي تفقدها طعم السعادة كلّ مرّة. لكن ما علاقة والدها بموضوع عمره مئتا سنة!

- ما فهمت يا أبونا!

فأعطاها بإصبعي يمينه إشارة تدلّ على المال، وقال: فوق، جماعة دمشق وإسطنبول.

- إذن أنت تعرف المطران من زمان!

- إنّ علاقتي بسيدنا القسيس فرحات، واستقباله لي كابن، هي جزء من حنين الفرع إلى الأصل، لعلّه حنين إلى روح الشرق وفطرته التي وجدها سيّدنا في جذوري، ولساني، وكلامي، وفي قلايات ماردين وكنائس الرها. هو اشتياق إلى لسان المخلّص وعبقه، وقد يكون في ملامح وجوهنا، قبل أن يكون في ألسنتنا، وتحت عباءاتنا. وهكذا تماماً أجد حنينه إلى العربيّة أيضاً، فهو حنين إلى الأرومة والنسب، وإلى روح الشرق ورائحته.

- وأين هي المطبعة العربيّة التي جاءت هديّة من أمير بلاد الدانوب؟ هل هي هنا؟

كان يعقد كفيه وراء ظهره، وهو يمشي بخطوات تفصله مسافة عن فتوح بحيث يسمع صوتها الخفيض: تقصدين مطبعة البطرك إثناسيوس ابن الدبّاس. ليست هنا، فقد نقلها غبطته إلى دير البلمند بعد أن طبعت بها مجموعة من الكتب المهمّة الموجودة هنا في مكتبتنا. سأريك كتاب السواعي الكبير، وكتاب تاريخ بطركيّة أنطاكية، وكتب تعاليم عديدة أخرى. المطبعة أهداها أمير بلاد الفيلاخ قسطنطين لغبطة البطرك، بعد أن شرح له أنّ الشعب الأرثوذكسيّ يقيم شعائره بالعربيّة، وأنّ المدوّنات المقدّسة وكتب التعاليم شحيحة بسبب عدم توافر مطبعة عربيّة، فأمر الأمير بصناعة حروف طباعة عربيّة، وأهداها للبطركيّة.

فكّرت فتوح بأنّ المعارف التي تغيب عنها كثيرة جدّاً، وأنّ أسئلتها يجب أن تكون محدودة، وإلاّ ستدخل في تفاصيل مدوّخة تبدو بلا نهاية! استغلّت انشغال يوحنّا بالنظر في اتجاه الباب حيث اجتمع بعض الطلبة، وراحت تتملّى معالم وجهه، فلاحظت الأصالة في لون بشرته الحنطيّ، وآلام الهجرة والرحيل في حور عينيه، وصفاء لونيهما، وانغلاقة نهايتيهما بذبول تحت حاجبين كثيفين، ووجنتين مورّدتين، واعتدال في الطول والامتلاء. فكّرت أن تراه كرجل دنيويّ، وتساءلت في نفسها: كيف أَقدَمَ على الرهبنة ولم يتخذ له خليلة، وحكم على نفسه بالحرمان من الذريّة؟! لا تعرف كيف تجرّأت لتسأله، كيف أقدم على قرار الرهبنة! فضحك ملء قلبه، وأجابها بعبارة واحدة: بمجرّد أن يعلن المرء حبّه لله، ستذوب أيّة رغائب أخرى في ذلك الحبّ!

كانت فتوح العارفين بأمسّ الحاجة إلى هذا الحديث الذي يضيء عتمة العقول، وقد جاء في وقته، إذ لكلّ أوان حديث يبدّد الحيرة، ورسول من رسل المعرفة، قد يكون على شكل عثرة، أو كلمة، أو صفحة في كتاب، وقد يكون واحداً من بني البشر يظهر فجأة، ويقوم بدور قد لايعرفه في نفسه، ثمّ يمضي، لكنّه يكون قد منحنا مفتاحاً لأحد أبواب الحكمة، وعلينا أن نكون ممتنّين لهذا المنح.

لم تتبيّن فتوح تفاصيل الممرّ الذي قادها إلى سماويّة داخليّة تصطفّ حولها أبواب لحجرات عدّة، كانت تفكّر بكلام يوحنّا عن المطبعة والكتب، وقد بدّد ذلك التوتّرَ الذي شعرت به حين أشار إلى والدها. صعدت نحو مصطبة بعد أن دفع الخوري باباً خشبيّاً ثقيلاً أصدر أزيزاً، فقابلتها رائحة مختلطة من عبق الجلد المدبوغ، والصمغ، والنفط، والورق، وألفت نفسها في قاعة واسعة، ومضاءة بنور الشمس المنسرب من النوافذ الواسعة، وجدرانها مرصوفة بالمجلّدات على شكل رفوف من الأعلى إلى الأسفل، وفي وسطها طاولة واسعة، وفي صدرها كرسيّ كبير بظهر منجّد من الجلد الأسود، ومميّز عن باقي الكراسي المحيطة بأضلاع المستطيل الخشبيّ، وخلفه على الجدار في الفراغ المتّسع بين قسمين من الرفوف المتناسقة يوجد رسم للمطران الجليل فرحات كما كتب تحت الصورة: "جبرائيل بن فرحات آل مطر"، جالساً على كرسيّ يلبس لباس الكهنوت، الثوب الأسود بسجف بأزرار عند الصدر، وعلى رأسه الطيلسانة السوداء الكبيرة، وقد انحدرت منها طرحة سوداء تغطي جانبي الرأس. في صدره قلادة الصليب، متختّماً بخنصره الأيمن بخاتم بحجرة، وفي يده قصبة، وإلى جانبه على منضدة دواة، ويمسك بيسراه رقعة يسندها إلى

حجره، عليها كتابة يصعب على الناظر تبيّنها. يكاد الرسم ينطق بهموم القسيس الكبيرة، عيناه كعيون القديسين في الأيقونات الحلبيّة، حاجباه رقيقان أسودان، ولحيته قصيرة وشهباء ومشذّبة، تتصل بشاربين مرتّبين، ووجهه يجمع الرفق إلى الجلال والعظمة.

قال الخوري وهو يتابع نظراتها نحو الصورة: إنّ القسيس فرحات قد جاب مكتبات أوربة، ذهب إلى فرنسة وإسبانية، وأحضر معه مخطوطات كثيرة، وأشار إلى خزانة خشبيّة مقفلة على جدار جانبيّ، كأنّه يقول إنّها محفوظة هنا. حين نظرت فتوح إلى الطاولة الكبيرة، وجدت كتبها الثلاثة موضوعة فوق بعضها متخذة جانباً، كأنّها تستعدّ لتُصنّفَ، وترفع على أحد الرفوف، فشعرت باعتزاز وفرح لم تشهد لهما مثيلاً قبل هذه اللحظة.

وقف الخوري ينظر إلى طاولة جانبيّة عليها أوراق متفرّقة، أمسك إحداها بيده وغرق فيها، بينما تقدّمت فتوح نحو الرفوف وبدأت تتلمّس الكتب المرصوفة بيمناها، وقد غابت يسراها داخل ردائها إلى أن استعانت بها لتحرّك أحد المجلّدات، فشقّ عليها ذلك، وقبل أن تتركه، قرأت العنوان المحفور على كعبه: "دعوة الأطبّاء- ابن بطلان البغداديّ"، وحينئذ خطر لها خاطر ملأها حماساً، إذ انبثقت أمام عينيها صورة باتريك، فبذلت جهداً لتحريك المخطوطات، وسحبت الكتاب الصغير وبدأت تقلّب وريقاته، فوجدت رسوماً بألوان زاهية لمجموعة من الرجال، واكتشفت أنّ بطلي المخطوطة طبيبان أحدهما شاب والآخر عجوز، وخمّنت أنّها يمكن أن تقرأه وتحدّث باتريك عن محتواه، أو لو أمكنها أن تحمله إليه ولو دفعت فيه كلّ ما تملك. ثمّ تراجعت، فهي تعلم تماماً أنّ الحقيقة تقول إنّها ليست موجودة في عالم الطبيب، بأيّة طريقة أو صورة، وإنّ هذه الحقيقة، على الرغم

من مرارتها، تبقى الأصلح. ثمّ فكّرت في أنّ الطبيب لو علم بأمر هذه المخطوطة لبذل جهداً كبيراً في الحصول عليها، وربّما وسّط قنصل بريطانيا لشرائها أو للسطو عليها، ولعلّ حيلولتها بينه وبين الكتاب ستكون خدمة جليلة للمكتبة وللمستفيدين منها.

سألت فتوح الخوري: هل يمكن للناس قراءة هذه المخطوطات؟

- يمكن فقط للرهبان قراءتها في هذه القاعة، وفي ساعات محدّدة من النهار، فهنا الكتب النوادر التي جمعها المطران بنفسه من أصقاع الدنيا، وليس منها نسخ أخرى.

فكّرت فتوح لو أنّها تقوم بنسخ هذه النوادر المشار إليها، لكنّ الخوري قطع عليها الاستغراق في فكرتها، واقترب منها، وأخرج من جيب داخليّ رزمة أوراق بدت ملفوفة بحافظة جلديّة، يتدلّى منها خيط:

- خبّئي هذه الأمانة في عبّك!

تناولتها فتوح، ونظرت إليها دون أن تفتحها، ووضعتها داخل ردائها، وهي تستفهم بعينيها.

هذه الأوراق كتبتها بيدي، وأريد منك أن تنسخيها بقلمك حسب الأصول، ستسدين إليّ وإلى كنيستي، وإلى نساء الشرق، وأنت منهنّ، معروفاً كبيراً. لقد سألتني قبل عن دور النساء في الإصلاح، وهنا أقدّم نموذجاً للإصلاح المتعلّق بوضع النساء في الشرق، اللواتي عانين لقرون ما قبل المسيحيّة وبعدها، من استبداد الأباطرة وعدم فهمهم، وربّما إهمالهم لطبيعة المرأة وحقوقها. وكما تعلمين كلّ نموذج مشرق سيصير هدفاً لسهام المناوئين والمستفيدين من الوضع القائم، وهذا ما كان من الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان. إنّها امرأة صالحة، وكنيستنا تعترف

بذلك، وقد قدّمت للنساء معروفاً تاريخيّاً بأنّها حفظت حقوقهنّ وكراماتهنّ، وأجسادهنّ من الانتهاك، لكنّ الدعاية المناوئة عملت على تشويه صورتها، وتحويلها إلى شيطانة. وفي هذه الأوراق حاولت أن أدفع عنها تلك الدعاوى، لأنّ كلّ مظلوم من حقّه أن يُدافَع عنه، لاسيّما حين لا يكون له حول أو قوّة ليفعل ذلك بعد موته. لقد فنّدتُ الدعاية التي نشرها مؤرّخ رومانيّ يسمّى بروكوبيوس، والذي عاش في القرن السادس بعد ميلاد المسيح، وهو بمخطوطه القبيح الذي يدعى (التاريخ السريّ) قد افترى على جدّتنا السريانيّة، التي ولدت هنا في هذه الديار المباركة، وعاشت ووصلت لتكون إمبراطورة بيزنطة، لأنّه مدفوع برغبة الرومان أعداء الشرق، وربّما انتقاماً لسيّده بيليزاريوس قائد جيش جستنيان، إذ قرّر أن يحوّلها إلى امرأة بلا حياء أو حشمة، ومن ثمّ إلى إمبراطورة متوحّشة سلبت السلطة، وسلبت شعبها آدميّته. إنّ بروكوبيوس هذا مؤرّخ خطير، وروايته تنطوي على مغالطات كبيرة، ثمّ إنّه كتب كتباً أخرى يمجّد فيها الإمبراطور ومنجزاته العسكريّة والمدنيّة والدينيّة، وبعدها انقلب عليه، وراح يشوّه صورته أمام الشعب، وأمام التاريخ، وذلك بعد أن صار في العالم الآخر، فأيّ عالم هذا ومؤرّخ، ليس له إلٌّ ولا ذِمّة، تجعلنا نثق بروايته!

كانت فتوح تصغي وشيء من القلق بدأ يداخلها من حديث يوحنّا، فهي لم تفهم أكثر ما رمى إليه، فكّرت على نحو سريع: إنّه يريد منها أن تنسخ مخطوطته بيدها، على الرغم من وجود خطّاطين وكتّاب حوله في الكنيسة وخارجها، وعلى الرغم من وجود مطبعة أيضاً في حلب وخارجها، ويمكنه أن يصل بسهولة إلى أيّ من هذه الخيارات، فهل أراد أن يحذو حذو المطران جرمانوس لإغناء المكتبة بنسخ كثيرة مكتوبة بيد

نسّاخ من البلاد كلّها، ليجمع إلى مجدِ الكتابة والخطِّ، الوفرةَ والحظوةَ والمساهمة الجليلة! لكنّ السريّة التي قابلها بها يوحنّا بطلبه، أسعدتها وأقلقتها في الوقت ذاته.

حين شعر يوحنّا بحيرة فتوح العارفين، استفاض في الشرح، وفسّر لها ما حدث في عصر جستنيان في بيزنطة من تلاعب بالحقائق، ثمّ قال:

- التدوين أخطر أشكال تكوين الحقيقة، ذلك أنّ كتابة الكتب، والحفاظ عليها، وتكثيرها بين أيدي الناس أفضل طريقة لتثبيت الأفكار عبر الأجيال. فمتى ما استحكمت فكرة ما في عقول الناس، وسارت على ألسنتهم، لا يمكن حتّى لمنطوق الشرائع تغييرها، وإذا قيّض لهم مصلح يحمل لهم الحقيقة، كذّبوه، وكفّروه، وعادوه، وربّما قتلوه، وليس الأنبياء والرسل سوى أمثلة قائمة على ذلك.
- أين الناس من ذلك، أين الدفاعات الأخرى؟
- البشر بعامّتهم يحبّون الاستسلام للعادة، ويواجهون من يحاول أن يدير رؤوسهم نحو حقيقة مغايرة بالعداء والكراهية، وهذه المواجهات تختلف بحسب إمكاناتهم، وبحسب أخلاقهم، وما يرافق موقعهم من السطوة، إذ قد يواجه ذلك الذي يمتلك رأياً مغايراً بأيّ شكل من أشكال الإساءة، بالنفي مثلاً، أو بالتشهير، أو بالقتل. إنّهم لا يريدون لأحد أن يرى غير رأيهم، فذلك يشعرهم بالنقص، أو يتطلّب منهم تعب التفكير والسؤال، ويثير فيهم الهمّ، وهم مشغولون بكدّهم من أجل لقمتهم ومعاشهم، فتغيير التصوّرات حول الحوادث والموجودات مؤلم، ونحن

نحاربه أكثر ممّا نحارب أعداءنا. من هنا يأتي التلاعب بالحقيقة، فالدعاية المضادّة التي أطلقها بروكوبيوس تقول إنّ ثيودورا كرّست جهدها لابتكار أشكال من العقوبة للنساء اللواتي يرتكبن الآثام ببيع أجسادهنّ بأثمان بخسة، فقامت بجمعهنّ في الساحة العامة في القسطنطينيّة، وساقتهنّ للحبس في دير بعيد في بيزنطة اسمه دير التوبة، لإكراههنّ على حياة العفّة، ممّا قاد بعضهنّ إلى الانتحار، في حين تقول روايات أخرى حول الحدث ذاته: إنّ ثيودورا قد أمّنت للنساء المكرهات على البغاء مأوى، وعملاً، ورواتب، وحياة كريمة، وبذلك أنقذت كرامتهنّ من الامتهان، وأنقذت أجسادهنّ من التعذيب والمرض.

لم تشأ فتوح أن تسأل بعدها سؤالاً آخراً، إذ وجدت أنّ الأفكار التي عرضت عليها تزيد على قدرة عقلها على التحليل، وعن حاجة نفسها للمتعة، فلا بدّ من أن تعيد ترتيبها بطريقتها، وحسب وقتها، فقامت مودّعة الخوري الذي أوصلها إلى البوّابة، وكانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغرب، فطلبت إلى العربجيّ، وهي تتلمّس الحافظة الجلديّة تحت ردائها، أن يغذّ السير سريعاً إلى العقبة.

* * *

هدأت المدينة في أوّل الليل لكنّ بلابل فتوح لم تهدأ، طلبت إلى خادمتها أن تطفئ السرج المشتعلة في حجرتها، وأبقت اثنين قرب رأسها، وتمدّدت في فراشها وبدأت تقرأ في مخطوطة يوحنّا، وقد عنونها بـ (الدفاع

عن ثيودورا). وأمضت الليلة وهي تتمعّن كلماته المنسوخة على الأوراق الصقيلة المؤطّرة بزخارف ذهبيّة، بمداد أسود، وبقلم فيه استقامة أكثر ممّا ينبغي للقلم العربيّ. تبيّن لها من القراءة أنّ ثيودورا، محلّ الخلاف، ولدت بالقرب منها في منبج، وكانت ابنة لقسّيس، ورآها الإمبراطور حين كان في طريقه لمحاربة الفرس وذلك حسب روايتي متّى الرهاويّ ويوحنّا الإفسوسيّ، فطلب يدها من والدها الذي اشترط ألاّ يجبرها الإمبراطور على تغيير مذهبها. ولم تكن ممثّلة مسرحيّة غرّر بها أحد الشباب، فأنجبت منه، حسب بروكوبيوس الذي يشير إلى أنّها عانت كثيراً من جرّاء ذلك العار، ثمّ انتقلت إلى بيزنطة، والتقت بجستنيان الإمبراطور فوقع في حبّها، وتزوّجها، بعد أن غيّر القانون الذي كان يمنع زواج الأباطرة بنساء من الطبقات الدنيا.

لقد أخلصت ثيودورا لزوجها، ووقفت بجانبه، وحكمت معه، وتوفّيت شابّة، وكرّست السنوات قبل موتها لخدمة الدين، وكانت سريانيّة أرثوذكسيّة على المذهب اليعقوبيّ، تؤمن بطبيعتين ومشيئة واحدة للمسيح، وهذا على خلاف عقيدة بيزنطة وإمبراطورها، وقد حاولت إقناع زوجها الإمبراطور بكفّ الأذى عن هؤلاء المخالفين له في المعتقد، موقنة من أنّ الشرق لن يخضع للغرب، فبسطت حمايتها على الخارجين على هذا المذهب، وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة في الشرق، ولم تتردد في سبيل تحقيق هذه الغايات في بذل المال والحماية. وممّا غضّ بروكوبيوس الطرف عنه أنّها أصدرت قوانين صارمة لحظر الاتّجار بأجساد الفتيات الصغيرات، أو النساء الضحايا. وقد سمحت للنساء بتطليق أنفسهنّ في حال رفض الزوج ذلك، وأجبر زوجته على المكوث

معه في سجن الزوجيّة، ومنعت إجبار الفتيات على الزواج، واشترطت موافقة المخطوبة مرّتين: الأولى عند الخطبة، والثانية قبل عقد الزواج مباشرة، للتأكد من أنها لم تغير رأيها، وألزمت العريس بتقديم هدية مساوية في قيمتها لدوطة العروس التي تحضرها معها من بيت أبيها، كيلا تهون عليه المرأة فيتزوّجها رخيصة. استصدرت ثيودورا أيضاً القوانين التي تسمح للنساء بوراثة ثروة عائلاتهنّ وأزواجهنّ، وجعلت الإعدام عقوبة للاغتصاب. أمّا بخصوص تهمة بروكوبيوس الواهية حول البغايا، فقد منعت ثيودورا بمراسيمها سماسرة الدعارة من السيطرة على النساء والاتّجار بأجسادهنّ، إذ أمّنت مساكن كريمة وأعمالاً لمن أردن ترك الدعارة، تمكّنهنّ من العيش بسلام بعيداً عن التهديد والعار.

كانت فتوح تسمع خلال تتالي الجمل والعبارات صوت يوحنا يسرد القصّة بوتيرة تبعث على التعاطف والثقة:

"الإمبراطورة ثيودورا قدّيسة النساء المعذّبات، الحقّ أقول لكم إنّها صنعت التاريخ، فعندما ثار الشعب على جستنيان وائتلف الحزبان المتضادّان الزرق والخضر بدعم خارجيّ فيما عرف بثورة نيخا، لم تجمع الأموال وتهرب، ولم تترك زوجها لرأي المستشارين الفاسدين، بل بقيت معه تشجّعه حتّى ثبّت أركان حكمه، وبقي في أرضه، وقد قالت له أمام الملأ:

"لا أعرف إذا كان من اللائق لامرأة أن تقدم نصيحة شجاعة لرجل خائف، لكن في لحظات الحسم يكون الضمير هو المرشد الوحيد. كل من شهد ضوء النهار، سيموت عاجلا أم آجلا، وفي هذه اللحظة نحن أغنياء، والبحر أمامنا وسفننا جاهزة، ويمكن للإمبراطور أن يهرب، لكن يا مولاي بمجرّد أن تصل إلى الشاطئ الآخر سيقتلك الندم لأنّك لم تختر

ميتة تليق بإمبراطور، يا مولاي سأقول لك كلمة أخيرة، وسأتمسّك بها: إنّ العباءة الملكيّة هي أفضل الأكفان".

انتبهت فتوح إلى صياح الديكة في الدور البعيدة حول البساتين، علا بعده صوت مؤذن جامع (التوتة)، فأغمضت عينيها المتعبتين، واستسلمت للمقام البديع مع استفاقة أوّل عصبة من طيور الدوريّ التي غادرت أغصان الشجر في قلب البيوت والمساجد والتكايا من حولها. أعادت التفكير مليّاً فيما قرأت وكم ودّت لو تقوم بخدمة الخوري يوحنّا في هذه المسألة! لقد أدركت مغزى طلبه، وأعجبت بتمسّكه برسالته وبدفاعه عن قضيّته، لكنّها بخبرتها استشعرت خطراً لا يمكنها أن تزجّ نفسها فيه. تمنّت لو أنّها استطاعت أن تعرض المسألة على هيلين، إنّها محلّ ثقتها، ليس فقط لكونها قارئة في التاريخ، وذات ثقافة دينيّة وأدبيّة عميقة، بل لأنّها قادرة على وضع الأمور في ميزان العقل دون الهوى، لكنّها أحجمت وأبعدت الفكرة عن ذهنها، فلهيلين ارتباطات وثيقة بأهلها وناسها وبكنيستها، وليس عليها أن تحشر نفسها في ملّة غيرها. ثمّ خطر لها أن تسأل باتريك، وأن تتحاور معه، إنّها الآن تملك موضوعاً عميقاً يستحقّ أن تتداوله معه، فيصير سبيلاً للقاءات كثيرة، ومعارف ومتع عقليّة تشتاق إليها، لكنّها لن تغشّ نفسها، فهي تبحث إذن عن وسيلة لتكون قريبة منه، وليس غير ذلك. بقي لديها حلّ وحيد ومحرج جدّاً، وهو أن تعيد المخطوطة ليوحنّا معتذرة وخجلى من تخييبها ظنّه، وأن تنتهي علاقتها بحيّ الجديدة عند هذا الحدّ.

* * *

بنت مرقّص الدببة

وصلت الدعوات باسم قنصل إيطاليا إلى رجال الدولة، والتجّار، والقناصل في المدينة لحضور حلقة ترفيهيّة مسائيّة في موقع القنصليّة في خان العلبيّة. كان واحد من كبار تجّار جَنَوة قد استأجر (سيرك) قادمًا من الشمال، لإمتاع القنصل وضيوفه، وكان ذلك ديدن التجّار وأصحاب المصالح، إذ يحملون إلى القناصل والوجهاء، الغرائب والعجائب التي تتحفهم في مقامهم الطويل في حلب، في إطار تبادل الخدمات، وتقديم الهدايا والأعطيات. مرّة حضر ضيوف القنصل عرضًا لفيلة جاءت من بلاد فارس، ومرّة حضروا عرضًا لترقيص القرود، وقد ينضمّ للبرنامج سحرة يقومون بألعاب الخفّة، وتكون تلك العروض خاصّة بالرجال، في حين تحضر النساء في بيت إحدى الوجيهات عروضًا لراقصات من بلاد العجم أو بلاد الروم، لكنّهنّ غالبًا يتحفّظن عن ذكر تفاصيلها لرجالهنّ، في محاولة لتحديد خيالاتهم، أو منعهم من فرصة الفرجة لو تسنت لأحدهم دعوة خاصّة في أحد بيوت الأجانب أو الأثرياء.

وصلت أنستازيا ووالدها من بلاد المجر، في قافلة فيها بضائع وعمّال قادمون من بلاد ما وراء الدانوب، يحملون الفراء والفضّة، ومعهم أقفاص للكلاب المدرّبة والدببة. كانوا قد قدّموا عروضهم لوقت طويل في إسطنبول، ثمّ قدم بهم أحد المتعهّدين إلى حلب عبر طريق البرّ،

ونزلوا في خان بعيد خارج الأسوار. قاموا بإصلاح أقفاص الحيوانات وتجديدها، ليتمّوا رحلتهم إلى دمشق فمصر. رتّب الخدم الجلسة في ساحة الخان، ففرشوا المكان، ووضعوا حواجز من الخشب تفصل المتفرّجين عن المساحة المخصّصة للعرض. كان القنصل المضيف أكثر المتحمّسين للسهرة، وكان الجميع يتساءل عن ماهية الفرجة، وإذا ما كان هناك وحوش مخيفة ستتحرّك أمام الجمهور فعلاً. كان الدكتور باتريك على رأس المدعوّين، والجوهري، ونامق بِك أخو فتوح القادم من إسطنبول، ومجموعة الدبلوماسيّين، وطبعاً لن تفوّت كلّ من فتوح وميسّر دعوة هيلين للفرجة من خلف إحدى مشربيّات دارهم المطلّة على ساحة الخان، والذي سيغلق بابه بعد صلاة العشاء، وستضاء القناديل الداخلية كلها، وسيمنع تداول الطعام والشراب أو إعداده، أو انتشار رائحة الطبخ إلى أن تنتهي الفرجة، وتخرج الحيوانات إلى مكان إقامتها خارج الأحياء السكنيّة للمدينة.

كان المشهد ممتعاً وجديداً، وبالنسبة للبنات الثلاث فهنّ يشهدن للمرّة الأولى مثل هذه الاستعدادات، التي لا تشبه بحال جلسات الحكواتيّة، ولا جلسات الطرب، أو المولويّة، ولا جلسات حنّا الخاصّة. بدا الترقّب حين دخل شاب يرتدي ثوباً من الجلد، انحنى أمام القنصل وضيوفه، وردّوا عليه بإيماءة، ثمّ ذهب وراء ستار سميك من الوبر جعلوه في طرف ساحة الخان من عند الباب الجانبيّ، وعاد يتمشّى مع دبّ، فشهق الجميع الذين يرون الدبّ للمرّة الأولى. كان الدبّ منتصباً مثل آدميّ يمشي على رجليه، ويتأبّط ذراع الرجل، ويحمل في اليد الحرّة باقة من الورود الملوّنة، وبدا كأنّه دبّة أنثى تمشي مع رفيقها. وكانت كأنّها

تبتسم، وقد عرّفوا بها على أنّها الدبّة روز، فلم يتمالك أحد الحاضرين من أبناء التجّار نفسه، فصاح:

- *دبّ ولا دبّة خانم...*

فرقعت ضحكات بين الحضور، وعلا الهرج، فالتفت القنصل معاتبا حدّ الغضبة، وانتشر المساعدون، وأسكتوهم لتتحوّل الكلمات إلى همس سكن شيئًا فشيئًا، في حين كانت البنات الثلاث وراء المشربيّة في الأعلى قد تراجعن إلى الخلف، وهنّ غارقات بالضحك:

- *يا خيتو على هالدبدوبة بتاخد العقل! عاروس*

بعد أن زال شعور القلق من مواجهة الحيوان الغريب بقيت الدهشة، وصارت صورة الدبّة أليفة. كانت بنيّة اللون، ولم تكن قبيحة كما تفترض المخيّلة الدببة، بل بدا عليها المرح، وكانت تتلفّت نحو الجالسين، وتبتسم لهم، وكأنّها تحيّيهم وتلوّح بيدها. تركها صاحبها لتتمشّى إلى الأمام والخلف على موسيقى عازف الكمان الذي يقف على مصطبة الإيوان، وكانت ترتدي ثوبًا أزرق اللون بزهور بيضاء، وعلى رأسها تاج، الله أعلم كيف استطاع صاحبها تثبيته. وما هي إلاّ لحظات حتّى توقّفت الدبّة عن المشي، وبدأت تنظر إلى الجمهور بغرابة، وفي حين حاول صاحبها شدّها نحو الأمام والانحراف بها، حرنت وتراجعت إلى الخلف بعد أن أخلت يدها باحتجاج من يده، فما كان منه إلاّ أن دفعها بكلتا يديه، من ظهرها نحو الأمام، فلم تندفع، ومع توقّف العزف رجعت إلى الخلف وكادت أن تطيح به، فانزاح عن دربها، وبدأت تتراجع وحدها حتى استندت إلى أحد الجدران، قريبًا من العازف الذي ابتعد عنها خائفًا، ووقفت على قوائمها الأربع، وحاولت أن تتمدد كأنها ترتاح، وانفرش

فستانها الأزرق بشكل أضحك المتفرّجين بعد أن قلقوا قليلاً ممّا حدث. وهكذا حردت الدبّة، مثل طفلة لم تعد تستجيب لتعليمات أحد والديها، عندها اضطرب صاحبها، وحار فيما يفعل إذ أفسدت عليه الفرجة، ولاسيّما أنّه بدأ يسمع احتجاج الجالسين، فنادى: أنستازيا، أنستازيا... نظر الجميع بالاتّجاه الذي نظر إليه الرجل نحو إحدى غرف الطابق الأرضيّ من الخان، وكلٌّ، بما فيهم صاحب الدعوة، كان ينتظر ليرى من هي أنستازيا، وكيف هو شكلها، وما الذي ستفعله! كانت أنستازيا جاهزة للتدخّل، مشت بخفّة نحو الدبّة، ولم يكن يرى منها شيء، كانت جسداً ممشوقًا ملتفّاً بعباءة من الكتّان السكّريّ، وقد لفّت شعرها بعمامة بيضاء مقصّبة بخيوط ذهبيّة، وكانت تلتمع تحت أنوار القناديل المضاءة في كلّ ركن من أركان الساحة الواسعة، مثبّتة على الأعمدة، وسقوف الأواوين، والرفوف المصطفّة على الجدران، وحواف النوافذ.

كانت أنستازيا تتنقّل برشاقة بحذائها الجلديّ الأصفر ذي الساق الطويلة، وظهرت مثل الفرسان القادمين من بلاد المقدس. حين اقتربت من الدبّة، لم تتحرّك، ولم تبد أيّة استجابة لملقاها، لكنّ المرأة بدأت تهمس لها، فنظرت إليها الدبّة باهتمام، ثم عاودت سكونها، فما كان من أنستازيا سوى أن ألقت بعباءتها، وخلعت عمامتها بحركة سريعة ومربكة للعين، فظهر ثوبها الحريريّ الأخضر البرّاق ملتصقًا بجسدها، مبديًا صغر حجم أعضائها: اليدين الناحلتين، والنهدين الصغيرين، والمؤخّرة الملمومة. وحين تحرّكت انفرد الثوب وضاعت التفاصيل بين أمواج الحرير الزمرّدي، وارتخى شعرها الأحمر الطويل مع شهقات الحاضرين الذين تحوّلت عقولهم وأنظارهم نحو المرأة التي بدت في الحلقة مثل

طيف يمشي نحو الجدار، وانصرفوا عن الدبّة التي باتت مجرّد سبب يحملهم إلى فضاء جديد من المتعة. حين تأكّدت الدبّة من شخص المرأة قامت إليها بلا تردّد، ومشت على أربع، وهي ترفع رأسها إليها، وقد أقبلت أنستازيا عليها بابتسامة حتّى واجهتها، ووضعت عليها يدها البيضاء التي بدت شاحبة تحت الأضواء المنعكسة على جلدها، ومع انحسار أكمامها العريضة بدا الضياء أوسع فأوسع، وقد سحبت من عنق حذائها رسنًا من الجلد البنيّ وطوّقت به رقبة الدبّة بهدوء، فانقادت إليها مثل طفلة مطيعة.

دارت بها أنستازيا دورتين، وكان المساعد يطلب إلى المتفرّجين كلّ حين الصمت بأن يضع سبابته اليمنى على شفتيه المطبقتين. وكان الجميع قد حوّل نظره إلى جمال الصبيّة التي تبدو في حوالي السادسة عشرة من عمرها، ملامحها طفوليّة، وشعرها ممـوّج وعلى وجهها نمش بديع يتجمّع تحت جفنيها وعلى أنفها، ولون حائر يغشى عينيها بين الأزرق والأخضر لا يمكن تحديده، ولا يمكن للرائي سوى أن يقول إنّه أخّاذ. كانت ميسّر تتابع الدكتور باتريك، وقد تعلّقت نظراته بحركة المرأة الفاتنة، يتفرّج بتمعّن وفي فمه غليونه، يسحب منه أنفاسًا، وينفثها في الفضاء، لتظهر على شفتيه وعينيه ابتسامة لم ترها مطلقًا خلال الأيّام التي قضتها معه، فقرصها قلبها من الغيرة، وأظلمت الدنيا في عينيها واحتقنت وجنتاها من الغصّة. أمّا هيلين التي كانت قد وقعت في حبّ نامق بك منذ رأته في مكتب والدها، فكانت تودّ لو أنّها تطال بيديها أنستازيا، وتمزّقها نصفين أو تكسر رقبتها، وكانت تتابع مثل غزال مذعور عيني نامق بِك وهما تنظران إلى جسد المرأة بإعجاب واشتهاء، وتتمنّى لو أمكنها أن

تعرّفه على جسدها المصون الذي يفوق جسد هذه البنت المعلولة، جمالاً وصحّة. لم تصدّق أنّ هذا الرجل المتّزن الذي أكّد لها أنّه سيضع كلّ قوّته الدبلوماسيّة والماليّة ليكون أبوها راضيًا بزواجها منه، يمكنه أن ينظر بمثل تلك الوقاحة إلى عاهرة. وحدها فتوح كانت تعيش لحظات الفرجة بكثير من التسلية والمرح، تراقب الجميع وهم يستمتعون بوقتهم، ويتخذون ردود فعل غريبة ومختلفة، فقد شاهدت العديد من مثل هذه العروض في إسطنبول، في الساحة العامّة، أو في بعض المناسبات التي كانت تدعى إليها في قصر توبكابي، إذ يحضر المهرّجون، ولاعبو الخفّة، والسحرة. وقد شهدت في جلسات خاصّة قبل زواجها بالشيخ موسى نساء يأتين من اليونان أو فيننا، يقدمن عروضًا شديدة الفحش مع الإوز، الذي كان ينقر الحبّ المنثور على أجسادهنّ العارية. أشارت أنستازيا إلى عازف الطبلة أن يبدأ النقر، ومع انتظام الإيقاع، وقفت الدبّة وقد أرخت أنستازيا الرسن إلى الآخر. بدأت الدبّة تقفز على رجل ثمّ الأخرى مع الإيقاع، وبدأت أنستازيا تردّ عليها بقفزات مماثلة، وتبتسم، وبدت الدبّة تبتسم لها أيضًا. اشتدّ الإيقاع ونشطت الدبّة أكثر فأكثر، وقد طلبت أنستازيا إلى الجالسين أن يصفّقوا، بأن صفّقت وهي تنظر إليهم وتهزّ رأسها، فامتثل الجميع الذين كانوا رهن إشارتها، ولو طلبت إليهم أن يرقصوا بدل الدبّة، لفعلوا جميعًا من أكبرهم إلى أصغرهم.

راحوا يضحكون منتشين، وظلوا لدقائق طويلة حتّى هدّأت أنستازيا الإيقاع، ثم تناولت مجموعة من حلقات العظم الملوّنة، وراحت ترميها نحو الدبّة التي تتلقّفها تباعًا، ولمّا صارت الحلقات معها، راحت هي بدورها ترميها نحو أنستازيا تحت وطأة تشجيع الجمهور وتصفيقه، بعد ذلك

أحضرت طاولة صغيرة وعليها زجاجة وكأس، وإلى جوارها كرسيّ، فجلست عليه الدبّة، وصبّت لها أنستازيا الشراب، فلفّت رجليها، كأنّها تضع ساقًا على ساق، ثمّ أخرجت أنستازيا من جيب ثوبها غليونًا وزقّته في فم جليستها، فأثارت قهقهات طويلة، وظلّ القوم منشدّين إلى العرض لما يزيد على ساعة من الزمان حيث حيّتهم المرأة مع دبّتها، ودخلت إلى الغرفة، وكانت أمانيّهم معلّقة بالباب منتظرين خروجها مرّة أخرى، لكنّها خيّبت ظنّهم، فجلسوا لتناول الطعام الذي أعدّه صاحب الدعوة، في حين غادرت الفرقة من خلف السواتر، من غير أن يشعر بها أحد.

صارت أنستازيا منذ تلك الليلة محرّكًا لخيال كلّ من رآها من الرجال في حلب، لكن لم يكن لأحد أن يطالها أو يفكّر بمتابعتها تلك الليلة، حيث عادت إلى نزلها الذي تقيم فيه مع والدها، ودببها، ومجموعة من المرافقين لهم في الرحلة، وبينهم أربعة أقزام اثنان من الذكور، واثنتان من الإناث، لكنّ الأقزام التزموا المكان بناء على التعليمات الإداريّة من شرطة الوالي، إذ أشاع بعض المغرضين أنّهم ليسوا أقزامًا بل مجذومون، هربوا من مصحّتهم، وعلى الرغم من أنّ الفضول كان يدفع الجيران والأطفال لرؤيتهم، حيث تجمّعوا في الأزقّة والساحة حول غرف الخان، إلاّ أنّ الأقزام أحجموا عن الظهور حيث لا عروض، ولا عمل دعوا إليه، وكان مقامهم لن يطول أكثر من أيّام ريثما تتجهّز القافلة، وينتهون من شراء ما يحتاجون إليه، لعملهم أو لحاجاتهم الشخصيّة من أسواق حلب، ليتابعوا رحلتهم إلى الميناء، ومنها إلى الإسكندريّة، حيث لهم عمل كثير ينتظرهم هناك في عالم مفتوح للبهجة والمتعة، لا تعطّله محظورات، ولا تحدّه أسوار.

* * *

في الصباح، تمشّت أنستازيا في سوق الذهب، أعجبتها الدكاكين الصغيرة التي تصطفّ متلاصقة تحت القباب العالية، ذات الفتحات التي تتسرّب منها أشعّة الضوء، لتتلألأ الأساور المضمومة في أسياخ من النحاس، والمعلّقة في أقفاص زجاجيّة مستقرّة في الخزائن المحفورة في الجدران. تاهت نظراتها بين عشرات الأساور المطعّمة بالمينا الملوّن، والفردات التي تطرق ببعضها البعض مع كلّ حركة حول الحانوت، فتصدر رنيناً يبقى في ذاكرة كلّ امرأة، ويصير جزءاً من أحلامها. يثير رذاذ الصنبور المفتوح من السبيل القريب نشوة الرطوبة التي تنتشر في الأزقّة الحجريّة، وينبّه أنستازيا من غفوة الذهب، لتقرّر أخيراً أن تتوقّف أمام واحد من الحوانيت، مختفية بجلبابها الأزرق الذي عادة ما تشدّد الشرطة على أن ترتديه غير المسلمات، وعلى رأسها طرحتها التي تخفي شعرها الكثيف الملفوف مثل تلّة صغيرة تنتظر أدنى حركة للانهيار. أشرقت شمس وجهها حين رفعت منديلها، وسألت الصائغ عن الأساور المعلّقة في القضبان، والعقود المدلاّة من الحوامل الخشبيّة المصمّمة على شكل أعناق. حاول الصائغ أن يغضّ بصره، وكان يقاوم بجهد، كما تقتضي الأصول، الجاذبيّة في الرموش الطويلة لهذه الدميّة، والعيون الصغيرة التي تبدو ذائبة من التعب والسهر، وراح يقدّم لها مقترحاته من القطع الفريدة المصوغة كلّها بأيدي صيّاغ حلب في ورشات شهيرة، قائمة في القيساريّات في الدرب المفضي إلى خان الحرير. وبعد أن حدّثته عن خيالاتها حول الأحجار الثمينة، طلب إليها أن تتبعه إلى آخر الزقاق، وخلّف مكانه شابّاً كان يجلس في الحانوت المقابل. دخلت أنستازيا من الباب الخشبيّ الواسع لتجد نفسها في إحدى القيساريّات حيث ورشات الصياغة تصطفّ حول ساحة واسعة تتوسّطها بركة ماء بنافورة صغيرة،

وحولها الأشجار وشتلات الزهور، وكان صخب الصنّاع وحسّ مدوالاتهم يملأ الفضاء، لكنّهم صمتوا بمجرّد ملاحظتها، وحين دخلت خلف الصائغ إلى غرفة صغيرة أشبه بذلك الحانوت الذي كانت فيه، بدأ يفتح لها جوارير خشبيّة صغيرة في مساحة تكاد تتسع لرجل واحد متوسّط القوام، لتجد فيها كنوز الهند والسند، ولآلئ قادمة من البحار البعيدة التي ما يزال جلّها قيد الاكتشاف، وبدأ صوت فتح خشب الجوارير يتناغم مع رنين اللؤلؤ الأبيض والمصفرّ والزهريّ، ثمّ ظهرت خواتم الياقوت الأحمر، والزفير الأزرق، وكادت تذهب بعقل أنستازيا التي تسأل: بالتركية، والعربيّة: بكم هذا؟ وبكم هذا؟

إلى أن أقبل رجل وسيم بحلّة باذخة وأمر البائع بالمغادرة، ووقف أمام أنستازيا وقال:

- ببلاش يا خانم، بلا حقّه يا خاتون...

وكانت أنستازيا تضحك، وقد عرفت طريقة حوارات البازار بين البائعين والنساء، ولاسيّما الغريبات وقد سقط خمارها على الأرض، ولم تتحمّل عناء التقاطه، حتّى قدّمه لها أحد الصبية الواقفين قبالة الغرفة يتأمّل في كينونتها، فزجره نامق بِك وأبعده. ولمّا عجزت أنستازيا عن الحصول على جواب يتعلّق بثمن ما أعجبها، تناول نامق مشطاً صغيراً من العظم مطعّماً بالصدف، وقال: اعتبريه هديّة منّي على العرض البديع الذي حضرته أمس، فقبلته وشكّته في شعرها سعيدة به، وراح يسألها عن عملها، وأصولها وكيف حصّلت مهارتها في تدريب الدببة، ثمّ طلب كرسيين للجلوس حول البركة، وكأسين من عصير الرمّان، وأشعل غليونين وذهب مع الحسناء في أحاديث شتّى عن بلاد بعيدة، وفريدة بثرواتها وعجائبها. أخبرته أنستازيا عن زياراتها

للندن، وباريس، وروما، والبندقيّة، وعن العروض التي قدّمتها مع فرق مشهورة هناك، وقد التقت بالإمبراطورة ماريّا تيريزا إمبراطورة النمسا، ورقّصت دببها في حديقة قصرها. وأخبرها نامق بدوره عن رحلاته إلى ذات الأماكن، وعن الذهب والمجوهرات، وعرّفها أنّه وكيل لدار طراز الذهب المعروفة باسم (توريني)، وأنّه نقل لهم العديد من أمهر الصيّاغ هنا من حلب، ليصنعوا قطعهم المبهرة التي يقتنيها ملوك أوربا. شعر نامق بأنّ عليه أن يبذل جهداً لتعجب به هذه المرأة التي طافت في البلاد، ورأت من العباد ما يكفيها بحيث لم يعد يملأ عينها أحد، وقرّر أنّه يريد أن يكون رَجُلها، وأن يضمّها إلى حريمه، فلم ير أكمل من بديع تكوينها، وقوّة روحها، لكن كيف له أن يفعل ذلك، وماذا سيقول الخلق عنه! سيقولون إنّه جاء من إسطنبول، من بيت الفضيلة والعلم والكمال، ليمضي وراء الرذائل ويعلق في شباك بنت مرقّص الدببة، التي لا تصلح حتّى خادمة لأقلّ نسائه من سبايا الصقالبة والأوربيّين، وفيهنّ سليلات لأسر ملكيّة! ثمّ إن انكشف أمره، ماذا سيقول عنه تجار حلب، المعروفون بعفّتهم وورعهم وفضائلهم، وكم سيسيء للرجل الذي استقبله وفتح له بيته وعلاقاته إكراماً لأخته فتوح، وللذكر الطيب لوالدته، والحياة القصيرة المشتركة التي كانت بينهما. لكن حين دعته أنستازيا لزيارتها، نسي تلك المؤرّقات كلّها، وأقنع نفسه بأنه في رحلة إلى البلاد البعيدة، لذا سيعدّ نفسه سائحاً في باريز أو ليفيرنو، حيث يمكنه أن يرفّه عن نفسه مع الحسناوات اللواتي يبحثن عن صحبة رجال الشرق الأثرياء. ضربت له موعداً لزيارتها لتقدّم له عرض الأقزام الممنوع، وعروضاً راقصة في الخان حيث تقيم، وستقدّم له طعاماً لذيذاً من لحم العجل المطبوخ بالنبيذ، والبطّ المشويّ بالكمأة على الطريقة البروفينساليّة.

بعد أن أغلقت الأسواق، وعمّ الظلام ركب نامق بك بغلة، ومضى مع صاحبين له إلى خارج الأسوار، نحو منطقة المسالخ حيث الخانات التي يرتادها البدو الذين يأتون بمواشيهم لمقايضتها أو بيعها. كان هناك نُزُلٌ قديم بغرف صغيرة لكنّ زرائبه واسعة يستقبل فيها غرائب الحيوانات وحوشيّها، التي يحضرها التجّار من أماكن بعيدة، وقد استقبل قبل عشرات السنين فيلة قادمة من الهند، ونسانيس إفريقيّة وقردة، ويؤوي الآن أربعة دببة منها دبّة أنستازيا. حين وصل نامق بِك، أقلقه شكل المكان ورائحته، وحدّثته نفسه بالتراجع إذ استشعر خطراً من هذا العالم الذي قادته إليه نفس تحبّ الجمال والمتعة، إلاّ أنّ مجرّد تذكّر بشرة أنستازيا الحليبيّة، وعينيها اللامعتين كنجمتين من الثريّا، ينسيه كلّ الأفكار المزعجة التي تخطر في باله.

صعد الأدراج مع صاحبيه يقودهم أحد الخدم، وحين دخل الغرفة التي تشبه المربّع في دور الحلبيّين استقبله الأقزام الأربعة، وراحوا يرحّبون به، فخاف وانكمش لمرآهم وهم يتقافزون أمامه مثل دمى مركّبة على زمبركات. ولمّا كلّموه بالتركيّة تماسك، لكن بدا أنه قد أسقط في يده، إلى أن أقبلت عليه أنستازيا، فتلاشى القلق، واقتربت منه، وبمرآها وعد نفسه بليلة خالصة المتعة والشغف، وهي ترتدي ثوبًا من الدامسكو الأسود والذهبيّ، مكشوفة الصدر والذراعين، وتظهر الساقان من خلال شقّ متوسّط يبدأ من فوق الركبتين ويبدي لحم الفخذين متلألئًا، فيتمنّى أن يقايض تجارته بلحظة يضع فيها كفّه في ذلك المنحنى الساحر. كانت روائح الطعام الموعود تفوح في الجوّ، بينما يقف قمر ورديّ في قطعة السماء المرئيّة من خلال نافذة عريضة مطلّة. وضع البراندي في كؤوس النحاس الباردة أمام الساهرين، وقدّمت أنستازيا كأسًا لنامق بعد أن ارتشفت منها، فوضع شفتيه في موضع شفتيها، وشرب

وتمزمز بالمذاق، ثمّ أمسك بساعدها العاري، وبدأ يضغط فتتأجّج الرغبة في دمه، وتقترب أنستازيا منه أكثر، وتزيد في طلبها الاقتراب، وهو يشدّ إليه شعرها الأحمر الذي تفوح منه رائحة الزنبق، وقد تسوّقته الحسناء من سوق العطّاربين، وبدأت رحلة الشغف تتخذ الطريق المبتغى، وامتلأ المكان بالتنهّدات بعد أن أشار نامق للجميع أن يخرجوا. وفجأة سُمعت جلبة، واستشعر نامق الخطر وتوقّف، ويده على الجنبيّة في خصره، ودخل صاحباه والأقزام، وعرف منهم أنّ الشرطة احتلت الدور الأوّل وتفتش في المكان عن (بنات الخطا) غير المرخّصات! ما كان من أحد الخدم إلّا أن أشار إلى نامق أن يتدلّى من الحبل المثبّت في حلقة من النافذة التي كان الأقزام يتسلّقونها، لينزل إلى الباحة الخلفيّة، وفيها باب صغير يؤدّي إلى زاروب مجاور. لم يجد نامق بِك خياراً أفضل، وكانت المسافة قصيرة وأحسن من الفضيحة، كما لم يكن لديه وقت للتفكير، فدلّى جسده الذي كان رشيقًا من الحبل، وقد ترك أغراضه، صرّة نقوده، وكيس وثائقه، ونجا. ووصل العقبة قبل الفجر، وهو يلوم نفسه الأمّارة بالسوء، ويحمد الله على سلامته وستره.

في اليوم التالي، شاع الخبر بأنّ بنت مرقّص الدببة قد قتلت، ووصلت جثّتها إلى المارستان.

لم تنم ميسّر في تلك الليلة. سمعت جلبة في الحوش، وكان باتريك وقتها في الغرفة التي يعمل فيها، يقرأ ويكتب مثلما يفعل في معظم المساءات التي يعود فيها باكراً إلى البيت. كانت مجموعة من الأشخاص قد وقفت بالباب واستدعته، وقالت لها الخادمة إنّهم من الشرطة ومعهم بعض الأهالي. خرج إليهم مسرعًا بعد أن لبس جلبابه كيفما اتفق. أردات أن تلحق به لتطمئنّ إلى أنّه تدفّأ جيّداً، إذ لأوّل مرّة تحدث موجة برد غريبة في أيّار، قال

المنجّمون إنّها تنذر بسوء! غطّى الصقيع أوراق الشجر، وعشعش في شقوق الحيطان، وتجمّد الماء في حنفيّة الحوض الذي يتغذّى من سبيل الماء الخاص بالمارستان، والتي حصل عليها الطبيب باستثناء من إدارة البلديّة لخدمة أغراضه الشخصيّة، وقد ظلّت ميسّر تشمئزّ منها وتفضّل مياه البئر عليها، لاعتقادها بأنّها تمرّ بغرف المرضى وفيها شيء من دمائهم ومفرزاتهم، حتّى شرح لها باتريك حقيقة مرور الماء في الأنابيب. كانت جدران الدار تعزل تمامًا أيّة أصوات قادمة من مبنى المارستان في الجهة الأخرى من الممرّ الفاصل بين جزأي البناء. تأخّر باتريك، وانهارت ميسّر من القلق، وراحت أفكار تأخذها وأخرى تعيدها، وكلها أفكار سوداء تتعلّق بالشرّ الذي قد يصيبه، وستجد نفسها من بعده في الطريق. لكنّ الخادمة أخبرتها أنّه لم يغادر المارستان، وأنّ عناصر من الدرك يحرسون الباب المفضي إلى الغرف الداخليّة، بعد أن أجبروا الناس الذين اجتمعوا لرؤية جثّة امرأة مقتولة، على الانفضاض. خافت ميسّر من سيرة المرأة المقتولة، وأشفقت على باتريك من خوضه غمار هذا التعب في عالم المجرمين والسفّاحين، وأكثر ما أرعبها أن تكون وحيدة في مكان يفصلها فيه حائط حجريّ عن جثث الموتى والمقتولين. لم يخطر في بالها قبل هذه القصّة مثل هذا الخاطر، فوجود باتريك ألهاها عن أفكار المرض والموت، لتفكّر فقط في أن تكون معه في حياة حرّة وعامرة بالحبّ، والشغف، والأمان.

استجمعت شجاعتها، وذهبت لتبحث عنه. قطعت الممرّ ودفعت الباب الخشبيّ الثقيل بين الجزأين. كان مغلقًا من غير إقفال، وكانت أول مرّة تذهب باتجاه الغرف الداخليّة منذ وصولها. إذ انتقلت عبر أسطح البيوت في المرتين اللتين غادرت فيهما البيت، وكانت تتحرّك بحذر حول الحوش

حيث تتريّض المجنونات أحياناً. ملأت أنفها رائحة غريبة من الأعشاب والأدوية والأبخرة قلبت معدتها، وكادت تستفرغ. كان الهدوء يلفّ المكان، وقناديل الزيت مشتعلة تضيء الطريق نحو الداخل، انحرفت يميناً كي تتجنب الدخول إلى قسم الاستقبال الذي تليه جنينة تحيط بها غرف المرضى. توقّعت أن يكون باتريك في الغرف الداخليّة حيث يقيم الأطبّاء عادة. مرّت بعدّة حجرات مغلقة وأخرى مفتوحة لم تنظر فيها. لا تريد أن يراها أحد، كانت بلباس البيت، وغطاء رأسها لم يثبّت بإحكام. في نهاية الممرّ سمعت صوت حركة، وفي حجرة إلى اليمين يُنزل إليها بدرجتين، وجدت باتريك. رأته من النافذة الزجاجيّة الصغيرة فسقط قلبها بين قدميها، كان يقف إلى جانب طاولة الفحص، وعلى منضدة عالية عن يمينه يضيء فانوس كبير، كان يمسك غليونه بين شفتيه، ويتفرّج على جسد امرأة ميّتة أمامه، ورغم خوفها استثارها مشهد أن يكون باتريك مع امرأة عارية وحدهما في غرفة، امرأة ميّتة لكنها عارية، كان جسدها أبيض شمعيّاً، نحيلاً متمدّداً، وشعرها الأحمر الكثيف قد افترش موضع الرأس من الطاولة وتدلى في الفراغ. كانت أنستازيا ساحرة حتّى في موتها، بريئة وآثمة في آن معاً، وكان الطبيب ينظر إليها بحسرة، وعمق، كأنه يقيس أبعادها ويأسف على جمالها، ويزيح شرشفاً خفيفاً عن ساقيها وأعضائها، ينظر طويلاً ثمّ يعيد الغطاء. خافت هذه المرّة من باتريك، لم تعرف أنّ أباها الطبيب قد فعل ذلك في حياته، أن كشف عن جثة امرأة ميتة، أو نظر إليها. خافت من برود باتريك الذي سلّمته جسدها، قد يكون وحشاً يعاشر الموتى، أو أنّه حقّاً مثل أولئك الأطبّاء الذين يشترون جثث البشر هنا، حيث يأخذونها إلى بلادهم البعيدة ويشرّحونها، ليتأكّدوا من أنّ أصحابها يشبهون الناس هناك، كما سمعت من حكايات حنّا دياب.

ولعلّها أرادت أن تخترع أية تهمة تحقّر بها باتريك وعمله وطبّه، لأنّ الغيرة قرصت قلبها من جمال جسد أنستازيا، وانفراد باتريك بتأمله، إذ لم يمكّنها القدر من امتلاك جمال شفّاف وعذب مثل جمال هذه الدمية التي مضت باكراً جداً ومأسوفاً عليها، وامتلأ محجراها بدموع غريبة فيها قهر، وغضب، وأسى، واشمئزاز. تركته مع الجثة، وعادت إلى غرفتها، وقد اكتشفت من جديد أنها جارية، أو عبدة، أو امرأة غريبة ويتيمة، ولا تساوي مليماً في سوق حلب.

منذ ذلك المشهد، تغيّرت أشياء جوهريّة في علاقة ميسّر بباتريك، حتّى إنّها قرّرت أن تصدّه لو اقترب منها بيديه الملوّثتين بآثار الموت، لكنّها لم تفعل، إذ بعدها بليلة تركته يباشرها، كما فعل في مرّتين سابقتين، بهدوء وصمت، وبالطريقة ذاتها التي يفعل بها أيّ شيء آخر، كأن يأتي من الخارج، أو يغسل يديه، أو يغيّر ملابسه، أويجلس في المطبخ على الكرسيّ ذاته، ويمدّ يده لتناول الطعام، بلا أيّة انطباعات أو ردود أفعال.

في أحد الصباحات، وحين كان الخلق مشغولين في الأسواق، والبيع والشراء، وتحميل البضائع، كانت ميسّر قد حزمت بقجتها، وفيها صرّة ليراتها الذهبيّة، وبضعة قروش تناولتها من محزم متروك لباتريك، ستكفيها لبقيّة الطريق، وخرجت من الدار. في الليلة ذاتها اهتزّت أرض حلب تحت ساكنيها، وأفاق الناس من نومهم مذعورين، فمن لم توقظه الهزّات المتواترة، أيقظه الصراخ الذي ملأ فضاء المدينة، مستجيراً بالله، وأنبيائه، وملائكته، ولم يتذكّر الخلق ميسّر لأيّام، ولم يعلم بعدها أحد إلى أين قادتها الدروب.

مملكتي ليست من هذا العالم

زلزلت حادثة مقتل أنستازيا أركان عرش الجوهري، وقضى وقتاً طويلاً وهو يتوسّط على أبواب الحكّام، ليخلي سبيل نامق الذي احتجز في سجن القلعة مع المجرمين والقتلة، ريثما ينظر القاضي في أمر قضيّته. حين طلب الجوهريّ مقابلة الوالي أبقاه الحاجب في قاعة الانتظار من الضحى إلى ما بعد صلاة العشاء. كانت تلك أكبر إهانة يتلقّاها في حياته، وكان الحاجب، الذي أحسن إليه الجوهري كثيراً من قبل، طلب إليه الذهاب إلى البيت ريثما يُحدّد له موعد ثابت، فرفض وأصرّ على البقاء لرؤية الوالي ولو لدقائق، هو الذي كان يدخل ويخرج على السرايا أنّى شاء. لم يذق خلال مقامه المشؤوم طعم الزاد، وكان الحاجب يطلب من أجله الماء وبعض الفاكهة لكي لا يدوخ، لكنّه كان يرفض. وحين دخل إلى الوالي انهار أمامه من فرط الإعياء والغضب، مؤكّدًا له أنّ تهمة نامق بِك مدبّرة، وكذلك جرّه إلى ذلك المكان القصيّ، وقتل بنت مرقّص الدببة، كلّه مدبّر، وكان الوالي قد أبلغه ببرود أنّ المسألة أكبر منه، وأنّ الخبر وصل إلى ديوان السلطان، وأنّ ثمن إبراء نامق بِك هو الأراضي والضياع التي يملكها الجوهريّ في شمال حلب بين عفرين والباسوطة، وتلك الأراضي هي الأغلى على نفسه من ملكه كلّه، إذ ورثها عن أجداده، وكان قد اشترى ما هو أعلاها باتّجاه شرّان ليوسّع زراعة الزيتون في تلك المنطقة الحدوديّة بين حلب وعينتاب. وقتها

أراد أحد المتنفّذين من بني عثمان أن يضمّها إلى الأملاك الأميريّة لتبقى بيد الحكومة، فيعلّق له السلطان نيشاناً مكافأة له على حرصه على أمن الدولة من رعاياها العرب والأكراد، الذين يستوطنون في ذلك الشريط الحدودي، كما أنّ هذا المتنفّذ تحديداً عينه محمرّة من نامق بِك، إذ أراد يوماً أن يشاركه في تجارة إحدى السفن بنسبة خمسين بالمئة، مقابل أن يحميها حتى خروجها من الحدود البحريّة للسلطنة، لكنّ نامق اعتذر من غير أن يحسب حساب الضرر الذي سيلحق به نتيجة الاعتذار، وها قد أصاب عصافيره كلّها بحجر واحد.

انكسر الجوهري، وهذه المرّة سيتولّى الخسارة وحده ومن كيس ماله، وقد ذاع خبر خسارته ملكه بين التجّار، فهذه الأراضي أصول مهمّة في كفالاته الماليّة في السوق، والتي غالباً ما يقدّم صكوكها لتأمين البضائع في السفن المتّجهة إلى ليكورنا الإيطاليّة، وقد ساهم المغرضون في إشاعة إفلاسه، وسمعة التاجر هي أغلى ما يملك. ما حدث هزّ فتوح من الداخل، وفكّرت في أنّ لوجودها في حلب سبباً رئيساً في هذه المشكلة المعقّدة التي أوصلت أباها وعائلتها إليها، فهي التي جرّت نامق معها في رحلاتها وزيّنت له عظمة التجارة في حلب، وغواية العيش في قصورها وبين أهلها، ومدى السلطة، والربح الذي يمكن أن يحصّله في أسواقها، وإذا كان للوالي العثماني سلطان الإدارة، فللجوهريّ وجماعته سلطان المال والأعمال. كان ذلك كله لأنّ فتوح تشعر في حلب بكينونتها، وليس عليها أن تفكّر بالأسئلة المقلقة التي تحاصرها في إسطنبول، وتجعلها ضئيلة، ومدّعية، ومداهنة لترضي الجميع وتتملّقهم. في حين أنّها في حلب لم تعرف الصَّغار إلى أن رأت نظرة الانكسار في عيني والدها، وجفاف

بشرته، واصفرار وجهه، وقد اعتادت أن تراه ريّانَ محمرّاً. بدا أكبر من عمره بكثير، أو أنّه كان يبدو أصغر بسبب الهناءة والنعمة التي تحوّلت عنه في طرفة عين، ولعلّها لم تعرف أيضاً أن اختفاء ميسّر المفاجئ قد جعله ملتاعاً مثل طفل فطم عن حليب أمّه. عرفت وقتها أنّ الولاة والسلاطين ليس لديهم عزيز يراعونه، ولا أواصر مودّة أو صداقة. لا يهمهم سوى المال والسطوة، وإنّ حلب وأهلها وخيراتها ليسوا سوى جزء من أملاكهم الواسعة في أراضي المعمورة، ينتظرون منها خراج الزرع والتجارة، ويحارب شبابها عنهم في روسيا واليونان، مثلما تأتيهم قطعان رومانيا باللحم والصوف، وأبقار بافاريا بالحليب والأجبان.

ظلّت فتوح مؤرّقة وهي تفكّر في كلام الخوري يوحنّا، وتقلّب كتب المطران فرحات، وتفهم أكثر عن العرب، وتسأل نفسها هل هي عربية، ومن هؤلاء العرب، وكيف تكون مسلمة وعربية، ويكون المطران فرحات مسيحيّاً مارونيّاً وعربيّاً أيضاً، وكذلك الخوري يوحنا، فهو مسيحي سرياني وعربي! أخذتها الأسئلة من ذلك العالم إلى كتب أخرى تتحدث عن مصير أمم سادت ثمّ بادت، لكنّ الزلزال الذي أفاقت عليه المدينة بعد منتصف الليل، أطاح بأسئلتها كلّها، إذ هرعت مذعورة إلى الحرملك، حيث اجتمع كلّ من في المنزل من سادة وعبيد، وراحت تردّد معهم من غير وعي منها: "إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان مالها..."، ذهلت حقّاً عن كلّ شيء، وما بقي يشغلها هو البقاء على قيد الحياة، والاطمئنان على مصير عائلتها، لاسيّما بعد أن انهار جزء من دار جيرانهم آل القزّاز، وقتلت البنت المجذوبة التي كانت تلعب بالدبابيس.

* * *

بعد عشرين سنة من الخدمة الدبلوماسيّة في حلب، صدر فرمان سلطانيّ بإنهاء أعمال سفير إيطاليا، وإعادته إلى موطنه. كان قد حاول التدخّل في السرايا للإفراج عن نامق بك، خدمة لصاحبه الجوهريّ، وحين لم يستجب له الوالي، أرسل مكتوبًا إلى الصدر الأعظم في إسطنبول، وكان قد تعرّف إليه في شبابه في حفل تنصيب السلطان، حين كانا ما يزالان موظّفين صغيرين في الإدارة والدبلوماسيّة، فجاءه ردّ غير متوقّع، بأن ما يتدخّل فيه ليس شأنًا دبلوماسيا على الإطلاق، وهو مسألة قضائيّة شرعيّة. وبعد أيّام تلقى تبليغًا بإنهاء الخدمة مع هديّة ماليّة وخطاب شكر. لم تستطع هيلين أن تترك المدينة، كانت متشبّثة بها إلى حدّ الموت فيها، أو لا شيء غيره، وكانت تأمل أن تستعيد (نامق)، وتحلم في يقظتها ومنامها بأنها ستخلّصه من السجن، وهي موقنة من أنّه بريء وليس له قدرة على أن يقتل حتّى قطّة. ستغفر له لعبه وغراميّاته، وستعاتبه عليها لاحقًا بطريقتها. كانت تريد أن تزور معه العالم، وأن تذهب به في رحلة إلى وطنها الأم الذي عرفته مرّة واحدة في حياتها لتريه جماله، ثمّ يمرّان بإسطنبول حيث قصر عائلته الذي طالما حدّثتها فتوح عن الأبّهة التي تحيط به، وعن مشهد البوسفور العظيم الذي تطلّ عليه حدائقه وشرفاته. وستتعرّف إلى عائلة أمّه، تلك السيّدة الفاتنة التي شغلت صالونات عاصمة السلطنة بجمالها وثقافتها. سيظلّ شرط هيلين أن تعود إلى حلب، وتعيش فيها، وتنشئ عائلة كبيرة، وفيها ستربّي أولادها. ستبقى مع أبيها وأمها ونامق في خان العلبية، يجلسون معًا، ويستمعون إلى حكايات حنّا دياب، تثيرهم مغامراته في البحار والجزائر، وترهبهم وحوشه التي تطير من الصين إلى بلاد واق الواق، وتؤنسهم لقاءات

العشّاق الفقراء بالأميرات وبنات التجّار في أزقّة بغداد وقصورها. ستذهب هيلين إلى الكنيسة، وسيصلّي نامق في البيت، أو السوق، أو المسجد، فما المانع من أن تذهب هي إلى كنيستها، ويذهب هو إلى مسجده! حين تصحو هيلين من أحلام يقظتها تجد نفسها وراء مشربيّتها تحدّق في خيوط الماء وهي تنبثق من فم النافورة لتستقرّ في البركة التي تحتل وسط ساحة الخان تحتها، مدركة أنّها لن تستطيع تغيير نواميس الأديان التي تحكم علاقات البشر، لا علاقاتهم مع الربّ فحسب. إنّ تلك القوانين أكبر من قلبها، وهذا الاجتماع المأمول بنامق بِك هو المستحيل بعينه. قد يحصل هذا في إسطنبول، أمّا في حلب وبين مجتمع الدبلوماسيّين والجاليات، فلن يحصل أبداً، وسيكون الموت أهون على والديها من أن تتزوّج وحيدتهما رجلاً من غير طائفتها، فكيف إذا كان من غير دينها!

تمنّت هيلين أن يحدث شيء كبير يخلّصها من جحيم الأرق، لم تكن تتوقّع الزلزال الذي سيغيّر وجه الحياة في المدينة، بل فكّرت بحرب تدكّ أركان المنطقة وتأخذ معها عوائق اللقاء كلّها. كان رأسها ثقيلاً، والدوار لا يرحمها، وكذلك الغثيان. لم تنم منذ الحادثة المشؤومة، منتظرة حلاً إلهيّاً يخلصها من وساوسها وأحلامها المستحيلة. صلّت كثيراً في غرفتها، وأمام المذبح في كنيسة (مار آسيا الحكيم) في الجْدَيدة، حيث ظلّت العربة تنتظرها أمام الباب من العصر إلى المغرب حتّى قلق عليها السائس ودخل لتفقّدها، فوجدها راكعة أمام المذبح رأسها على الحافة الخشبية للقاعدة أمام تمثال العذراء الحزينة، وقد عرجت روحها إلى خدور السماء.

ملاحظات ختاميّة

لم يخطر في بالي قبل هذا الكشف أن أبحث عن غسّان في فيسبوك، وكان العثور عليه أسهل ممّا تصوّرت، إذ بمجرّد أن وضعت في خانة البحث غسّان قزّازGhassan Kazzaz، ظهرت لي صورة بروفايله، وشعرت بجزء في صدري يغادر مكانه، وكأنّه رآني، مع أنّه كان ينظر في مجلّة يمسكها بين يديه، وهو يضع نظارة بإطار مربّع أسود، ويحرمني من أن أرى ما تقول عيناه، وإلى أين وصل بهما مطاف الحياة.

كان له الشكل نفسه، والشعر الأسود الذي ما زال كثيفاً بغرّة منسدلة على الجبين المتغضّن قليلاً، وقد أصاب سالفيه البياض، ومع ذلك لم يكبر هذا الرجل أبداً. أردت أن أخبره أنني عثرت على تسجيلات أبي، وعلى حكاية (الأميرة التركيّة، والغريبة، وبنت القنصل)، الحكاية التي جمعتني به، وبجدّته، وبفاطمة، وبحنّا دياب، وبزمان العقبة. لن يستطيع أيّ شخص في العالم أن يفهم مدى أهميّة ما حدث معي في الأيّام الأخيرة سوى غسّان، ولا يمكنني أن أحدّث أحداً غيره عن هذا التاريخ كلّه من الأحداث، والحبّ، والفقد. إنّه تاريخ لا يعود إلى السبعينيّات، أو التسعينيّات فحسب، بل إلى أكثر من مئتي سنة قبلها، وليس لي طاقة لأقصّه، ولن يطيق أحد صبراً للاستماع إليّ. وجدت في معلومات

بروفايله اسم جامعته التي تخرّج فيها، ومفضّلاته من المواقع والصفحات، وتحتها كتب أنّه المالك لـ (غرفة حنا دياب).

زلزلتني العبارة الأخيرة، وقبل أن أفتح اللينك المرفق بها أدركت أنّ غسّان سرقني في هذه الحياة مرّتين. قادني اللينك إلى مكتب غسّان في العقبة، ومضيت في تصفّح صور لمجموعة من الشباب والبنات وبينهم غسّان وإلى جانبه دائماً ريّان ابنه الذي كان أهمّ سبب لفراقنا، وكان شابّاً أطول من أبيه ولعلّه أقلّ وسامة. وجدت صوراً لندوات، ومحاضرات، وباحثين، وفنّانين... ومع قراءة التعليقات، استطعت أن أكوّن فكرة عن واقع هذه الغرفة، التي يبدو أنّها مؤسّسة يملكها غسّان، بتمويل من إحدى المنظّمات الفرنسيّة، للحفاظ على التراث، وتدريب الشباب على بعض المهارات الفنيّة، والثقافيّة، والوظيفيّة كفنّ التصوير، والرسم، وكتابة القصص التوثيقيّة عن الحرب، والدمار الذي يتعرّض له التراث الماديّ في حلب القديمة تحديداً. أحسست بالغبن، وربّما لو ظهر هذا العنوان لدى كائن آخر أيًّا كان، غير غسّان، لما انفعلت بهذه الطريقة الحادّة. لم يكن غسّان ليعرف عن حنّا دياب ولا عن هذا العالم كلّه من غيري. لقد استباح أسراري وعلمي، وجهد أبي، ولعلّه عرف كيف ينتقم منّي إذ أدرت له ظهري يوم عرفت أنّ له عائلة. عرفت وقتها أنّه بعد فراقنا الأخير عاد إلى فرنسا لأشهر، ثمّ رجع والتقى بفرح، وذلك حين تجاهلت اتصالاته، إذ كنت قد مضيت في طريقي، وتوكّلت هي بأن أخبرته بالتفاصيل، التي أنكرها بشكل هيستريّ، كما نقلت إليّ آنذاك.

كشف لها حقائق غريبة، حمدتُ الله على أنّني نجوتُ منها، إذ أخبرها وقتها بأنّ فاطمة هي ابنة أخيه عبد الرحمن الذي كان صديق أبي،

وأنّها نشأت في بيتهم الذي زرناه، وحضرنا فيه تلك الجلسة التي جمعتنا فيها مع الشيخ أحمد، وأنّها ماتت بحريق نشب في ذلك البيت، الذي دخلتُه من غير علم، وقيل إنّ الحريق حدث نتيجة خلاف بينها وبين قرينها! لقد نشأت علاقة فاطمة بالقرين أصلاً، بسبب بحثها عند المشايخ وضاربي المندل عن أبيها المختفي من أيّام حادثة حيّ المشارقة، وتغييبه في المعتقلات من قبل السلطة في الثمانينيّات، وأنّ البنت الصغيرة التي رأيناها في ذلك الوقت، وكانت تلعب بحلقة الدبابيس، والتي بدا أنّها مجذوبة، هي قمر ابنتها وقد ماتت معها في الحريق.

كانت فترة عصيبة بالنسبة لغسّان! سافر بعدها ليكون مع جولين وطفلهما، اللذين كانا بصدد تغيير محلّ إقامتهما من ليون إلى باريس. فَقَدَ غسّان في ذلك الحريق بعض مقتنياته، ومنها شهادة تخرّجه، وقد حاول التواصل معي لاسترداد النسخة المصدّقة التي أودعها عندي، لكنّني كنت قد بدأتُ حياتي الجديدة. حدّثها أيضًا أنّه زار في رحلته المكتبةَ الأهليّة في باريس، حيث دلّه أحد الأمناء على مذكّرات أنطوان غالان، أوّل من ترجم الليالي العربيّة إلى الفرنسيّة، وقد أشار فيها إلى حنّا دياب وحكاياته التي أضافها إلى السفر الخالد، وذكر له أنّ المستشرق الفرنسيّ جيروم لنتان اكتشف مؤخّراً مخطوطة في مكتبة الفاتيكان، تعود إلى الشخص ذاته، تحدّث فيها عن رحلته من حلب إلى باريس، وتعود إلى القرن الثامن عشر، وقد أهداها للمكتبة قسّ سريانيّ من حلب.

حين ربطت خيوط الحكاية، بعد ترجمة تسجيلات أبي، أدركت أنّ هذا البيت الذي زرناه في حيّ العقبة، والذي هو بيت أهل غسّان، هو ذاته

البيت الذي قادتنا إليه الخريطة ليكون بيت حسن القزّاز، الذي وقع في حبّ فتوح العارفين قبل أكثر من مئتي سنة، وكان في ذلك البيت ذاته بنت مجذوبة تلعب بالدبابيس، وكانت ربيبتهم التي قتلت في الزلزال. بدأت أشكّ أنّني عشت مرتين، مرّة مع غسّان، ومرّة مع جدّه القزّاز حسن الذي حكى أبي قصّته في تسجيلاته.

قادني البحث إلى الوصول إلى ريّان، الذي كان صحفيّاً يعيش في باريس أيضاً، ووجدت صوره مع أمّه، المرأة التي سبقتني إلى حياة كان يمكن أن تكون لي. لم تكن شقراء، كانت بيضاء بشعر أسود قصير، وقوام لطيف، وأحمر شفاه ورديّ قانٍ، وقرطين فضّيّين على شكل عملتين قديمتين منقوشتين برأس الملك فيليب، يحتضنها ولدها بمرح، وقد أظهر القميص الأبيض وبنطلون المخمل الأسود ستايلها الأنيق، الذي ذكّرني بأنّها درست تاريخ الفنّ وعملت في مجال الأنتيكات.

ترجمتُ أحد مقالات ريّان عن الدمار الذي أصاب موقع مؤسّستهم (غرفة حنّا دياب) نتيجة الاشتباكات التي حصلت في منطقة الأسواق القديمة بين قوات النظام والمجموعات المسلّحة، وتحدّث فيه عن أعمال الترميم.

أذاقتني الصور التي عرضها التقرير مَرَاراً لم أعرفه من قبل، مع أنّ خوفي، الذي عشته في الأيّام الفائتة، من أن نقتل في المواجهات الأخيرة كان قد أفقدني القدرة على التفاعل، وأيقظ لديّ تروما قديمة، بدا أنّني لم أشف منها. فكم من الأطفال سيفقدون آباءهم في الحرب مثلما فقدت أبي للسبب ذاته: الصراع على البلد بين سلطة متعنّتة، ليس لديها نيّة في تغيير

سياساتها، أو التنازل عن مصالحها المعقّدة، وبين إرادة شعبيّة للتحرّر وتحقيق التداوليّة، لكنها مخطوفة من قبل فصائل مسلّحة، وما زال الصراع يولّد الخراب ذاته، ولم يتعلّم أيّ فريق من تجربة الثمانينيات، إلى أن تمّ أخيراً تدويل الخراب. كانت حجرتا عينيّ تؤلماني بشدّة، إذ جفّت دموعي حقّاً، ولم أبك إلاّ عندما سمعت صوت خليل وأمير حين تمكّنا من التواصل معنا.

صور خان العلبيّة والعقبة تقطّع القلب، الدمار طال كلّ شيء، مكتب غسّان بقي منه الدرج الذي أسرى بي يوماً إلى جنّة الحبّ، أمّا أحجار الخان فبقيت متكاتفة تحمل هيكل الغرف والساحة والبحرة واللواوين، مع خواء كبير في الداخل، لكنّ الأشجار ظلّت قائمة، ونباتات البرية قد انبثقت بين الحجر ونشرت اللون الأخضر في كلّ مكان. عشت بعدها لأسابيع مذهولة عمّا حولي، عالقة في ماضيّ مع غسّان، أسترجع لحظات الاحتواء، والعطف، والجمال الذي انهار بانهيار المدينة، ولا سبيل لاسترجاعه ثانية.

بقيت ملتصقة بذاكرتي، متفاجئة من جرأتي في ذلك الوقت على الدخول إلى عالم الجنّ والأرواح، وتتبّع آثار الغائبين، وكان يمكن للخطر أن يُلحقني بهم في أيّة لحظة.

حين أخبرني محمود أنّ بإمكاننا التجوّل في المدينة بشكل جزئيّ، والحصول على بعض حاجاتنا الأساسيّة، تركته يذهب وحده، وعدت إلى ترميم أبحاثي. أريد الآن أن أتمّم العمل الذي كلّفني كثيراً، ولن أسمح بأن يُسرق منّي مرّة أخرى. وإذا كان غسّان وابنه قد استأثرا بالعنوان، فأنا وأبي نستأثر بالحقيقة: فتوح العارفين، وميسّر،

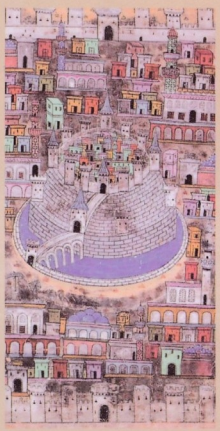
وهيلين، وحسن، ويوحنّا السريانيّ... وقد بتّ المالكة الوحيدة لتاريخ كبير لم يُدرَج في كتاب، ولا بدّ من أنّني سأخرج هذه الحكاية للعالم، لا من مغارة علي بابا، ولا من ألف ليلة وليلة، بل من قلبي الممتلئ بالحبّ والآلام.

تمّت

إيثيكا- نيويورك
تشرين الأوّل- 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

تتالت نقلات الحجر بين أيديهما تترى، وفي لحظة من اللحظات حدثت لمسة طائشة بين الأصابع، فاحمرّ وجه ميسّر غبطةً، واضطرب هدوء الطبيب، وسرت في بدنه رعشة سريعة كالبرق إثر ملمس الجلد الناعم الدافئ، وكأنّه لم يلمس من قبل جلود مئات من البشر الذين أسلموه أجسادهم كرهاً أو طوعاً، وفي تلك السانحة حرّكت ميسّر حصانها بتؤدة، وقالت بصوت واثق رزين: شاه مات.



شَهلا العُجيلي: أستاذة الأدب الحديث والدراسات الثقافيّة في الجامعة الأميركيّة في مادبا في الأردن. حصلت على الدكتوراه في الأدب والدراسات الثقافية من جامعة حلب. وصلت روايتها (سماء قريبة من بيتنا) إلى القائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة (البوكر) 2015، ووصلت روايتها (صيف مع العدوّ) إلى القائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة (البوكر) 2019. حصلت روايتها (عين الهرّ) على جائزة الدولة الأردنيّة في الآداب 2010. كما صدر لها في الرواية (سجّاد عجميّ) 2012، و نوفيلا ديجيتاليّة (إلى تشيخوف) 2020. حصلت مجموعتها القصصيّة (سرير بنت الملك) على جائزة (الملتقى- الجامعة الأميركيّة في الكويت) 2017، وهي أرفع جائزة عربيّة للقصّة القصيرة، ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة بانييال للأدب المترجم في لندن 2021. لها في القصّة القصيرة مجموعة (المشربيّة) 2005. ترجمت أعمالها إلى العديد من اللغات، كالإنجليزيّة، والألمانيّة، والإيطاليّة، والإسبانيّة، والفارسيّة، والبوسنيّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN-13: 978-614-02-4467-8
9 786140 246478
ثقافة THAQAFA للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
مجاز مشورات
منشورات ضفاف Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل و فرات .كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com